

مجلة المجمع العلمي

الجزء الثاني ـ المجلد التاسع والاربعون

بغـــداد

١٠٤

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

شروط النشر وضوابطه

١ ـ تنشر المجلة البحوث العلمية ذات السمة الفكرية والشمولية وبما يسهم في تحقيق اهداف المجمع .

٢ ـ لغة المجلة هي اللغة العربية ويراعى الباحثون والكتاب في صياغتهم الوضوح وسلامة اللغة .

٣ ـ يشترط في البحث ان لايكون قد نشر او قدم للنشر في مجلة خرى.

٤ ـ تعرض البحوث المقدمة للنشر في المجلة على محكمين من ذوي الاختصاص لبيان مدى اصالتها وجودتها وقيمة نتائجها وسلامة لغتها وصلاحيتها للنشر .

٥ ـ هيئة تحرير المجلة غير ملزمة برد البحوث الى اصحابها في حالة عدم قبولها للنشر .

٦ ـ يرسل البحث الى المجلة بالمواصفات التالية :

أ ـ ان يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة او مكتوباً باليد بخط واضح وجيد وعلى وجه واحد من الورقة .

ب ـ ترسل نسخة واحدة من البحث تحمل اسم الكاتب وعنوانه كاملا باللغة العربية .

جـ ـ يجب ان لا تزيد عدد الصفحات عن (٣٠) ثلاثين صفحة وبما لايتجاوز (٧٥٠٠) سبعة الاف وخمسمائة كلمة .

د ـ ان يكون مستوفياً للمصادر والمراجع ، موثقة توثيقاً تاماً حسب الاصول المعتمدة في التوثيق العلمي .

هـ ـ يرفق بالبحث ما يلزمه من اشكال او صور او رسوم او خرائط أو بيانات توضيحية اخرى ، على ان يوضح على كل ورقة مكانها من البحث ويشار الى المصدر اذا كانت مقتبسة .

و ـ ان تستخدم في البحث المصطلحات المقرة عربياً .

ز ـ يرفق بالبحث ملخص باللغتين العربية والانكليزية بحدود نصف صفحة لكل ملخص .

ح ـ تكتب الكلمات الدالة باللغة الانكليزية .

٧ ـ يعطي صاحب البحث ـ عند نشره ـ ثلاث نسخ من المجلة مع عشرة مستلات من بحثه .

البحوث لاتعبر بالضرورة عن رأي المجمع العلمي

مجلـة المجمـع العلمـي

مجلـة فصليـة انشئـت سنـة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

هيئـة التحريـر

ـ توجـه البحـوث والمراسـلات الـى : رئيس تحرير مجلـة المجمـع العلمي المجمـع العلمـي ـ ص . ب. (٤٠٢٣) بغـداد ـ جمهوريـة العـراق

هـاتف : « ٤٢٢١٧٢٣ ـ ٤٢٢٢٠٦٦ » فـاكس : ٤٢٥٤٥٢٣ / ١ـ ٩٦٤

E-mail : aos@uruklink.net

الفهــرس

الموضــوع **الصفحة**

أنماط التفاعل الحضاري(★)

الدكتور محمود حياوي حماش
رئيس المجمع العلمي وكالة

منذ وجد الانسان على الارض ، كوّن مجتمعات لها انعزالها النسبي عن بعضها على الرغم من كونه جنسا واحدا ، اي من اصل واحد (Homo Sapiens sapiens) .

وهذا الانتشار الجغرافي للمجموعات البشرية قد تحول بالتدريج من صفته العرقية الى سمات متعلقة بامور اخرى كاللغة والثقافة ، والتأقلم الدقيق للافراد بعضهم مع بعض لكي يعيشوا في ظل عادات وتقاليد مشتركة ، وهموم مشتركة وبصورة خاصة يواجهون ازمات مشتركة سواء كانت ازمات طبيعية او ازمات التحدي لمخاطر اخرى كالنزاع والصراع لاجل العيش مع مجموعات اخرى ... الخ مما يسهل اندماج المجموعة في تنظيم اجتماعي ومن ثم سياسي اكثر تقاربا .

إذن في ظل هذه الاطر والمقيدات نشأت الحضارات . وعند السؤال هل حال ذلك دون تلاقي المجموعات البشرية وتعاونها ؟ الاجابة طبعا : لا : ولكن السؤال الاتي : هل كان انتقال المعرفة والثقافة والتقانات التي هي نتاج لحضارة ما الى حضارة اخرى ممكنا ؟ وما وسائل الانتقال ؟ لا شك في ان ذلك سؤال تاريخي يمكن ان يكون موضوعا للبحث والتمحيص التاريخي وهذا ليس من شأني ، كما اني لست مؤهلا للقيام به .

(★) ورقة قدمت الى مؤتمر الدورة الثامنة والستون لمجمع اللغة العربية في القاهرة المخصص لموضوع التأثير المتبادل بين الثقافة العربية والثقافات الاخرى.

ولكني اود ان اشير الى بعض الملاحظات العامة التي يمكن ان تسهم في إلقاء الضوء على بعض مشكلات ما يطرح الان من نظرات تنعكس في السياسة الحالية للدول الكبرى ، وتؤثر في احداث خطيرة تحصل حاليا :

١ ـ علينا ان نفرق بين النقل ، و «التلاقح» فالنقل يظل في الاغلب سطحيا ، ولغرض محدد لاستخدامه في نقل معلومة او نقل تقنية لتحسين اداء معين ، او لحل مشكلة • وعلى الرغم مما يقال ، ان نقل التقنيّة يتبعه آثار ثقافية واجتماعية وحضارية ، ولكن الاساس في البداية ليس موجها لنقل حضاري مبرمج او هادف •

ان التفهم والتمثل ، والتعامل مع جوانب حضارية فكرية خاصة ، انما هو عملية عميقة تستلزم امورا اكثر من مجرد استخدام آلة منقولة او قراءة رواية مترجمة • انه عملية عقلية متواصلة تتخلل العروق والنفس •

لننظر الى بعض ما يسجله التاريخ من انتقالات حضارية : انتقلت الكثير من العلوم ولا سيما النظرية ، مما توصلت اليها الحضارتان العراقية والمصرية القديمتان ، الى الاغريق • ولم يكن هذا الانتقال مصحوبا بأي نوع من نواع القسر او الحروب ، وانما هو انتقال سلمي تفاعلي • وكذلك تم في عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ولا سيما في العصر العباسي ، ترجمة مئات الكتب اليونانية الى العربية للافادة منها ، من العلماء والمفكرين والمثقفين العرب والمسلمين • وقد مر انتقال هذه النتاجات الحضارية على الجانبين ، بمرحلة النقل الحرفي للتعليم والممارسة المهنية (كما يلاحظ في الطب مثلا) ؛ ثم مرحلة التمثّل ، ضمن مرحلة يمتزج بها النتاج الحضاري المحلي مع المنقول ، الذي اصبح مفهوما ومصنفا ، وعرفت ثناياه بما يمكن ان «يفيد» من وجهة نظر الحضارة المقتبسة وبما يمكن ان يُترك ، وكل ذلك بحدود خصوصية الزمان والمكان والمجتمع للحضارة المنتجة •

في الانتقال الى المرحلة الثالثة ، المتصفة بالنضج الحضاري المتسامي ، الذي لم يعد التميز بين ما هو خارجي وما هو داخلي ، في تتاج يتصف بالوحدة الفكرية والعقلية الثقافية الواضحة .

٢ ــ علينا ان نفرق بين النقل القسري ، والاختيار الانتقائي للمنقول بين الحضارات المتفاعلة .

فالصدام والانتصارات العسكرية على الخصم ، ليس وسيلة مباشرة لنقل الثقافة والحضارة ،إلا اذا كانت الامة في الجهة المقابلة لا تمتلك البنيان الحضاري الروحي والثقافي المتماسك .

وبالتأكيد ان محاولة كثير من الامبراطوريات التي قامت لان تنشر ثقافتها الى شعوب اخرى . وقد استغرق ذلك وقتا طويلا جدا في محاولتها للتغلغل الثقافي والفكري واللغوي .

ان وسائل اخرى في التأثير الحضاري بعيد الامد تبدو مهمة ، مثل حركة البشر وانتقالهم ، خاصة عبر التجارة والمبادلات وحركة البضائع وتعاظم وسائل النقل والاتصالات اضافة الى التأثير الديني .

وفي هذا المجال علينا ان نفرق بين فئة او حضارة تحاول ان تفرض ثقافتها بالقسر والقوة ، وبين امة تعرض ثقافتها ونتاج حضارتها في خدمة الآخرين للتعاطي معها بشكل اختياري حيث تعمل آلية التلاقي والاتصال على انسياب متبادل للمؤثرات والنتاج الثقافي والفكري والتقني . وهذا ما حصل لفترة طويلة بعد الفتح العربي الاسلامي لبلدان خارج المنطقة الجغرافية العربية ، حيث لم يُجبر سكان تلك المناطق على تغيير نمط حياتهم وتقاليدهم وزيهم ، عدا ما يتعلق بثوابت الدين التي يستوجب مراعاتها . فعلى مدى قرون من التأثير المتبادل ، تفاعلت الحضارة العربية الاسلامية ، واقتبست الكثير من الحضارات الاخرى ضمن المنظومة الثقافية العربية ، بدون تحسس زائد كما أثرت في حضارة الشعوب المختلفة التي اتصلت بها .

ولم يكن الدين هو العامل الوحيد في تسهيل هذا التبادل الحضاري ، بل لا بد من القول ان التجارة وانتقال الاشخاص والتعطش الى المعرفة لدى الاخرين ،كل ذلك كان وسيلة مهمة .

ان التأثير المتبادل لحضارات منفتحة على بعضها قد حصل من دون ان يكون له هدف إلغاء خصوصية الاخر . وكان ما يتم اقتباسه وتمثله يصبح متلائما وجزءامن المنظومةالثقافية الحضاريةفي اي من الاطراف. اما ما يقتبس مؤقتا ولا يدخل ضمن المنظومة الحضارية ولا يتم تمثله فيها فيبقى غريبا وسطحيا وربما يوسم بانه غير متفق مع الثقافة الحضارية القائمة .

ان هذا النوع من التأثير المتبادل يعتمد على صيغة اتصال طبيعي ، دون قسر او تعال من جانب تجاه جانب آخر .

ان هذه الدرجة الواسعة من التأثير المتبادل نلاحظها بالنسبة للحضارة العربية الاسلامية مع الشعوب والبلدان التي دخلت ضمن إطار الدولة العربية الاسلامية ، حيث تحقق شرط الاتصال السلمي الطويل الامد ؛ ولكننا قد نجد حصول تأثير متبادل ، حتى في حالة الاحتكاك الصدامي او الحرب بين دول وحضارات .

ولكن ذلك يكون مقرونا بالرفض في البداية . غير ان التداخل ، واحتجاز المجموعات البشرية ، والاحتكاك في الجوانب التقنية والادارية يعد من علامات التأثر المتبادل .

وعلى الرغم من سمة الصدام بين الدولة العربية الاسلامية في تاريخها القديم والدول والانظمة في اوربا ، فان الاشعاع الثقافي العربي الاسلامي على الجانب الاوربي متعدد الجوانب . وحتى في ظروف الحروب الصليبية (او بالاحرى « حروب الفرنجة ») فان انتقال الكثير من المؤثرات قد حصل كما أيده الكثير من الباحثين . وانتقال المعرفة العلمية في مجالات الرياضيات والكيمياء والفلك والطب

والعلوم الاخرى ، قد استمر بشكل واسع ، وكان له اثر كبير في النهضة الحضارية الاوربية ولم يكن هذا التأثير مقصورا على فترة قيام الدولة العربية في الاندلس مثلا ، بل استمر في استثمار المعرفة التي استمرت متوفرة سواء كان في الكتب والمؤلفات والمخطوطات او من خلال العلماء وذوي الخبرة .

وعلى الرغم من هذا الاقتباس الواسع، إلا انه لم يحرّف او يخلخل المنظومة الحضارية ــ الثقافية الاوربية ، لانه غير موجّه لهذا الهدف ــ اي هدف الاخلال بهذه المنظومة .

٣ ــ في عصرنا الحاضر ، يبرز نمط خاص في التفاعل الحضاري ، حيث تبرز الحضارة الاوربية بامكانيات كبيرة وواسعة ووسائل تأثير متنوعة ، مع سلطة وقدرة للهيمنة العسكرية والسياسية كبيرة جدا . وعلى الرغم من سعة التفاعل الحضاري واهميته في الوقت الحاضر إلا ان سمات مضرة تبرز في هذه الحالة ، لان الحضارة الغربية تتعامل مع الحضارات الاخرى على انها تمثل « المركز » والاخرين يمثلون « الاطراف » وان انتقال التأثير الحضاري (عموما) باتجاه واحد ، من المركز الى الاطراف .
ليس هذا فحسب بل ان ما يغلب على الخطاب الثقافي والسياسي والاعلام الغربي ، هو ما يمكن ان يوصف بتهميش « الاخر » ، او حتى إلغائه او اعتباره غير موجود ، او التصرف بالتعالي واتخاذ منحى قسري باتجاه الشعوب الأخرى وتقويم ثقافاتها .

ان التناقض الصارخ الذي تقع فيه الثقافة الغربية ، هو الادعاء بانها وصلت الى مرحلة من السمو الانساني الذي يحقق للانسان حقوقه وحريته ويحترم كيانه وفرديته ، وثقافته ، في حين انها تعامل الشعوب والثقافات خارج مجال الكيان الحضاري الغربي على انها بمستوى دوني ، وتسلك اتجاهها سلوك التميز وإنكار الحقوق ، لا بل استباحة كيانها وثرواتها وثقافتها .

ان هذا المفهوم الذي يعكس ، ازدواجية القيم ، فهناك تقييم للسادة وآخر للعبيد (او الاخرين الذين هم بمستوى اقل من الاول) هو التناقض التاريخي للحضارة الغربية .

ان ذات النظرة السائدة في النظر دونيا الى الحضارات الاخرى هو ما يتجسد في دعوات صراع الحضارت ، وتحويل ذلك الى دعوة بل الى سياسة مبرمجة في مواجهة الحضارة العربية الاسلامية (انظر صاموئيل هنتجتون) ، او تتجسد بصيغة اخرى هي دعوة « العولمة » او الكوكبة (او بالاحرى « الامركة ») . ان هذه الدعوة تعني — مع عدم توفر الفرص والامكانات المتكافئة — محاولة نشر نموذج ثقافي — حضاري احادي الجانب ، ويعني إضعاف الخصائص الثقافية والحضارية للاخر ، واختراق منظومته وتفتيت وحدة كيانه .

في الوقت الذي نجهد للانفتاح على حضارة الغرب ، آملين في ان ننهل من العلوم والمعرفة والتقدم وقطف ثمار حضارة كبيرة لتحقيق نهضة عربية ، وللارتقاء بالحالة الانسانية والحياتية للمجتمع العربي ، ان هذا التوجه الذي ينسجم مع تصور للتفاعل الحضاري قائم على التعاون الانساني ، وان البشرية ككل تشترك في بناء اي حضارة وتساهم بها بدرجات متفاوتة .

غير انه قد يفوتنا او نغفل عن الانتباه الى الملاحظات الاتية :

اولا — ان تصورنا للتاريخ ومساهمة الحضارة العربية الاسلامية في تحقيق النهضة الاوربية ، لا يتطابق مع ما يعترف به معظم الذين يتحدثون باسم الحضارة الغربية وان هناك ميلا واضحا (على الرغم من وجود بعض الباحثين المنصفين) الى إهمال هذا الدور والتقليل من شأنه .

ثانيا — ان النظرة السائدة في العالم الغربي ، الى العرب والمسلمين ، ما زالت نظرة محكومة بمنطلقات بدائية ، تمثل العرب في ضوء ما تنقله بعض

المغرضين من صورة تمثلنا بأناس متصبين تهدف الى احتلال اوربا وان سياستنا الغزو والتدمير •

ولم يحاول المسيطرون على التوعية الثقافية والاعلامية فعلا السماح بفهم افضل للعرب والمسلمين وثقافتهم الانسانية • وفي الامد المتأخر نرى ان باحثيهم ومعظم المستشرقين يركزون على ابراز جوانب سلبية او جوانب نشأت من خلال العصور المظلمة التي احاطت بالامة العربية • وعلى الرغم مما اضافته دراسة المستشرقين الى معلوماتنا عن انفسنا ، فان نزعة مغرضة ظلت تختبىء في الكثير من كتاباتهم •

ثالثا ـ ان التعامل المتعالي ، ازاء الحضارات غير الاوربية التي تمثل انحرافا وتناقضا قيما ، وكأنه يعطي الحق للحضارة « السائدة » للتصرف بحقوق الاخرين ، وإعادة تشكيل كياناتهم الفكرية والقانونية والاجتماعية والسياسية على وفق ما يقرره المركز الحضاري ، ولمصلحته اي مثلا (المركز الحضاري) •

لذا نجد ان خطط هذا المركز وتوجيهاته لا تتوافق مع النمو الطبيعي للحضارات الاخرى ، واحيانا كما يحصل ازاء منطقتنا العربية والاسلامية نجد تناقضا خطيرا في التوجهات وفي ثبات سياسة الغرب ازاء تطلعات التوحد العربي والاستقلال السياسي ، واضحة عبر التاريخ المعاصر •

فقد دأبت السياسات الغربية على مقاومة اي توجه نحو الوحدة ، بخطط مقصودة وباصرار شديد ، ووجهت تأثيرها الفكري والثقافي ليخدم اغراض التجزئة والتفتيت ، والسعي لاضعاف ركائز الوحدة الحضارية والثقافية ، وهي العمل على اضعاف الهوية القومية واللغة العربية الواحدة ، وتعزيز وإسناد التوجهات القطرية والاقليمية والطائفية بشكل يجعل التفاعل الحضاري مقننا بقيود موضوعة سلفا وتهدف الى تفتيت الحضارة الواحدة • ان هذا النمط من تقييد التفاعل والتأثير الحضاري وتوجيهه هو نمط قسري لا يتيح للنمو الانساني ان يتواصل بشكل نمو طبيعي •

ولا بد للدارس ان يتساءل : لماذا يطغى توجه كهذا ليحرف حضارة كبرى ، بتوجهات تحمل سمات لا انسانية ؟!

قد تصعب الاجابة ، ولكن الكثير من الدارسين يشيرون الى ترابط التوجهات التي تسود حضارة ما ، بالمنظومة الاجتماعية ــ الاقتصادية الفاعلة في المجتمع ٠

ان توافق فكرة الحضارة المركزية المتعالية مع نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي معين يتيح للشركات والافراد الذين هدفهم الاساسي تركيز الثروة والسلطة وتحقيق اعلى الارباح ، بغض النظر عن المعاني والاهداف الانسانية للحضارة البشرية (التي هي إسعاد المجتمع البشري وإتاحة الفرص لتحقيق انسانية الانسان فردا ومجموعا) ، كل ذلك ادى الى ظاهرة الاستعمار ٠ وسيظل مثل هذا النظام يؤدي الى الرغبة في السيطرة على الاخرين واستغلال البلدان الاخرى ٠ وقد لحق بذلك مفهوم يقول ان هذه الانظمة تحقق لمجتمعاتها نموا مضطردا ، ثم ان هذا النمو سينتشر الى الاقطار الاخرى والمجتمعات المختلفة ، وبهذا يساعد على تقدمها الحضاري ، ولكن في الوقت الذي يحقق تقدما تقنيا ، وحتى حضاريا في الداخل ــ فانه يسلب حقوق الشعوب الاخرى ويؤدي الى ارغامها قسرا لان تتحول في بنائها الفكري والثقافي والاجتماعي على وفق ما يخدم ادامة هذه العلاقة وهذا النظام الذي بنيت على وفقه الحضارة الغربية ٠ اي ان الحضارة الغربية ــ بما يمثلها من قادة السياسة وبعض المفكرين ــ تدعي انها تعمل على تنمية التقدم الحضاري في العالم ، ولكن على اساس استمرار السلب وبشرط ان تتحول الحضارات الاخرى نحو انموذج ثقافي واجتماعي معين ٠ وهذا التناقض هو ما تنطوي عليه فكرة « العولمة » حاليا ٠

ولكن التطور المذهل الذي حصل في امتلاك قوة مدمرة واستخدامها لاجبار الشعوب او في الاقل لارهابها ، لكي تخضع الى سياسة المركز السائد

للحضارة الغربية ، لا شك في ان ذلك يؤشر مرحلة جديدة من الاستعمار الحديث .

والسؤال الذي على المفكرين والمثقفين العرب ان يجيبوا عنه : كيف العمل ازاء ذلك ؟ إن التفاعل مع الحضارة الغربية الكبيرة والمتقدمة ، مهم ، للتقدم الحضاري، ومع ذلك فان خطورة التأثير القسري المباشر او غير المباشر كونه ينطوي على نية تهدف الى تفتيت الوحدة الحضارية والثقافية العربية ، لاتاحة المجال ، للكيان الصهيوني ، المزروع ، للترعرع والنمو ، خدمة لتحالف قائم بين فكرة الصهيونية والسياسة الغربية ، منعا لاقامة كيان عربي موحد ، متقدم ، تفترض الساسة الغربية مسبقا ، بانه سيكون خطرا عليها (!).

ان الاجابة لا تكون إلا بجهد عربي مشترك ، ولكن لابد من الانتباه الى ان التأثيرات الخارجية اصبحت كبيرة جدا من خلال تطور تقنيات الاتصالات والدعاية والاعلام ، فان التوجه يجب ان ينصب على التمييز بين ما هو معلومة، وعلوم وثقافة عامة ومعرفة وتقانات صرفة ، وبين ما يمس الاسس والثوابت التي تركز عليها الثقافة العربية والهوية المميزة للامة . وهنا تكتسب اللغة العربية اهمية كبيرة في هذا المجال ، وكذلك الثوابت الاخرى التي تحافظ على تماسك العائلة في المجتمع العربي وعلى وحدة الثقافة والهوية القومية ، مع التأكيد على ان الثقافة العربية لا ترفض الحوار فهي ليست ثقافة منغلقة .

وكخلاصة فيما حاولت عرضه:

ان تغيرا في نمط التفاعل الثقافي ـ الحضاري ، الذي عرفناه غالبا في الثقافات مع بعضها خلال نموها الطبيعي ، بان تؤثر وتتأثر بادوات ووسائل عديدة ومتباينة من حيث الاهمية .

اما ما يطرح في الوقت الحاضر ، فهو التلويح بالصراع ، بدل التفاعل التبادلي ، الذي قد يوصف اختزالا بالحوار .

فالحضارة الغربية ـ التي تطغي فيها الان السمات الامريكية ـ تطرح نفسها ، اولا ، بانها حضارة متقدمة على الحضارات الاخرى ، وانها تمثل التفوق (والمركز) وان الاخرين يمثلون مستوى ادنى .

وثانيا ، تتبنى موقفا يدعو الى ان يتبع الاخرون خطى الحضارة الغربية على وفق ما يعرف بالعولمة او الكوكبة او بالأحرى « الامركة » . بالجوانب المختلفة لهذه الدعوة ، ولكن بالخصوص الجانب الثقافي والاقتصادي .

وثالثا ، ان الوقت الحاضر يشهد تراكزا وتكثيفا لمفهومي :

مركزية الحضارة ، ومفهوم الصدام ، فضلا عن ان القيادات العليا في الحضارة الغربية ـ الامريكية تتبنى موقفا عمليا تجاه الحضارات الاخرى ، محاولة الانتقاص منها وتفتيتها وتشويه هويتها الخصوصية اي انها تأخذ بالاسلوب القسري في التفاعل الحضاري ـ خاصة تجاه العرب المسلمين ـ ذلك الاسلوب الذي يعني فرض ثقافة معينة وازاحة الثقافات الاخرى ، بحيث لا يبقى منها إلا تراث مشوّه .

ان مسؤولية قادة الفكر والثقافة ، واضحة في هذا المجال ، وهي العمل بكل الطاقات الممكنة لتثبيت وحدة الهوية ، مع التأكيد على اهمية اللغة والتربية ، في هذا المجال . وكذلك محاربة الممارسات التي تهدف الى التفتيت والاقلية والقطرية الضعيفة ، وكذلك إيجاد الحلول الناجمة لمعالجة التحديات التي جاءت مع التطورات العلمية والثقافية . كما ان تحقيق نماذج إيجابية واعية من الاستيعاب للتطور العلمي والثقافي المعاصر ضمن الاطار الثقافي الحضاري العربي والاسلامي له اهمية في هذا المجال .

نضائد الرصاص الحامضية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً

القسم الأول ـ التطور التاريخي والفني والعلمي

الدكتور جلال محمد صالح
عضو المجمع العلمي
أستاذ في جامعة بغداد

الملخص :

بقيت نضيدة الرصاص الحامضية ، التي أخترعت قبل نحو قرن ونصف من الان سيدة سوق النضائد العالمي ومصدرا مهما لتوليد الطاقة الكهربائية على الرغم من الجهود المكثفة والمتلاحقة التي بذلت للاحلال بمحلها بمصادر قدرة أخف وزنا وأقل كلفة • ولم تظهر في الاسواق حتى الان نضائد تضاهي نضيدة الرصاص الحامضية على مقاييس السعر والاداء والعمر • إن وفرة الرصاص في العالم ، وهو المادة الخام لصناعة هذه النضائد ، وإمكان استرجاعه بعد التصنيع هي من الامور التي تدعم بقوة تفضيل هذه النضائد على غيرها من النضائد الحامضية أو القاعدية • ويستخدم مئات الملايين من هذه النضائد في العالم اليوم لتوليد الطاقة الكهربائية في الأجهزة والمحركات وبدالات الهواتف ولإغراض الإنارة ، ويزداد الطلب على هذه النضائد في كل مكان سنة بعد اخرى • أدخلت تطويرات وتحسينات مختلفة على صناعة هذه النضائد وتقنياتها منذ اكتشافها حتى الان • إن الاهتمامات العالمية الجديدة بالسيارات الكهربائية ساعدت على تعزيز البحوث التي تجرى لتطوير نضائد الرصاص الحامضية • وسوف يكشف لنا المستقبل القريب عن تقانات جديدة لاحداث تحسينات كبيرة على هذه النضائد • إن تصنيع مشبكات فائقة الرقة الغنية بالمادة الفعالة في السنين الاخيرة يُعَدّ تطورا مهما وسيكون له الاثر البالغ على عمل نضائد الرصاص الحامضية وادائها •

سيتناول هذا البحث استعراض اهم الاسس والتطورات التي حدثت في نضائد الرصاص الحامضية خلال القرن والنصف من الزمان المنصرم ومحاولة البلوغ الى فهم افضل للتراكيب الكيميائية والبلورية لهذه النضائد وللعمليات العلمية والفنية التي اشتملت عليها •

بالرغم من الجهود المكثفة والمستمرة التي أستهدفت الحصول على مصادر قدرة كهروكيميائية خفيفة الوزن ووطيئة الكلفة ، بقيت نضيدة★ الرصاص الحامضية (Lead-Acid Batteries) ، وتدعى أيضا بنضيدة الخزن الحامضية (Lead-Storage Batteries) ، التي أخترعت قبل نحو قرن ونصف من الان صامدة لم يَفْتَرْ سوقها ولم تتزحزح عن المنافسة التجارية ، وبقيت مصدرا مهما من مصادر توليد الطاقة الكهربائية . ويجري في يومنا هذا استخدام مئات الملايين من نضائد الرصاص الحامضية في تشغيل السيارات والمحركات والمكائن ، وفي تغذية بدالات الهواتف ، وهي تستعمل لاغراض الإنارة في وسائل النقل المختلفة ووجدت استعمالات كثيرة أُخرى في حياتنا اليومية .

إن نظرة سريعة الى تاريخ نضيدة الرصاص الحامضية تقودنا الى سؤال حيوي ومهم ، وهو : لماذا لا نزال نستخدم هذه النضيدة في كل هذه المجالات وعلى الرغم من ظهور انواع كثيرة أُخرى من النضائد في العالم وعلى الرغم من التطورات الكبيرة التي حدثت في صناعة النضائد ؟ الجواب عن هذا السؤال يكمن في الطلب الكبير المتزايد سنة بعد أخرى على نضيدة الرصاص الحامضية في الاسواق العالمية ،

★ النضيدة تقابل كلمة البطارية (Battery) ، وهي تتألف من عدة خلايا مربوطة معاً . والخلية (Cell) هي الوحدة الأساسية في بنية النضيدة . وأطلق على النضيدة أيضا اسم المركم (Accumulator) .

بجانب التطــورات الكبيرة التي أُدخلت فــي صناعــة هــذه النضــائد وتقنياتها خلال القرن والنصف المنصرم . وسيكشف لنا المستقبل أيضـــاً عن مبررات جديدة أخرى . والتاريخ نفسه يُطالبنا أن نكون صبورين وأن لا نتعجل في الحكم على هذه النضائد لغير صالحها .

اكتشف العالم فولطا (Volta) النضيدة الأولى (المركم الأول) عـــام ١٨٠٠م ، ولكن العالم بلانتي (Planté) كان أولُ من بنى تلــك النضيــدة بصورة عملية بعد مضي نحو نصف قرن على اكتشافها من قبل فولطـــا . وضمتْ نضيدة بلانتي ألواحاً مــن الرصـــاص كأقطـــاب(Electrodes) غمرها في محلول مخفف مــن حامض الكبريتيك .أما الاستخدام الفعلـــي لهذه النضيدة مــن أجل الحصول على تيار كهربائي مباشر فقــد تحقــق مــن قبل العـــالم سنستيدين (Sinsteden) عـــام ١٨٥٤م . أمـــا العـــالم دي لاريفي (De la Rive) فقد استبدل أقطاب الرصاص التي اســـتعملها بلانتي في نضيدته بأقطاب من فوق أوكسيد الرصاص .

يجرى تقسيم تاريخ نشوء خلية الرصاص الحامضية وتطورها إلـــى ثلاث مراحل رئيسة :

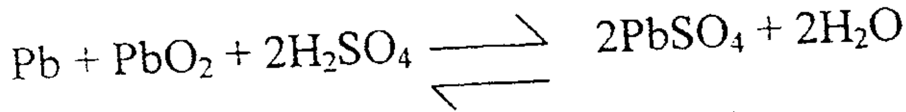
١- المرحلة الأولى :-

بدأت باكتشاف الخلية من قبل فولطا واستخدامها فيما بعد مــن قبــل سنستيدين ودي لاريفي للحصول على تيار كهربـــائي مباشـــر. بُذلــتْ جهود كثيرة خلال الأعوام (١٨٦٠ ــ ١٩١٠) لفهم تراكيب أقطاب خلية الرصاص الحامضية ووضع التقنيات المناسبة لتصنيعها . ونتداول اليــوم نوعين من التراكيب الصفيحية لأقطاب هذه الخلايـــا ، أولــهما الألـــواح

المكسوة بالعجينة التي ابتدعها فاوري (Faure) عـــام ١٨٨٦ ، والنــوع الثاني الألواح الانبوبية التي وُجدتْ في بداية القرن العشرين . ويتم إعداد ألواح النوع الأول بأكساء مشبك مصنوع من سبيكة رصـــاص بعجينــة تُحضر من مسحوق رصاص غير مكتمل التأكسد مع المـــاء وحــامض الكبريتيك . والسبيكة المناسبة لهذا الغــرض هـــي ســبيكة الانتمــون والرصاص التي تحتوي أيضاً على نسب وزنية صغيرة مـــن بعــض العناصر الأخرى . أمــا الــواح النوع الثاني التـــي تُدعــى بــالالواح الأنبوبية فيتم تحضيرهــا بملــيء أنــابيب زجاجيـــة أو بلاستيكيـــة (بوليمرية) أو ليفية مُقاومة للحامض بمخلوط من أوكســيد الرصــاص وأوكسيد الرصاص الأحمر . ويتم ترتيب هذه الأنابيب بصورة متوازيــة حتى تتكون منها صفيحة . ويتم ربط مسحوق كل أنبوب بسلك أو عمــود أو ملف من سبيكة الرصاص لغرض إدخال الالكترونـــات أو إخراجـــها منها أثناء عمل النضيدة . ويتّم شحن ألواح النضيدة بعـــد غمرهـــا فـــي حوض يحتوي على محلول حامض الكبريتيك حتى تتحول إلى رصـــاص أسفنجي لاستخدامها كألواح سالبة أو تتحول إلى ثنائي (فوق) أوكســـيد الرصاص لغرض استخدامها كالواح موجبة .

نشر العالمان كلادستون (Gladstone) وترايــب (Tribe) عـــام ١٨٨٠ نظرية الكبريتات المزدوجة (Double Sulphate Theory) التـــي تقضي بأن التفاعل الاجمالي في خلية الرصاص الحامضية يــؤدي إلـــى تكوين ملح كبريتات الرصاص ($Pb\ SO_4$) على أقطابها ، أي أن الألـــواح

الموجبة والسالبة للنضيدة سوف تتحول في النهايـــة إلـــى كبريتـــات الرصاص على وفق التفاعل الآتي :-



$$Pb + PbO_2 + 2H_2SO_4 \rightleftharpoons 2PbSO_4 + 2H_2O$$

وبحلول عام ١٩١٠ أستقرت الآراء بشأن التراكيب الأساسية لأقطاب خلية الرصاص الحامضية وتوضحت تفاعلاتها فـــي عمليتـــي التفريـــغ والشحن بشكل أفضل . يبين الشكلان (١) و (٢) بعض أنـــواع الألـــواح والنضائد التي استخدمت خلال القرن العشرين .

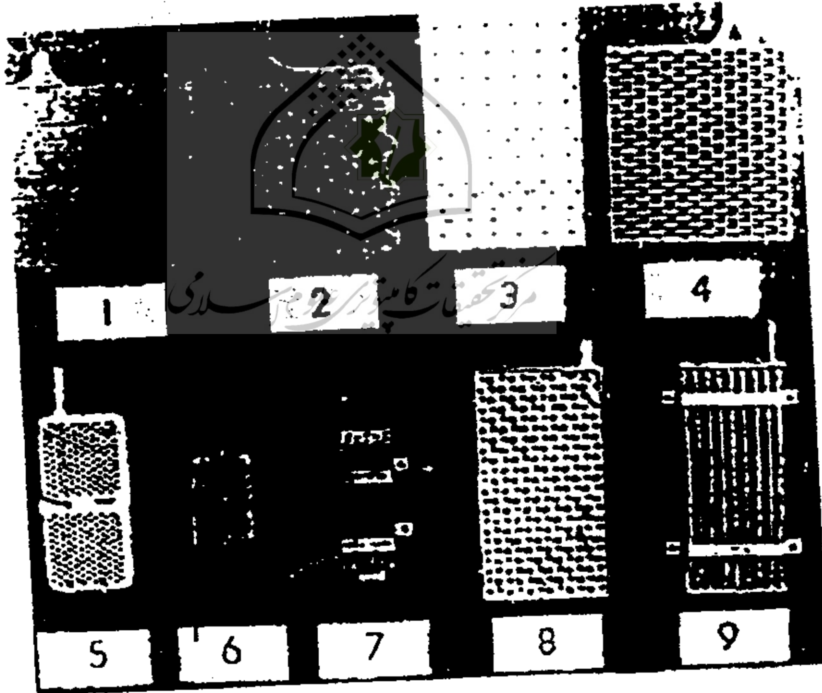


Fig. 1. Collection of plate designs, as used at the beginning of this century.

الشكل (١) ــ مجموعة من تصاميم ألواح نضيدة الرصاص الحامضية التي أستعملت خلال القرن المنصرم

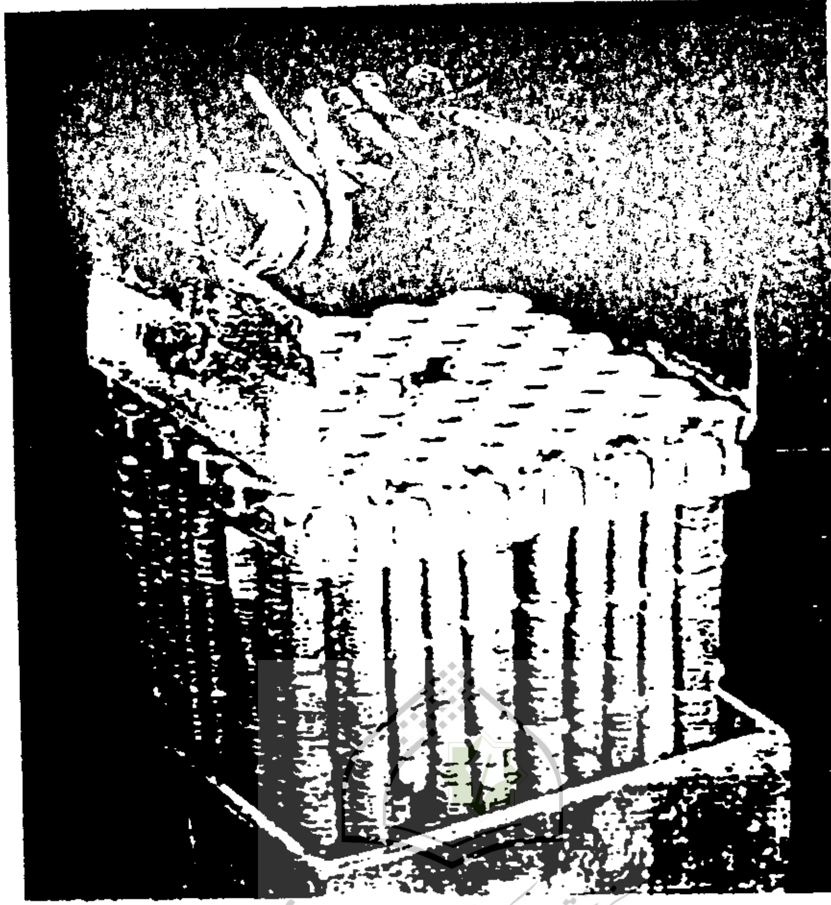


Fig. 2 Early tubular battery construction, about 1900. The tubes are formed of hard rubber washers, piled upon another.

الشكل (٢) ـ أنموذج من نضيدة الرصاص الحامضية ذات الواح أنبوبية صنعت عام ١٩٠٠ . الأنابيب مصنوعة من المطاط .

٢- المرحلة الثانية :-

حدثت خلال الأعوام (١٩١٠ ـ ١٩٥٠) تطـورتْ خلالـها تقنيـة صناعة أقطاب نضيدة الرصاص الحامضية وتقنيـة تصنيـع النضيـدة نفسها ، وتم خلال هذه المرحلة استعمال مكائن ومعدات سـاعدتْ فـي الحصول على أكاسيد رصاص بدقائق أكثر نقاوة وأشدُ نعومـة ، وإلـى ابتداع طريقة أسرع لصب المشبكات وإلى استخدام طريقـة ميكانيكيـة لإكسائها بالعجينة . وكان الحدث المهم في هذه الحقبة الزمنية هو إضافـة مادة اللكنين (Lignin) إلى معجون اللوح السالب . وكانت هذه الإضافـة مهمة في تحسين عمر دورة النضيدة من خلال إعاقـة تخشن دقـائق الأوكسيد. وجرى فـي هـذه المرحلة أيضاً استبدال الفواصل (العوازل) الخشبية التي كانت تُستخدم لمنع تماس الأقطاب مـع بعضـها داخـل النضيدة بفواصل مطاطية ذات مسـامات مجهريـة (عـام ١٩٢٧) أو باوراق خاصة مشبعة بالراتنـج (عـام ١٩٤٨) . وأمكـن لأول مـرة استخدام مشبكات رصاصية خالية من عنصر الانتمون (عـام ١٩٣٥) ، وتمت إضافة عنصر الزرنيخ إلى سبيكة الرصاص والانتمون التي تُصنع منها المشبكات لغرض زيادة مقاومـة السبيكة للتأكل . ومن التطـورات الأخرى التي تحققتْ خـلال هـذه الحقبـة الحصـول علـى بيانـات ثيرموديناميكية دقيقة عن تفاعلات أقطاب الرصـاص وفـوق أوكسـيد الرصاص مع حامض الكبريتيك خلال عملية تفريغ النضيدة من تيارهـا الكهربائي . وحصلتْ نظرية الكبريتات المزدوجة التي أشرنا إليها فـي المرحلة الأولى دعماً أكبر لدى المهتمين بشؤون النضائد خلال هذه المرحلة .

٣- المرحلة الثالثـة :-

وقعت أحداثها خلال الأعوام (١٩٥٠ ــ ٢٠٠٠) . وتمـيزت هـذه المرحلة بتطورات كثيرة ومتنوعة شملتْ استعمال البولي بروبلين ومـواد بوليمرية أُخرى بدل المطاط فـي صُنع وعاء (صندوق وغطاء) نضيدة الرصاص الحامضية وفي تقسيم فسحته الداخلية إلى حُجرات . وأُستعملتْ مشبكات وطيئة (أو خالية) الانتمون في بناء هياكل الألواح ، وجُعِلـت الألواح أرق مع إدخال تحسينات ملحوظة في تصاميمها وتصاميم موادها لاسيما المادة الفعالة للألواح الموجبة وذلك لضمان الحصول على سـرعة تفريغ أعلى .

وظهرت خلال هذه المرحلة التاريخية تقنية الشحن الجـاف لنضـائد الرصاص الحامضية . كما تَمَ لأول مرة تشخيص طور ألفا البلوري فـي ثنائي أوكسيد الرصاص الذي يتكون على الألـواح الموجبـة بعمليتـي التعتيق والشحن .

عـندما أشتـدت كثافة البحوث والدراسات علـى خلايـا الوقـود (Fuel Cells) خلال الستينيات من القرن العشرين ظهر مقال مثير علـى صفحات إحدى المجلات العلمية يحمل عنوانـه السـؤال الآتـي : هـل أصبحت نضائد الرصاص الحامضية طرازاً قديماً ينبغـي تجاوزهـا ؟ الجواب عن هذا السؤال هو أن نضيدة الرصاص الحامضية لم تكن كذلك ولن تصبح كذلك في المستقبل المنظور بدليل ازدياد الطلب علـى هـذه النضائد في الأسواق سنة بعد أُخرى خلال السنين الاربعين التي أعقبـتْ ظهور ذلك المقال . ولم تظهر حتى الآن نضائد جديدة علـى المسـرح

التجاري أفضل من نضيدة الرصاص الحامضية على مقــــاييس الســعر والأداء وإمكان إعادة الشحن . أن انتشار نضائد الرصـــاص الحامضيــة بهذا النطاق الواسع وتنافس الشركات والمصانع في العالم على إنتاجـــها وتطويرها وإن سهولة إعادة شحنها بكلف بخسة هي من الأمـــور التـــي تُحتَسب لصالح ديمومة صناعة هذه النضائد .

أن حصول عصر السيارات الكهربائية ساعد أيضـــاً علـــى تعزيـــز البحوث والدراسات التي تجرى على نطاق العالم لتطوير هذه النضـــائد . وسوف يكشف لنا المستقبل عن تقانات جديدة لأحداث تطويــرات مهمـــة على نضائد الرصاص الحامضية . ولعل من التقنيات التي ظهرت فعـــلاً في العقود الأخيرة من القرن العشرين والتي تتفق مع هذا المنظور هـــي تصنيع مشبكات فائقة الخِفة والرقة غنية بالمادة الفعالة والتي يؤمـــل أن تكون تأثيراتها كبيرة على عمل نضائد الرصاص الحامضية وأدائها .

استخدام أوكسيد الرصاص في صناعة النضيدة

أكتشف العالمان سنستيدين وبلانتي، كل علـــى انفراد ، خلال الأعوام (١٨٥٤ ــ ١٨٥٩) ظاهرة رجوعيـــة (Reversibility) عمـــل أقطـــاب الرصاص التي استخدماها في صنع نضيدة الرصاص الحامضية الأولى . وقد درس بلانتي سلوك فلزات مختلفة أُخرى لاستعمالها اقطابـــاً ، كمـــا كشفتْ التجارب التي قام بها عن ازدياد سعة (Capacity) النضيدة مـــن جراء الشحن والتفريغ المستمرين لها ، وأطلق على هـــذه الظـــاهرة أول مرة أسم ((التكوين)) (Formation) . لاحظ العالم فواري (Faure) عام

١٨٨١ أنه بدلاً من تكوين المادة الفعالة على أقطاب الرصـــاص بفعـل الشحن والتفريغ فأن بالامكان تصنيع أقطـــاب النضيـدة مـن أكاسـيد الرصاص أو أملاحها بعد تحويلها إلى عجينة ومن ثم تحميل هذه العجينـة على موصلات من الرصاص . وهكذا تولدتْ فكـرة تحضـير أقطـاب النضيدة بعملية اكساء ألواحها بالعجينة الفعالة . وطُوِرَتْ صناعة الـواح الأقطاب باستخدام سبيكة مـن الرصاص والانتمون لتحضير مشـبكاتها بهياكل ثابتة ومنتظمة وذلك مـن قبل العالم سـيلون (Sellon) (عــام ١٨٨٢) ، واستطاع تحضير العجينة من أحـادي أوكسـيد الرصـاص (PbO) والرصاص الأحمر وبعض أملاح الرصاص وأملاح أخرى مثـل كربونات الصوديوم وحامض الهيدروكلوريك والكليسرين والكلايكول .

أُكتشفت طريقة بارتن (Barton Process) عام ١٩٠٨ لتحضير أُحادي أوكسيد الرصاص بطريقة صهر الرصاص وأكسدة بخاره . كما جـرتْ محاولات أُخرى بعد عام ١٩١٠ ، لاسيما في المانيا ، لتحضير أُحـادي أوكسيد الرصاص بطريقة طحن قطع الرصاص وامرار تيار هواء فـي المسحوق المتكون . بدأ اليابـانيون (شـركة شـيمادزي Shimadzy) بتحضير أُحادي أوكسيد الرصاص بهذه الطريقة عـام ١٩٢٢ ، وبحلول عام ١٩٣٠ أصبحتْ هـذه الطريقة (وسُميت بطريقة طاحونة الكـرات Ball Mill Process) معروفة على نطاق العالم . وبدأت طريقة بـارتن فـي الولايات المتحدة منذ عام ١٩٣٠ عــن طريـق العـالم فينـال (G. W. Vinal) إلا أن الطريقة لم تُصبح معروفة على النطاق العـالمي إلا بعد عام ١٩٤٥. فالمادة الأولية لتحضير أقطاب الرصاص هــي أذن

مسحوق أوكسيد الرصاص الذي لم تكتمل تماماً أكسدته ، والذي يحتوي على نسبة غير مؤكسدة من مسحوق الرصاص . وتعتمد سعة نضيدة الرصاص الحامضية ومواصفاتها على طبيعة هذه المادة ومواصفاتها التي أصبحت تستخدم في تكوين المادة الفعالة على ألواح النضيدة .

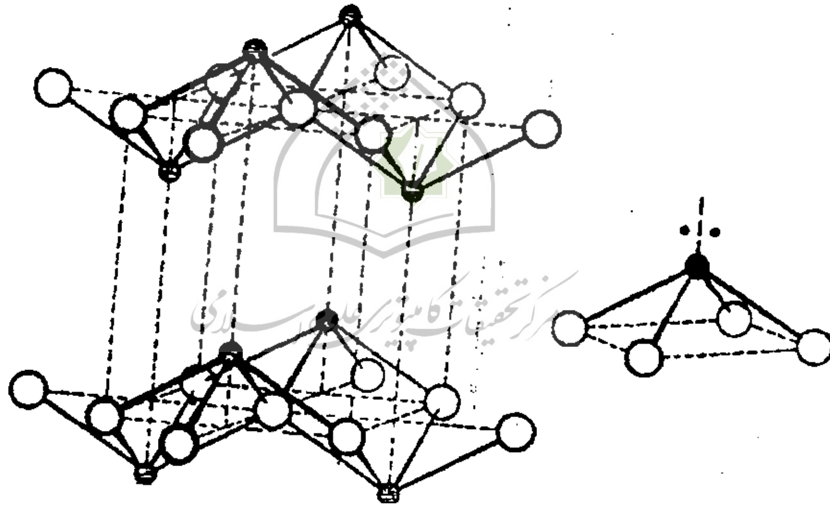
يُطلق اسم أوكسيد الرصاص (Leady Oxide) على هذا المسحوق الذي يحتوي في أحسن الأحوال على نسبة (٦٠ ـ ٨٥) ٪ وزناً من أُحادي أوكسيد الرصاص (PbO) وعلى (١٥ ـ ٤٠) ٪ وزناً من مسحوق الرصاص غير المتأكسد . ويُحضر المسحوق عادة بدرجات متفاوتة من النعومة . فالرصاص وأُحادي أوكسيد الرصاص هي إذن من المكونات الأساسية لمسحوق أوكسيد الرصاص الذي يتم تحضيره بطريقة بارتن أو بطريقة طاحونة الكرات.أن أسلوب تحضير الأوكسيد بالطريقتين يؤدي عادة إلى أكسدة الغلاف الخارجي فقط لدقائق المسحوق وتبقى مادة المسحوق الموجودة في باطن الدقائق بحالة غير مؤكسدة . وعلى هذا فانه كلما كانت دقائق المسحوق ناعمة أحتوتْ على نسبة أعلى من أُحادي أوكسيد الرصاص مقارنة بكمية الرصاص الموجودة في داخلها .

خصائص أُحادي أوكسيد الرصاص

يتم الحصول على أُحادي أوكسيد الرصاص (PbO) بطورين بلوريين مختلفين ، هما طور ألفا وطور بيتا :

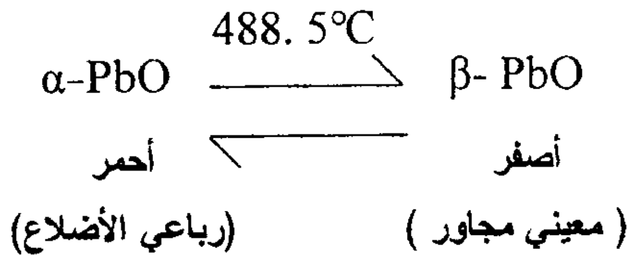
١- **طور ألفا** (α- Phase) أو يسمى بأول أوكسيد الرصاص نوع ألفا (α- PbO) ويكون هذا الطور مستقراً في درجات الحرارة الاعتيادية

وفي درجات الحرارة التي تصل إلى ٤٨٨,٥ مئوية تحت الضغط الجوي الاعتيادي ، ويكون أحمر اللون ، وله تناظر رباعي الأضلاع . وتكون كل ذرة رصاص في هيكله البلوري محاطة باربع ذرات اوكسجين بترتيب هرم رباعي . وتكون المسافة الفاصلة بين ذرات الرصاص والاوكسجين في هذا الترتيب ٢,٣٣ انكستروم (الشكل ٣) . وترتب هذه التراكيب الهرمية في طبقات ، وتتصل ذرات الرصاص ، وكذلك ذرات الاوكسجين ، في كل طبقة بأواصر طويلة بذرات مشابهة في الطبقات الأُخرى المجاورة لها .

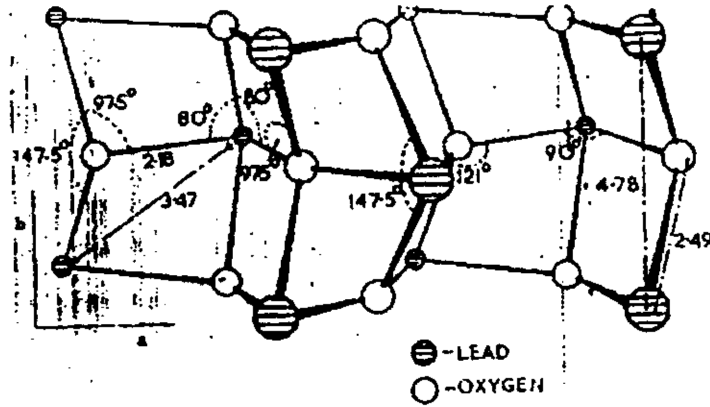


الشكل (٣) ــ التركيب البلوري لاحادي اوكسيد الرصاص (رباعي الأضلاع من نوع ألفا) ، ذي اللون الأحمر . الدوائر السوداء تمثل ذرات الرصاص والفاتحة تمثل ذرات الاوكسجين . يلاحظ على يمين الشكل مخطط لوحدة رباعية الاضلاع (هرم رباعي الأوجه) لغرض توضيح الوحدة الاساسية التي تتركب منها البنية البلورية للاوكسيد ، النقطتان على جانبي الخط المنقط لهذه الوحدة تمثلان زوجاً خاملاً من الإلكترونات .

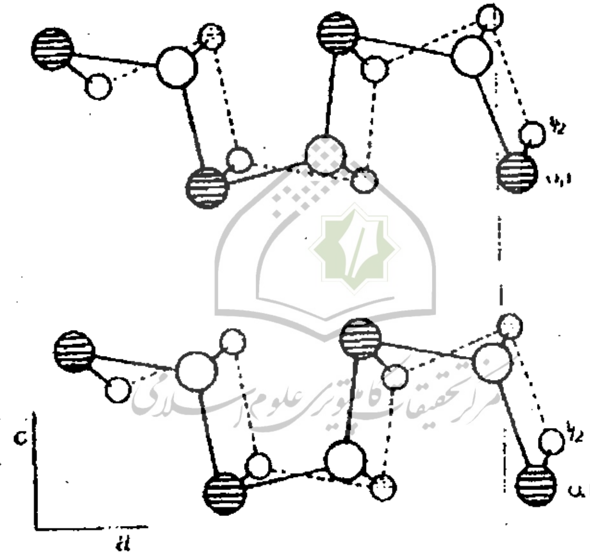
٢- **طور بيتا** (β- Phase) أو ما يسمى بأحادي أوكسيد الرصاص نـــوع بيتا (β- PbO) ، وهذا الطور البلوري مستقر في درجات الحرارة التـــي تزيد عن ٤٨٨,٥ مئوية ومع ذلك يمكن الحصول على هذا الطـــور فـــي درجات حرارة تقل عن هـــذه الدرجة . يكـــــون لونـــه أصفـــراً مـــائلاً للاخضرار ، والتآصر في بلورة هذا الطور يؤدي إلى انتظام الجزيئـــات في سلاسل متعرجة ممتدة على محور واحد وتتوازى هذه السلاسل مـــع بعضها . وتستخدم الكترونات ذرات الأوكسجين لتكويـــن سلســـلة Pb-O ولربط هذه السلاسل معا في طبقات متوازية . وهـــذا التركيب والـــترتيب تنجم عنهما توصيلية كهربائية منخفضة قياسا بأحادي أوكسيد الرصـــاص مـــن نوع ألفا . وتقع ذرات الاوكسجين الموجودة في كل طبقة داخلـــها وتكون كل ذرة اوكسجين محاطة بأربع ذرات رصاص (الشـــكل ٤) . ويُطلق على التنظيم فـــي الطـــور البلـــوري بيتـــا بـــالمعيني المجـــاور (Orthorhomic) والتحول الطوري في أُحادي أوكسيد الرصاص يمكـــن تمثيله بالمعادلة :



عند تسخين طور ألفا (الأحمر) إلى درجات الحرارة التـــي تزيـــد عـــن ٤٨٨.٥ مئوية فأنه سرعان ما يتحول إلى طور بيتا (الأصفر المخضر) ،



-The interatomic distances and angles in a layer of yellow PbO chains. The chains are horizontal in the plane of the paper.



الشكل (٤) ـ التركيب البلوري لأحادي اوكسيد الرصاص من نـــوع بيتا (ذي اللون الأصفر) ويكون على شكل سلسلة متعرجة . الأرقـــام المدونة على الشكل العلوي تمثل المسافات الفاصلة بيـــن الـــذرات ، وكذلك الزوايا بين الأوجه المتلاقية . الشكل السفلي يمثـــل اســـقاط الشكل العلوي علـــى محوريـــن . الدوائـــر المخططـــة تمثـــل ذرات الرصاص والدوائر الفاتحة تمثل ذرات الاوكسجين .

أما عند تبريد طور بيتا من درجات الحرارة العالية (فوق ٤٨٨,٥ مئوية) فأنه يتحول ببطء شديد جداً إلى طور ألفا ، وعلى هذا يبقى طور ألفا المتكون بالتبريد مخلوطاً مع طور بيتا الذي لم يكتمل تحوله بعد . ويُلاحظ مثل هذا السلوك بشكل واضح إذا كان تبريد طور بيتا سريعاً ومفاجئاً . ويسبب الطحن الميكانيكي لأحادي أوكسيد الرصاص ـ نوع بيتا تحويله إلى أحادي أوكسيد الرصاص ـ نوع ألفا لاسيما إذا جرى الطحن في درجات الحرارة التي تقل عن ٤٨٨,٥ مئوية ، وهذا هو الأساس الذي تبنى عليه طريقة طاحونة الكرات للحصول على أحادي أوكسيد الرصاص من نوع الفا .

لقد ثَبُتَ أن تحول أحادي اوكسيد الرصاص ـ نوع ألفا إلى ثنائي (فوق) اوكسيد الرصاص (PbO_2) أسهل ويكاد يسير نحو الاكتمال بسرعة معقولة . أما تحول احادي اوكسيد الرصاص ـ نوع بيتا إلى ثنائي اوكسيد الرصاص فأنه يكون بطيئاً جداً ، بل وقد يكون مستحيلاً .

التحضير الصناعي لمسحوق أوكسيد الرصاص

سنتطرق بشيء من الإيجاز إلى الطريقتين المستخدمتين على النطاق العالمي لتحضير مسحوق اوكسيد الرصاص اللازم لصناعة نضائد الرصاص الحامضية .

١- طريقة بودقة بارتن (Barton Pot Method)

وتُدعى اختصاراً بطريقة بارتن نسبة إلى مكتشفها بارتن (G. Barton) عام ١٩٠٨ . وتتخلص الطريقة بصنهر قوالب الرصاص

النقي في بودقة ويُضَخُ المنصهر بعد ذلك إلى بودقة التفاعل التي تُثَبتُ عادة تحت سطح الأرض وتحتوي على مُسَخِنات وعلى خَلاط الذي يقوم بتحريك منصهر الرصاص الداخل إلى البودقة بقوة وتحويله إلى رذاذ لا يلبث أن يتأكسد بفعل الحرارة وتيار الهواء المار فيه . إن قطيرات الرصاص المتكونة بالرج والتحريك سرعان ما تتأكسد جزئياً إلى أُحادي اوكسيد الرصاص الذي يُجمع في منظومة التجميع . والاوكسيد المتكون بهذه الطريقة هو خليط من أُحادي أوكسيد الرصاص نوع ألفا (رباعي الاضلاع) ونوع بيتا (المعيني المجاور) ومع دقائق من الرصاص غير المتأكسد . إن هذه الطريقة تُعدُ أسهل طرائق إنتاج مسحوق اوكسيد الرصاص وارخصها إلا أن الاوكسيد المنتج بهذه الطريقة يكون عموماً أخشن نسبياً مقارنة بالمسحوق المستحصل بالطرائق الأخرى . ولا بد من مراقبة أجهزة السيطرة على درجة الحرارة وسحب الهواء لضمان الحصول على مسحوق ناعم تتراوح نسبة اوكسيد الرصاص في المسحوق النهائي من ٦٠ ٪ إلى ٨٠ ٪ . والمتغيران المهمان اللذان يتحكمان في طبيعة المنتوج وسرعته بهذه الطريقة هما درجة الحرارة والرطوبة . ودرجة الحرارة تتحكم بنوع خاص بطبيعة الطور المستحصل وبسرعة تكوينه . إن أُحادي اوكسيد الرصاص ـ نوع بيتا الذي يتكون في درجات الحرارة التي تزيد على ٤٨٨,٥ مئوية غير مرغوب فيه في صناعة النضائد ، في حين يكون طور ألفا من هذا الاوكسيد بالطور المستقر المطلوب في هذه الصناعة . ويتم عادة حقن الماء إلى المنظومة في طريقة بارتن وذلك لزيادة المنتوج من أُحادي

اوكسيد الرصاص . ووجود الماء في المنظومة يفيد في خفض درجة حرارة البودقة لتفادي تجاوزها للدرجة الحرارية ٤٨٨,٥ مئوية كي لا يتحول الاوكسيد إلى طور بيتا .

٢- طريقة طاحونة الكرات **(Ball-Mill Method)**

وتشتمل على برميل حديدي مجوف ومثبت محاط بمشبك معدني ، يُغذى بالرصاص النقي على هيئة كرات أو قطع مختلفة الأشكال . ويؤدي دوران البرميل إلى احتكاك القطع والكرات هذه فيما بينها وتتحول إلى مسحوق . وتنجم عن حركة الدقائق ومرورها بالطاحونة حرارة تكفي مع الحرارة المنبعثة عن عملية تأكسدها لتحويل مسحوق الرصاص المتكون إلى مسحوق اوكسيد الرصاص . ويتم حفظ الطاحونة بارداً لمنع انصهار الرصاص . ويتأكسد المسحوق خلال عملية الطحن عادة بامرار تيار هوائي من خلال فتحات جدران البرميل إلى المشبك الذي يسمح فقط بخروج الدقائق الصغيرة ونقلها إلى الخزان ، أما الدقائق الكبيرة التي لا تمر من فتحات جدران البرميل فانها تعاد ثانية إلى البرميل ليتم طحنها مرة أخرى . والمسحوق المستحصل بهذه الطريقة يحتوي على (٦٠ ــ ٦٥ ٪) وزناً من أُحادي اوكسيد الرصاص الذي يكون من نوع طور ألفا . أما النسبة المتبقية من المسحوق فأنه يحتوي على دقائق رصاص غير متأكسدة . يبين الجدول (١) خصائص كل من الطريقتين المستخدمتين للحصول على مسحوق اوكسيد الرصاص .

الجدول (١)ـ يبين خصائص كل من طريقتي بودقة بارتن وطاحونة الكرات للحصول على مسحوق اوكسيد الرصاص على النطاق الصناعي

ت	الخصائص	طريقة بودقة بارتن	طريقة طاحونة الكرات
١.	النسبة المئوية الوزنية :		
	للاوكسجين في المسحوق	٧٠ ـ ٨٠	٥٥ ـ ٦٠
	لطور الفا في الاوكسيد	٧٠ ـ ١٠٠	١٠٠
	لطور بيتا في الاوكسيد	صفر ـ ٣٠	صفر
٢.	الانتاج بالكيلوغرام في الساعة	٨٥٠	٦٥٠
٣.	القدرة اللازمة بالكيلو واط	٣٠	٤٠
٤.	الابعاد بالمتر:		
	الطول	٧,٥	١٠,٥
	العرض	٣,٦	٥,٠
	الارتفاع	٦,٣	٥,٢
٥.	شكل الدقائق	مكور	مسطح
٦.	الكثافة الظاهرية : (بالغرام على السنتمتر المكعب)	١,٢ ـ ١,٨	١,٢ ـ ١,٥
٧.	أبعاد الدقائق :		
	أكبر من (١٥٠) مايكرون	٥ ٪	٢ ٪
	أكبر من (٥٣) مايكرون	٥٠ ٪	٢٠ ٪
٨.	معدل السطح النوعي : (بالمتر المربع للغرام)	١,٢ ـ ١,٤	٢,٤ ـ ٢,٨
٩.	امتصاص الحامض : (ملغم حامض H_2SO_4 لكل غرام اوكسيد)	١٦٠ ـ ١٩٠	١٨٠ ـ ٢٤٠

عمليات تصنيع نضيدة الرصاص الحامضية

تشتمل على عدة مراحل أساسية (الشكل ٥) نذكرها بايجاز في الخطوات الآتية :-

١- المرحلة الأولى

تحضير سبيكة الرصاص والانتمون والمشابك والألواح

تشتمل على تحضير سبيكة الرصاص والانتمون بالمواصفات المطلوبة لغرض تحضير المشبكات وبعض الأجزاء الأخرى منها . والغرض من استعمال المشبكات هو تحميلها بالمادة الفعالة (العجينة) اللازمة لتحضير أقطاب النضيدة . تُصنع المشبكات من سبيكة الرصاص والانتمون التي تحتوي على ٦ ٪ وزناً من فلز الانتمون . إذ تضاف هذه النسبة من الانتمون إلى منصهر الرصاص لغرض الحصول على السبيكة وقد يتم تخفيض هذه النسبة إلى نحو ٢,٥ ٪ أو أقل . والانتمون الموجود في السبيكة مفيد لإكساب المشبكات المصنوعة منها الصلابة اللازمة كي تتحمل عمليات تصنيع النضيدة ، إذ أن درجة صلابة المشبكات تزداد بأزدياد نسبة الانتمون في السبيكة لغاية بلوغ هذه النسبة إلى ١٢ ٪ . إن وجود الانتمون في السبيكة أمر غير مرغوب فيه بسبب إمكان انتقاله من مشبكات الألواح الموجبة وترسبه على المادة الفعالة للألواح السالبة فيتسبب بذلك في حدوث تفاعلات جانبية على سطح الألواح السالبة ، وهذا يؤثر سلباً على عمر النضيدة وسعتها ، ويتسبب الانتمون كذلك في إحداث تحليل كهربائي للماء إلى غازي الاوكسجين والهيدروجين

المرحلة	الشكل (٥) — مخططات أهم العمليات الفيزيائية والكيميائية والفنية التي تشتمل عليها نضائد الرصاص الحامضية
١	رصاص نقي ← انتمون ونسب قليلة من عناصر أخرى ← سبيكة الرصاص والأنتمون ← صهر وصب قوالب ← مشبكات الألواح ← استخدام في المرحلة (٤)
٢	رصاص نقي ← (طريقة بودقة بارتن / طريقة طاحونة الكرات) ← مسحوق ناعم من أوكسيد الرصاص ورصاص ← ماء وحامض ومضافات ← عجينة اللوح السالب / ماء وحامض ومضافات ← عجينة اللوح الموجب ← استخدام في المرحلة (٣)
٣	مشبكات الألواح ← ماء وحامض ومضافات ← ألواح مكسوة بعجينه اللوح السالب ← تجفيف ← ألواح القطب السالب غير المعتقة / ماء وحامض ومضافات ← ألواح مكسوة بعجينه اللوح الموجب ← تجفيف ← ألواح القطب الموجب غير المعتقة ← استخدام في المرحلة (٤)
٤	ألواح القطب السالب غير المعتقة ← تعتيق ← ألواح القطب السالب المعتقة ← تكوين (شحن) ← ألواح القطب السالب المشحونة ← تجفيف تقطيع / ألواح القطب الموجب غير المعتقة ← تعتيق ← ألواح القطب الموجب المعتقة ← تكوين (شحن) ← ألواح القطب الموجب المشحونة ← تجفيف تقطيع ← استخدام في المرحلة (٤)
٥	وعاء النضيدة ← تركيب الألواح والعوازل ← ألواح وعوازل مركبة في الوعاء ← تركيب الغطاء والرؤوس والسدادات ← نضيدة مكتملة ← إضافة محلول حامض الكبريتيك من قبل المستهلك ← نضيدة رصاص حامضية جاهزة الاستعمال

مما ينجم عنه تناقص ماء النضيدة ، وبذا تشتد الحاجة إلى سد النقص في ماء النضيدة بإضافة ماء مقطر اليها بشكل مستمر .

وتُضاف نسب وزنية صغيرة مع بعض العناصر الأُخرى إلى منصهر سبيكة الرصاص والانتمون عند تحضير السبيكة وذلك لغرض تحسين بعض مواصفات السبيكة ، ونذكر من تلك العناصر :

١- الزرنيخ بنسبة ٠,١٥ ٪ وزناً لزيادة مقاومة السبيكة للتأكل الذي يصيب الألواح (لاسيما الألواح الموجبة) في أثناء شحن النضيدة . وزيادة نسبة هذا العنصر عن النسبة المقررة تؤدي عادة إلى التشقق خلال عملية الصَب أو التعتيق أو الخزن .

٢- القصدير (من ٠,١٥ إلى ٠,٢ ٪ وزناً) لتحسين جريان منصهر السبيكة وتقليل لزوجته لتسهيل عملية صب السبيكة في قوالب المشبكات ، ويفيد هذا العنصر أيضاً في تحسين أداء صفة الشحن الجاف للنضيدة .

٣- النحاس (نحو ٠,٠٥ ٪ وزناً) للتقليل من أحتمال تشقق وانكماش المناطق السميكة في إطار المشبك عقب خروجه من القالب .

٤- عناصر أخرى مثل الكبريت والبزموث والفضة والحديد والنيكل والكوبالت والخارصين والكادميوم وذلك لإغراض تحسين مواصفات السبيكة والمشبكات المصنوعة منها . ومن مساوئ هذه الإضافات أن أغلب هذه العناصر تترسب على الألواح السالبة وتؤدي إلى هبوط الشحن وتقليل عمر النضيدة من خلال تكوين دورات قصيرة مع مادة الرصاص الموجودة في هذه الألواح ، أو أنها تعمل على زيادة نسبة تحلل الماء كهربائياً في النضيدة .

٢- المرحلة الثانية :

تحضير مسحوق اوكسيد الرصاص وتحضير معجون المادة الفعالة

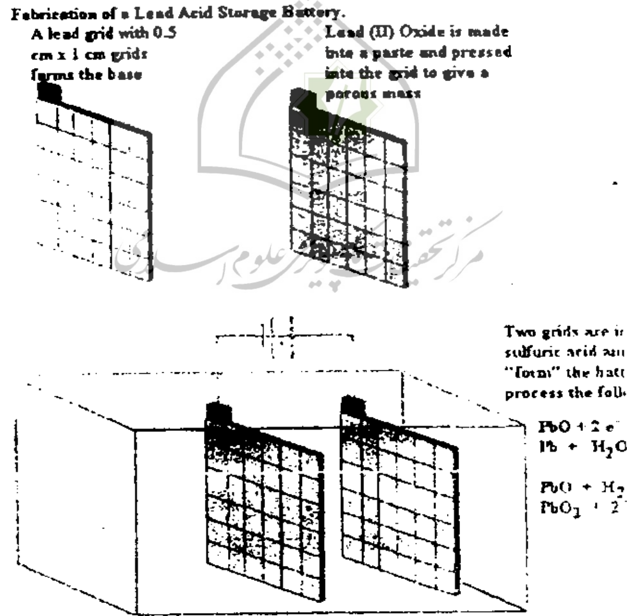
وتشتمل على تحضير مسحوق اوكسيد الرصاص المخلوط مع مسحوق الرصاص غير المتأكسد بطريقتي بودقة بارتن وطاحونة الكرات اللتين أشرنا إليهما سابقا . فالمادة الفعالة للألواح السالبة والموجبة يتم تحضيرها عادة من المسحوق المحضر . إن المشبكات التي أشرنا إليها في المرحلة الأولى تمثل الهياكل المعدنية لألواح النضيدة .

يتم تثبيت المسحوق على المشبكات من خلال تحويله إلى عجينة مناسبة باستعمال الماء وحامض الكبريتيك وبعض المضافات الأخرى . ويتم تحديد كمية الماء التي تضاف إلى المسحوق كي لا يكون المعجون المستحصل بليونة عالية فلا يثبت على المشبك . ويوضع المعجون على وجهي المشبك بعملية إكساء بأستعمال مكائن اللبخ . ولغرض جعل المعجون المحضر مسامي القوام مع الحفاظ على الكثافة والليونة ضمن الحدود المقبولة يضاف حامض الكبريتيك (وزنه النوعي ١,٤) عقب إضافة الماء إلى المسحوق . وتضاف كذلك بعض المواد الأخرى وبحسب طبيعة اللوح المراد تحضيره . والمضافات إلى معجون اللوح السالب تضم : كبريتات الباريوم وبعض المواد العضوية مثل اللكنين وحامض الهيونيك ومسحوق الكربون الأسود وحامض الستياريك وبعض الألياف الصناعية . أما المواد التي تضاف إلى معجون اللوح الموجب فأنها تكاد تكون محصورة بالألياف الصناعية . و لابد من تحديد مواصفات المعجون المطلوب قبل البدء بتحضيره ، ويجب تحديد كمية كل من الماء

والحامض المراد إضافتهما إلى خلطتي المواد التي أشرنا اليها قبل قليل وهي بحالة جافة . يُضاف بعد ذلك حامض الكبريتيك خلال نحو عشرين دقيقة إلى المزيج المتكون مع الرج المستمر للمزيج . ولابد من فحص كثافة المعجون ودرجة سيولته للتأكد من مطابقته للمواصفات وذلك قبل تفريغه من الخلاط . ويجري بعد ذلك لبخ المشبكات بالمعجون المحضر وذلك باستعمال مكائن خاصة. ويمكن تلخيص مكونات ومواصفات المعجون المستعمل للبخ المشبكات وتحضير الألواح الموجبة والسالبة منها على النحو المبين في الجدول الآتي :-

نوع المعجون	المكونات	المواصفات
الموجب (لتحضير الألواح الموجبة)	(١٠٠٠) كيلوغرام من مسحوق اوكسيد الرصاص مع (٤) كيلوغرام من خيوط بلاستيكية و (٧٦) لتر حامض الكبريتيك (وزنه النوعي ١,٤) و (١٤٠) لتر ماء مقطر . معدل إضافة الماء (١٥) لتر في الدقيقة ومعدل إضافة الحامض (٦ـ٧) لتر في الدقيقة)	الكثافة= (٤,٠٥-٤,١٥) غم للسنتمتر المكعب درجة النزول = (٢٢-٢٤) درجة درجة الحرارة = ٦٥ مئوية
السالب (لتحضير الألواح السالبة)	(١٠٠٠) كيلوغرام اوكسيد الرصاص مع (٣,٣) كيلوغرام من مسحوق هالسبيرس و(٣,٣) كيلوغرام كبريتات الباريوم و(٠,٥) كيلوغرام حامض الستياريك و(٠,٢) كيلوغرام خيوط بلاستيكية و(١,٦٥) كيلوغرام كربون اسود ، وغيرها .	الكثافة = (٤.٢ - ٤.٣٦) غم للسنتمتر المكعب درجة النزول =(٢٢ ـ ٢٤) درجة درجة الحرارة = ٦٥ مئوية

ويُلاحظ في هذا الجدول أن كثافة المعجون السالب هي أعلى من كثافة المعجون الموجب وذلك لتعويض النقص الذي يحصل فيها أثناء استعمال النضيدة بسبب تمدد المعجون وازدياد نسبة الفجوات والمسام الصغيرة بداخله . إن كمية الماء والحامض المذكورة في الجدول تكفي لإعطاء المعجون المسام التي تؤمن زيادة مساحته السطحية وإمكان تفاعل أجزائه كافة ، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة كفاية التشغيل (التفريغ الكهربائي السريع) للنضيدة مع المحافظة على قوة تماسك المعجون ولضمان استئصال النضيدة لأطول مدة ممكنة (الشكل ٦) .



الشكل (٦) ـ أنموذج مشبك مصنوع من سبيكة الرصاص والانتمون (الأيسر) وبعد اكسائه بالعجينة (الايمن) وتحويله إلى لوح موجب أو سالب . الشكل السفلي ـ اللوحان الموجب والسالب ويكونان مغمورين في محلول حامض الكبريتيك .

٣- المرحلة الثالثة :

لبخ المشبكات بالمعجون وتحضير الألواح

ينقل المعجون بعد الانتهاء من تحضيره مباشرة في المرحلة الثانية إلـــى خزان ماكنة اللبخ بعربات خاصة أو عن طريق قمع التغذية حيث تقـــوم ماكنة اللبخ بدفع المعجون الموجود في الخزان الخاص بها علـــى ســطح المشبك ، ويتم ذلك بذراع خاص متحرك داخـــل خـــزان ماكنـــة اللبـــخ وبمساعدة الحزام الناقل الذي يقوم بنقل المشبكات من تحـــت الخـــزان . تكون نسبة التلف في هذه المرحلة كبيرة بسبب تعدد العمليات التي تمر بها ابتداء من منظومة التغذية وحتى نهاية فرن التجفيف الملحق بالماكنـــة . وتكون درجة حرارة فرن تجفيف الألـــواح الملبوخـــة بحـــدود (٢٠٠ ـــ ٢٥٠) مئوية وبما يضمن عدم التصاق الألواح عند وضعها فيما بعد فـــي الأقفاص الخاصة بها . ويتم فحص وزن المعجون على اللـــوح بصـــورة مستمرة والتأكد من تجانسه التام وخلو الألواح من الثقوب والتشـــوهات . ومشبكات الألواح السالبة تلبخ إذن بالمعجون الخاص بـــها (المعجـــون الســـالب) ومشبكات الألواح الموجبة تلبخ كذلك بالمعجون الخاص بـــها (المعجون الموجب) ـــ (الشكل ٦) .

٤- المرحلة الرابعة :

تعتيق الألواح وتكوين المادة الفعالة عليها

تشتمل هذه المرحلة على تعتيق ألواح القطب السالب والقطـــب الموجـــب المحضرة في المرحلة السابقة وتكوين المادة الفعالة اللازمة عليها . وإنـــه عقب الانتهاء من لبخ المشبكات في المرحلة السابقة توضع الألواح فـــي

أقفاص حديدية وتُرَصُ في المكان المخصص لها بحيث لا تترك فراغات كبيرة بينها ، وتفادي تلاصقها معاً . إن وجود الفراغات بينها يؤدي إلى عدم اكتمال عملية التعتيق . كما أن رص الألواح بشدة يؤدي إلى تلاصقها مع بعضها . إن عملية التعتيق هي تلك المرحلة المهمة في صناعة ألواح أقطاب النضيدة يتم فيها تحول المعجون الذي يكسو المشبك والمحضر من دقائق اوكسيد الرصاص ودقائق الرصاص وحامض الكبريتيك والماء إلى كتلة متماسكة ومسامية تمتاز بقدرة جيدة للالتصاق بالمشبك الساند له . وتتكون الكتلة المتماسكة من اوكسيد الرصاص وكبريتات الرصاص القاعدية . إن تقوية وتصلد مادة اللوح يتحققان من خلال تطور ونمو كبريتات الرصاص القاعدية . والصيغة الكيميائية لكبريتات الرصاص القاعدية هي إما $4PbO.PbSO_4$ (ويُرمز لها بـ 4BS) وتُسمى بـ (رباعي كبريتات الرصاص القاعدية) أو تكون على هيئة ثلاثي كبريتات الرصاص القاعدية $3PbO.PbSO_4.H_2O$ (ويُرمز لها بـ 3BS) أو في الغالب مخلوطاً من النوعي 4BS و 3BS . والنسبة ($\frac{4BS}{3BS}$) تتأثر بشكل كبير بالظروف التي تتم فيها عملية التعتيق من رطوبة ودرجة حرارة . فإذا توفرت الرطوبة المناسبة يُصبح المقرر الأساسي لقيمة النسبة هو درجة الحرارة ، فدرجة الحرارة هي التي تحدد عندئذ تركيب مكونات الطور المعتق . والأرجح أن يؤدي التعتيق إلى تكوين مقدار أكبر من 4BS مقارنة بـ 3BS إذا زدات درجة الحرارة لغاية ٧٠ مئوية .إن أداء الألواح الموجبة المكسوة بالعجينة يتأثر بشدة بالتركيب الطوري لمادة الألواح وبالهيئة التي تكون عليها البلورات

المعتقة . وقد أصبح معروفاً الآن أن المادة الغنية بـ 3BS تُعطي أفضل سعة للنضيدة ، لذا فهي أفضل لغرض استخدام النضيدة في تشغيل السيارات والمحركات . أما المادة الغنية بـ 4BS فأنها تُضفي قدرة أداء أفضل ، ويفضل استعمال نضائدها في الأغراض الصناعية .

وهناك أدلة كافية في الادبيات أن حجم دقائق المادة المعتقة يُقرر سعة اللوح المحضر . إن تحول أي من 3BS أو 4BS إلى ثنائي اوكسيد الرصاص PbO_2 ينطوي على تغيرات مهمة في البنية الكيميائية . إن ثنائي اوكسيد الرصاص يشبه عادة من حيث الحجم والهيئة البلورية بالمادة التي يتكون منها . ولما كانت بلورات 3BS تكون عادة أصغر من بلورات 4BS ، لذا فأن الألواح المحضرة من مادة غنية بـ 3BS تحتوي على بلورات صغيرة الدقائق من ثنائي اوكسيد الرصاص ، وهي لذلك تمتلك سطحاً فعالاً أكبر ، وعليه فأن اللوح المحضر منها سوف يمتلك سعة كهربائية أعلى . وعلى العكس من هذا فقد بينتْ دراسات أُخرى ان بلورات ثنائي اوكسيد الرصاص الكبيرة المتكونة بالتحول البنيوي والتركيبي لبلورات 4BS تتحد معا لتكوين بنية متشابكة تزيد من قوة ومتانة اللوح المحضر منها . وقد تبين من البحوث والدراسات إن البنية الشبكية هذه تنجم عن تكون طور ثنائي اوكسيد الرصاص نوع ألفا (α-PbO_2) . وأدى هذا الاكتشاف إلى بناء فرضية مفادها أن بلورات 4BS ترجح تكوين هذا الطور البلوري في حين تتحول بلورات 3BS إلى نوع بيتا من ثنائي اوكسيد الرصاص (β-PbO_2) . وعلى هذا الأساس أصبح من المؤكد وجود علاقة مباشرة بين تركيب

الطور البلوري للمادة المتكونة (النسبة $\frac{\alpha - PbO_2}{\beta - PbO_2}$) والطور البلوري للمادة التي تكونت منها (أي النسبة $\frac{4BS}{3BS}$) . إن زيادة كثافة العجينة تؤدي إلى تقليل مسامية الألواح المحضرة منها وزيادة سمك اللوح ، وهذا مما يعيق اختراق حامض الكبريتيك لبنية الألواح والوصول إلى جميع أجزاء اللوح . تلي مرحلة التعتيق مرحلة تكوين المادة الفعالة على الألواح من خلال شحنها بتيار خارجي مباشر مناسب . ويحصل في هذه العملية تحويل المادة الفعالة الموجودة على الألواح الجافة الخارجة من غرف التعتيق كهربائيا وكيميائيا إلى مواد تتطلبها طبيعة الألواح السالبة والموجبة في النضيدة المشحونة . ويتم خلال هذا التحويل الحفاظ على الهيكل المسامي المتكون للمادة الفعالة في مراحل الإنتاج السابقة . إن المادة الفعالة المتكونة بعملية الشحن على الألواح السالبة هي الرصاص بهيئة دقائق إسفنجية القوام . أما المادة الفعالة المتكونة على الألواح الموجبة فتكون مسامية أيضا وتشتمل على جزيئات ثنائي اوكسيد الرصاص (PbO_2) .

توجد طريقتان لشحن ألواح النضيدة لتوليد المادة الفعالة عليها وتكوينها . الأولى هي شحن الألواح وهي مغمورة في أحواض تحتوي حامض الكبريتيك كما هو جار في معامل بابل لصناعة النضائد ، والثانية طريقة شحن الألواح داخل النضيدة بعد الانتهاء من تجميعها . ففي الطريقة الأولى يتم إدخال الألواح السالبة والموجبة في المكان المخصص لها داخل أحواض دوائر الشحن ثم يضاف الماء المقطر وتشغل الدوائر . تنقل أقفاص الألواح السالبة حال خروجها من

دوائر الشحن إلى أفران التجفيف أو خزنها تحت سطح الماء المقطر في أحواض كبيرة وعدم تركها في الهواء منعا لتأكسدها . يتم بعد ذلك نقل الألواح الموجبة إلى الأفران الخاصة بها لتجفيفها . إن اللون الفاتح للالواح الموجبة يدل على عدم كفاية تيار شحنها أو حصول خلل أو انقطاع في التيار الكهربائي . أما اللون الأسود القاتم فأنه يدل على زيادة مدة تعرضها للشحن أو زيادة درجة الحرارة التي تعرضت لها الألواح عن الحد المقرر . إن وجود الأملاح على سطح الألواح يدل على زيادة تركيز المحلول الحامضي في الحوض . إن الألواح المصنوعة من المشبكات تكون عادة مزدوجة ويلزم تقطيع كل لوح إلى لوحين ليناسب النضيدة التي يوضع فيها ، وتصبح الألواح بعد ذلك جاهزة للاستعمال في المرحلة اللاحقة . الشكل (٥) يوضح العمليات التي أشتملت عليها المراحل الخمسة .

٥- المرحلة الخامسة :

تركيب النضيدة

تشتمل على استعمال الألواح المعتقة والمشحونة المحضرة في المرحلة الرابعة لتركيب النضيدة وجعلها مهيأة للاستخدام . تتألف النضيدة عادة من عدة خلايا مرتبطة معا على التوالي . والخلية الواحدة تتألف من قطب سالب (المصعد ـ الأنود Anode) وقطب موجب (المهبط ـ الكاثود Cathode) . ويتألف كل قطب من مجموعة الواح متصلة مع بعضها من الأعلى لتكوين نهاية واحدة للقطب الموجب (+) ونهاية أخرى للقطب السالب (-) . وتكون ألواح القطبين بوضع متداخل تفصلها عن

بعضها البعض ألواح عازلة مصنوعة من مادة بوليمرية مثـــل كلوريـــد الفنيل المتعدد أو غيره . وتُعَدّ الألواح السالبة والموجبة الوحدة التركيبيـــة للخلية . والغاية من توزيع المادة الفعالة على عـــدد مـــن الألـــواح هـــي الحصول على تيار تشغيل عالٍ عن طريق زيادة المساحة السطحية للمادة الفعالة الموجودة عليها .

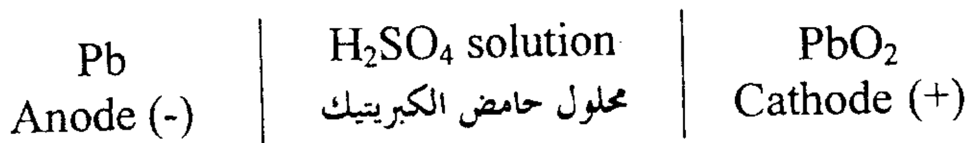
يُصنع وعاء (أو صندوق) النضيدة من مادة مطاطية أو بلاستيكية أو بوليمرية ، ويكون مقسما إلى عدة حُجرات داخلية مصنوعة مـــن المـــادة نفسها ليسع (١٢) أو (٦) أو (٣) خلايا . وقد يُصمم الوعاء ليسع خليـــة واحدة . ويُصنع غطاء الوعاء من مادة الوعاء نفسها ويضم عادة عـــددا من الفوهات بحسب عدد الخلايا التي تتركب منها النضيـــدة . وتوضـــع سدادات مناسبة على هذه الفتحات وتعمل هذه السدادات عمل مكثف بسيط يتم فيها تكثيف بخار الماء ورذاذ الحامض وإعادتها ثانيـــة إلـــى داخـــل النضيدة ، وتسمح هذه السدادات في الوقت نفسه بخروج الغازات المتولـدة داخل خلايا النضيدة ..وتُعزل الألواح السالبة عن الألواح الموجبة داخـــل النضيدة لمنع التماس بينهما وذلك باستعمال ألواح عازلة مصنوعـــة مـــن الخشب أو الورق المشبع بالراتنج أو بغشاء بوليمري مسامي . وتعمل هذه العوازل على منع حدوث أي تماس كهربائي مباشر بين الألواح الموجبـــة والسالبة وتسمح في الوقت نفسه بمرور ايونات المحلول من خلايا مسامها أثناء عمليتي التفريغ والشحن الكهربائي للنضيدة . محلول النضيدة هـــو حامض الكبريتيك المخفف الذي يتراوح وزنه النوعي من ١,٢٤٠ إلـــى ١,٢٥٠ فـــي المناطق الحارة ومن ١,٢٨٠ إلى ١,٣١٠ فـــي المنـــاطق

الباردة . إن مراقبة تركيز الحامض في النضيدة وكميته بصورة مستمرة مهمة جدا لاستمرار النضيدة بعملها بالكفاية المطلوبة . وقد تكون النضيدة مشحونة شحناً جافاً فتكون عندئذ خالية من المحلول ، ويمكن عندئذ خزنها لمدة طويلة نسبياً . أما النضائد التي تُسوَّق وهي مجهزة بمحلول الحامض فأنها عادة لا تُخزن لأكثر من شهر واحد وينبغي إعادة شحنها عقب مثل هذه المدة للحفاظ على ألواحها من التلف . وعندما تكون النضيدة من النوع المغلق ، فهي لا تحتاج إلى إضافة ماء مقطر إليها في اثناء الاستخدام ويمكن خزن مثل هذه النضيدة لمدة (٦) أشهر من دون الحاجة إلى إعادة شحنها خلال هذه المدة . وينبغي دوما إستعمال حامض الكبريتيك الخالي من الشوائب في تحضير النضيدة ، إذ أن للشوائب تاثيرا سلبيا على عمر وأداء النضيدة .

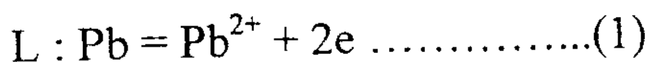
التركيب الكيميائي لخلية الرصاص الحامضية وتفاعلاتها

١- تفاعل تفريغ خلية كاملة الشحن **Fully – Charged Cell**

يمكن تمثيل خلية كاملة الشحن على النحو (أ) الآتي :

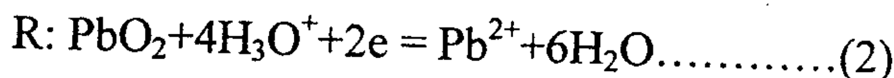


وعند ربط الخلية بدائرة خارجية لغرض تجهيزها بالكهرباء (وهذه تدعى عملية تفريغ الخلية Cell Discharging) يعاني القطب الأيسر (L) وهو المصعد (الأنود) تفاعل التأكسد الآتي :



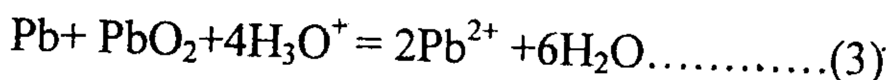
$$L : Pb = Pb^{2+} + 2e \ldots\ldots\ldots\ldots\ldots(1)$$

وتنتقل الالكترونات (2e) المتولدة في هذا التفاعل عبر الدائرة الخارجية الى القطب الأيمن (R) وهو المهبط (الكاثود) فيحدث فيه تفاعل الاختزال الآتي:



$$R: PbO_2+4H_3O^++2e = Pb^{2+}+6H_2O............(2)$$

وبجمع التفاعلين (١) و (٢) معا نحصل على التفاعل العام للخلية (أ) :



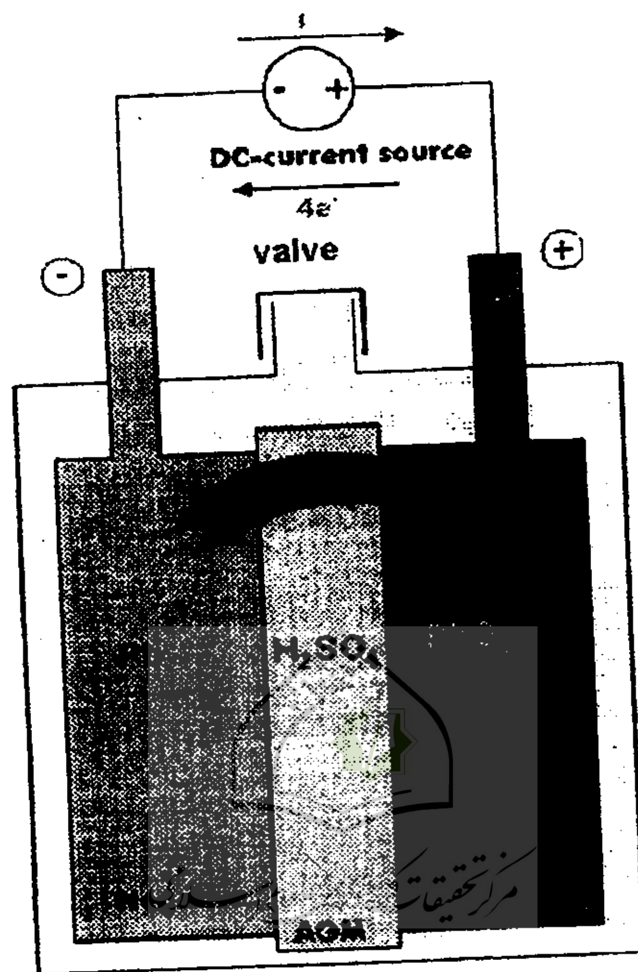
$$Pb+ PbO_2+4H_3O^+ = 2Pb^{2+} +6H_2O............(3)$$

وإذا اضفنا $2SO_4$ إلى طرفي هذه المعادلة نحصل على المعادلة :



$$Pb+ PbO_2+2H_2SO_4= 2\ Pb\ SO_{4\,(S)} + 2\ H_2O\ ....(4)$$

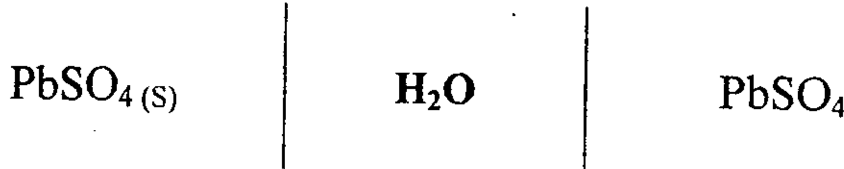
والرمز (s) إلى يمين $PbSO_4$ في المعادلة (4) يشير إلى كون هذا الملح شحيح الذوبان في المحلول ، وهو عادة يكسو سطوح ألواح القطبين . والتفاعل (4) يمثل عملية تفريغ (Discharging) النضيدة من شحناتها وتحويل أقطابها إلى كبريتات رصاص ($PbSO_4$) ،ويتحول محلول الحامض في النضيدة إلى ماء . وعلى هذا فأن قياس الوزن النوعي لمحلول الحامض في اثناء تفريغ النضيدة يساعد على معرفة مدى التفريغ الذي حصل في تيار النضيدة . الشكل (٧) يبين أنموذجا لنضيدة ذات خلية واحدة أثناء تفريغها من تيارها .



الشكل (٧) ـ انموذج تخطيطي لنضيدة رصاص حامضية مؤلفة من خلية واحدة ، وهي في حالة عمل لانتاج تيار كهربائي مباشر .

٢- شحن خلية كاملة التفريغ **Fully – Discharged Cell**

الخلية (أ) التي اكتمل تفريغها من تيارها الكهربائي وتحولتْ أقطابـــها إلى كبريتات رصاص يمكن تمثيلها كما في الخلية (ب) الآتية :



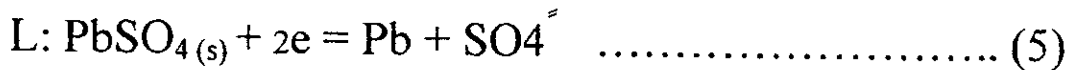
وإذا أخذنا بالحسبان الرصاص و فوق اوكســـيد الرصــــاص المتبقـــي أو الموجود في بنية مشابكها أو على رؤوس أقطابها يُصبح بالامكان كتابـــة الخلية (ب) على نحو الخلية (ج) الآتية :



فالقطب الأيسر هو رصاص وكبريتات رصاص (وهو قطـــب مـــن النوع الثاني) والقطب الأيمن هو كبريتات رصاص (Pb فيـــه بشـــكل Pb^{2+}) وثنائي اوكسيد الرصاص (PbO_2 أي Pb^{4+}) وهو بذا يؤلف قطـــب تأكسد واختزال .

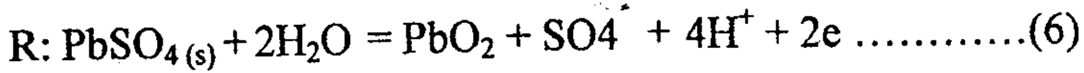
عند شحن الخلية (ج) من مصدر تيار مباشر خارجي تحدث ما يأتي :

عند القطبين الأيسر (L) والأيمن (R) :



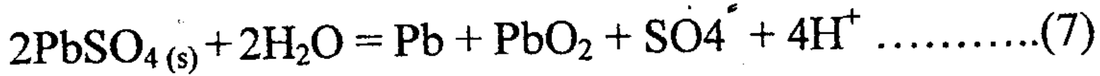
$$L: PbSO_{4\,(s)} + 2e = Pb + SO4^{=} \quad \ldots\ldots\ldots\ldots\ldots\ldots\ldots\ldots (5)$$

وهو تفاعل اختزال ، ويحدث تفاعل التأكسد الآتي عند القطب الأيمن :



$$R: PbSO_{4\,(s)} + 2H_2O = PbO_2 + SO_4^{=} + 4H^+ + 2e \;\ldots\ldots\ldots\ldots(6)$$

والتفاعل العام الذي يحدث فـــي الخلية (ج) يتمثل بمجموع التفاعلين (5) و (6) :



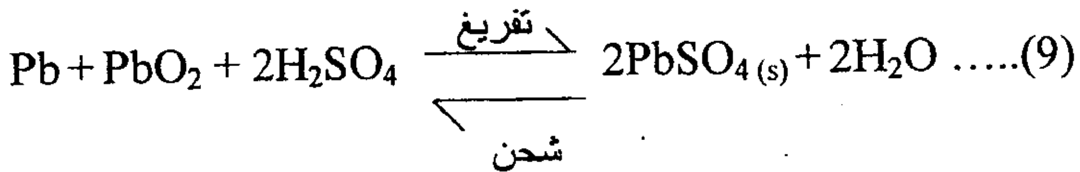
$$2PbSO_{4\,(s)} + 2H_2O = Pb + PbO_2 + SO_4^{=} + 4H^+ \;\ldots\ldots\ldots\ldots(7)$$

أو



$$2PbSO_{4\,(s)} + 2H_2O = Pb + PbO_2 + 2H_2SO_4 \;\ldots\ldots\ldots\ldots(8)$$

أي أن شحن النضيدة بتيار مباشر خارجي أدى إلى تحويـــل القطـــب الأيسر إلى رصاص والقطب الأيمن إلى ثنائي اوكسيد الرصاص وتحويل الماء المتكون في عملية التفريغ (المعادلة 4) إلى حامض الكبريتيك ، أي أن النضيدة استرجعت حالتها الأصلية الممثلة بالخلية (أ) . ويمكن تمثيـل عمليتي التفريغ والشحن بالمعادلة الآتية :



$$Pb + PbO_2 + 2H_2SO_4 \;\underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftharpoons}}\; 2PbSO_{4\,(s)} + 2H_2O \;\ldots\ldots(9)$$

وعند بلوغ المراحل الأخيرة من عملية شحن النضيدة تحـــدث تفـــاعلات مناسبة أُخرى في النضيدة ، ومن تلك التفاعلات تفكك الماء بتأثير التيـــار المار في النضيدة فتقل بذلك كفاءة الشحن بصورة محسوسة ، وتُســـتهلك طاقة الشحن في التفكك الالكتروليتي للماء ، ويتحرر الأوكسجين كغـــاز عند اللوح الموجب . وبإمكان هذا الأوكسجين النفوذ من خـــلال ثقـــوب

وشقوق عوازل النضيدة والوصول إلى اللوح السالب المكسو بالماء ويسبب اكسدة رصاص هذا اللوح إلى اوكسيد رصاص . وينجم عن هذا التأكسد استقطاب ضعيف في القطب السالب يؤدي إلى تثبيط تحرر غاز غاز الهيدروجين عنده .

فالتفاعل المنافس الذي يحدث من جراء الشحن المتزايد للنضيدة يتضمن ما يأتي :

أ- التفاعل عند اللوح الموجب الذي يشتمل على تفكك الماء وتحرر الاوكسجين الذي سرعان ما ينتشر من خلال عوازل الألواح ويصل إلى الواح القطب السالب .



$$2H_2O \longrightarrow O_2 + 4H^+ + 4e$$

Diffusion انتشار

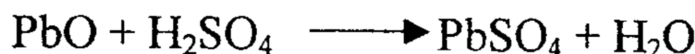
إلى القطب السالب

ب- تفاعل الاوكسجين هذا مع الرصاص الاسفنجي المتكون عند القطب السالب وتحويله إلى اوكسيد رصاص :



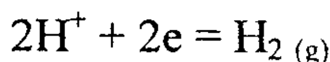
$$2Pb + O_2 \longrightarrow 2PbO$$

ج- تفاعل PbO المتكون في الخطوة (ب) مع محلول الحامض والتحول إلى كبريتات رصاص :



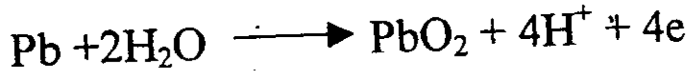
$$PbO + H_2SO_4 \longrightarrow PbSO_4 + H_2O$$

وقد يتحرر الهيدروجين عند القطب السالب على وفق المعادلة :



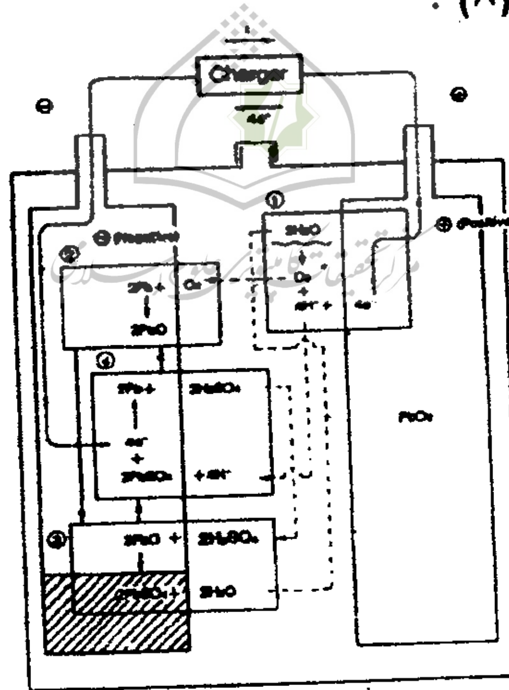
$$2H^+ + 2e = H_{2\,(g)}$$

والتآكل المصعدي (الأنودي) ، أي تآكل القطب السالب ، هو تفاعل جانبي مهم آخر قد يحدث وفق الخطوة :



$$Pb + 2H_2O \longrightarrow PbO_2 + 4H^+ + 4e$$

والرصاص الذي يدخل في هذا التفاعل هورصاص المشابك وليس رصاص ألواح النضيدة ، والتآكل المصعدي هذا يقلل من توصيلية الألواح ، ويؤدي كذلك إلى استهلاك ماء النضيدة وتناقصه . وهذا التناقص في ماء النضيدة يصبح فيما بعد عاملا مقصرا لعمر النضيدة . ويمكن تمثيل التفاعلات التي تحدث في النضيدة اثناء عملية شحنها بالشكل (٨) .



الشكل (٨) ــ مخطط يبين التفاعلات الكيميائية التي تجري في خلية الرصاص الحامضية خلال عملية شحنها بتيار كهربائي مباشر .

وهناك عامل محدد آخر لعمر نضيدة الرصاص الحامضية وكفاءتها ويتعلق بطبيعة كبريتات الرصاص المتكونة على أقطاب النضيدة في عملية التفريغ . إذ تتكون بلورات كبريتات رصاص كبيرة الحجم في عملية التفريغ السريع للنضيدة لذا يصبح من الصعب إعادة شحن مثل هذه البلورات بالطريقة التقليدية المعروفة . وتحدث مثل هذه الحالة عادة عند تفريغ النضيدة باستهلاك تيار عالٍ منها ، ويزداد حجم (ابعاد) دقائق المادة الفعالة المشحونة (المعرضة للشحن) خلال عملية شحن النضيدة ، وتقل بذلك مساحتها السطحية ، فتزداد بذلك مقاومتها الداخلية ، فتقل تبعا لذلك كثافة قدرتها الكهربائية .

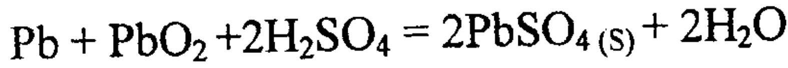
يبلغ الجهد القياسي لخلية الرصاص الحامضية (الممثلة بالخلية أ) ١,٩٢٨ فولت بدرجة ٢٥ مئوية ، وبذا تكون طاقة كيبز الحرة القياسية ΔG° لتفاعل الخلية (المعادلة 4) مساوية إلى :

$$\Delta G^\circ = - n F E^\circ$$
$$= (2)(96500)(1.928)$$
$$= - 372.2 \text{ kJ}$$

باعتبار n عدد اللاكترونات المشتركة في التفاعل (4) وقيمته = ٢ و F ثابت فاراداي وقيمته حوالي ٩٦٥٠٠ كولوم وE° هو الجهد القياسي لخلية الرصاص الحامضية البالغ ١,٩٢٨ فولت بدرجة ٢٩٨,١٥ كلفن.

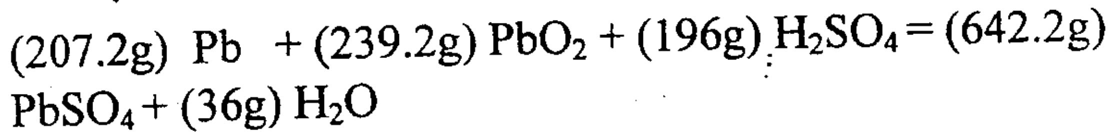
تغيرات الكتلة في تفاعل خلية الرصاص الحامضية

أشرنا في المعادلة (9) إلى التفاعل العام لخلية الرصاص الحامضيـــة على النحو :



$$Pb + PbO_2 + 2H_2SO_4 = 2PbSO_{4\,(S)} + 2H_2O$$

فاذا ادخلنا كتل المواد الداخلة في هذا التفاعل والخارجـة منـه مـن الأوزان الذرية للعناصر الداخلة في تراكيب المركبـات ، يمكـن أن نكتب :



$$(207.2g)\ Pb + (239.2g)\ PbO_2 + (196g)\ H_2SO_4 = (642.2g)\ PbSO_4 + (36g)\ H_2O$$

والقدرة النوعية النظرية لخلية الرصاص الحامضية تكون :

$$\frac{(53.61\ Ah)\ (1.928\ V)}{(0.6424\ kg)} = 160.9\ Wh/kg$$ (واط ساعة للكيلوغرام)

A هو الامبير ، h الساعة ، V فولت ، W واط ، Wh واط ســاعة ، و Kg كيلوغرام .

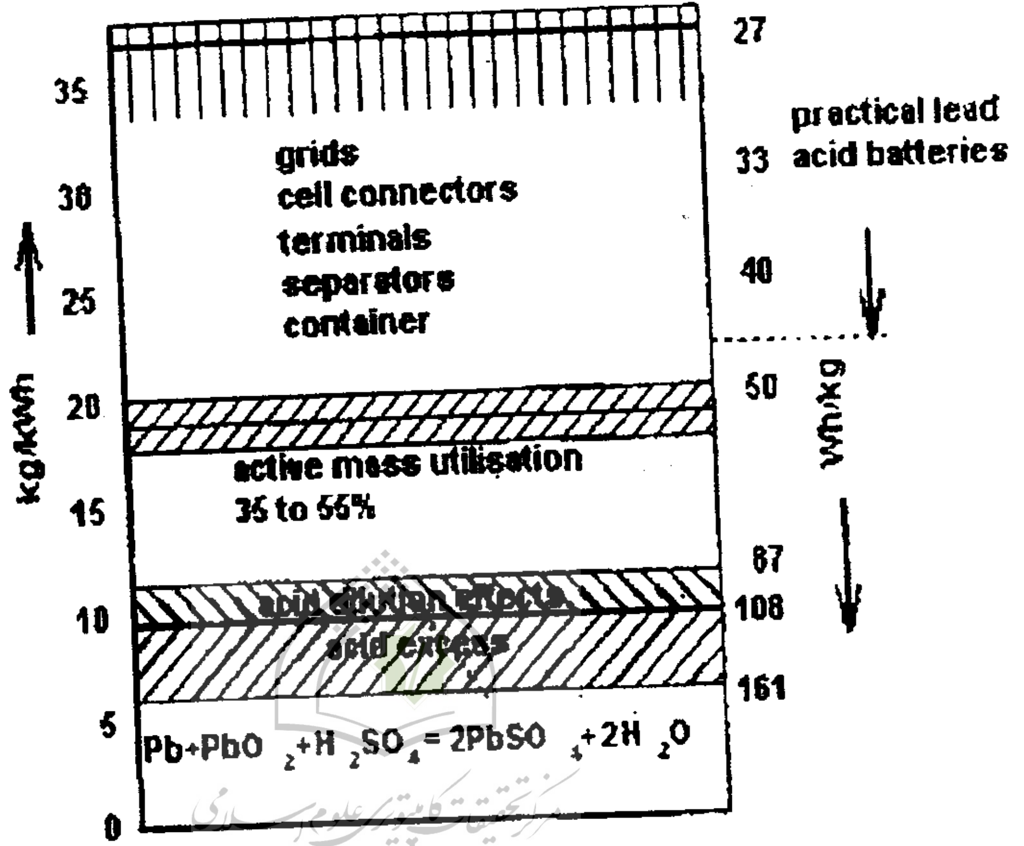
إن كثافة الطاقة العملية للخلية تتراوح مـــن ١٥ إلـــى ٤٥ واط ـ ساعة للكيلوغرام (Wh/kg) بسبب التحديدات فـــي اســتخدام المــادة الفعالة للاقطاب واوزان المواد الخاملة المستخدمة فـــي بنية النضيــدة (الوعاء المشابك ، الرؤوس ، .... الـــخ) . ويبيــن الشــكل (٩)

التأثرات المختلفة على كثافة الطاقة المستمدة من نضيدة الرصــــاص الحامضية .

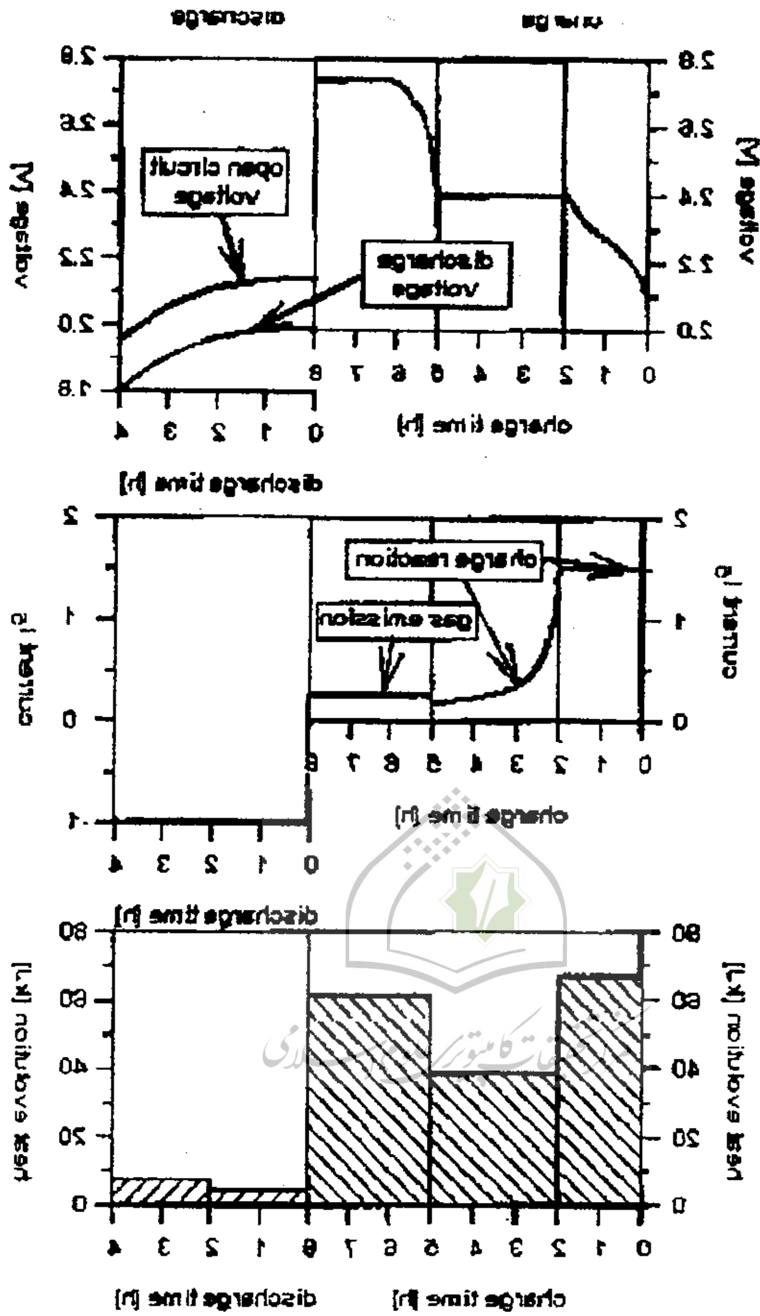
إن عمر نضيدة الرصاص الحامضية وأدائـــها يتـــأثران بدرجـــة الحرارة . تتولد حرارة داخلية في النضيدة خلال عمليتـــي التفريـــغ والشحن . وتفاعل اتحاد ذرات الاوكسجين معا لتوليد غاز الاوكسجين عند سطح القطب يؤلف مصدرا جديدا لتوليد الحرارة ، الـــذي يبلـــغ ٠,٠٩ واط لكل خلية . ويمكن حساب الحرارة الكلية الضائعـــة (Q) من النضيدة بموجب العلاقة :

$$Q = 0.77 \text{ (Watt-h) (عدد الخلايا) (التيار بالامبير) (الزمن بالساعة)}$$

والضياع الحراري يحدث عند شحن النضيـــدة بفولتيـــة ثابتـــة ، فيجتمع تأثير تيار ودرجة حرارة النضيدة معا لتوليد تأثير قوي متبادل من شأنه إحداث تلف محسوس فـــي النضيدة . يبيـــن الشـــكل (١٠) تغيرات الفولتية والتيار والتجرر الحراري مـــــع ازمـــان الشـــحن والتفريغ للنضيدة .



الشكل (٩) ـ مخطط يبين التأثيرات المختلفة على كثافة الطاقة المستحصلة من نضيدة الرصاص الحامضية



الشكل (١٠) ـ تغيرات الفولتية والتيار وتحـرر الحـرارة مـع أزمان الشحن والتفريغ في نضيدة الرصاص الحامضية .

بعض المصادر المعتمدة

1- P. Rvetschi, J.Power Sources , 1977 / 1978, 2,3.
2- K. H. Brockmann , J.Power Sources , 1988, 23, 87.
3- K. H. Brockmann , J.Power Sources , 1989, 28, 121.
4- R. J. Hill, J.Power Sources , 1988, 22, 175.
5- D. A. J. Rand , J.Power Sources , 1989, 28, 107.
6- J. R. Gavarri and A. W. Hewat , J.. Solid State Chem., 1985, 58, 87.
7- D. Pavlov and I. Balkanov , J. Electrochem. Science. and Technology, 1987, 134, 2390
8- J. E. Dix. J. Power sources, 1987, 19 ,157.
9- L. A. Bekctaeva and K. V. Rybalka, J. Power sources, 1990, 32, 143.
10- E. S. Napoleon, J. Power sources, 1987, 19, 169.
11- T. G. Chang and M.M.Wright , J. Electrochem. Soc., 1981, 128, 719.
12- P. Casson, N. A. Hampson and M. J. Willars , Electroanal. Chem. , 1979, 97, 21.
13- R. Groiss, H. Doring and J. Garche, Discussion on Pulse Charging of Batteries , UECT, 1997, Ulm, p(1-11).
14- Technical Note, Issue 017. Lead – Acid Batteries, 2001. p(1-5), London.

15- Technical Information About Lead – Acid Batteries, VRLA types, Canadian Power Technology, 1997-2001, Ontario

16- B. Dickens, J. Inorg, Nucl, Chem., 1995, 57, 1495.

17- The Battery Matt, 2001, Vol 43, No. 2 , February.

١٨- بطارية بابل ، الشركة العامة لصناعة البطاريات ـ بغداد ـ تقرير فني ، ١٩٩٦ .

19- René Groiss, Basy Tee GmbH, 1997.



الاغتراب والغربة(★)
في الفكر العالمي والتراث العربي الاسلامي

الدكتور مسارع حسن الراوي
عضو المجمع العلمي

الملخـص :

تعد ظاهرة الاغتراب ذات الابعاد النفسية والاجتماعية والاقتصـادية ، من اخطر المشاكل التي يجابهها انسان هذا العصر .

وهذه الدراسة محاولة لمعالجة هذه الظاهرة على مستويين هما :

المستوى الاول : الاغتراب في الفكر العالمي الـذي تضـمن خمسـة محاور هي :

١ ــ مفهوم الاغتراب

٢ ــ انواع الاغتراب

٣ ــ ابعاد الاغتراب

٤ ــ خصائص الشخصية المغتربة

٥ ــ عوامل الاغتراب واسبابه

(★) ان ما دفعنا وشجعنا لاجراء هذه الدراسة حول ظاهرة الاغتراب مـا قرأناه في صحيفة اردنيـة « الحدث » في ٢٨ حزيـران ١٩٩٩ تحت عنوان « نحن داهمنا الاغتراب ... فارتدينا الاقنعة » .

المستوى الثاني : الاغتراب في الفكر العربي الاسلامي • ويتضمن ثلاثة محاور هي :

١ ـ الاغتراب في التراث العربي قبل الاسلام

٢ ـ الاغتراب في الاسلام والعصور الاسلامية

٣ ـ الاغتراب في العصر الحديث

واتنهت الدراسة بتقديم مقترحات لمعالجة ظاهرة الاغتراب بين المثقفين والعلماء من اصحاب الكفاءات العالية بتوفير الظروف الاقتصادية الملائمة والاجواء العلمية المناسبة واشاعة روح الحرية والعدالة والمساواة بينهم من دون تفريق •

تمهيد :

يطرح كثير من علماء النفس وعلماء الاجتماع تساؤلات متعددة عن مكابدة الانسان ومعاناته القاسية في مجابهة متطلبات الحياة المعاصرة وتعقيداتها • ولعل اهم هذه التساؤلات :

لماذا حلت الأنانية والمصالح الفردية وما تفرزه من كراهية وعدوان وحسد محل الشعور بالجماعة والمصلحة العامة وما تفرزه من مودة ومحبة وتواصل وتعاطف وتكافل اجتماعي ؟

لماذا اصبح الانسان المعاصر غارقا في تحقيق ذاته وإشباع رغباته وتلبية حاجاته وكأن العالم ملكه رافعا شعار انا وبعدي الطوفان واذا مت ظمأنا فلا نزل القطر ؟

لماذا أصبحت الغاية تبرر الوسيلة ، فلسفة الانسان المعاصر ، مما ادى الى غياب القيم الاخلاقية فتجاهل الناس تاريخ البشرية الذي يؤكد ان الامم الاخلاق ما بقيت فأن هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا ؟

لماذا فقد الانسان ثقته بنفسه وبالتالي فقد ثقته بالاخرين ، فغلب عليه الشك والظن واصبح يعد الناس ــ كل الناس ــ كالذئاب وهو منهم وصار لسان حاله يقول :

اذا لم تكن ذئبا على الارض اجردا كثير الأذى بالت عليك الثعالب

لماذا اضطر الانسان الى ارتداء الاقنعة وتناسى حقيقته على مسرح الحياة المعقدة ومتطلباتها الواسعة كما وكيفا ؟

لماذا اخذ الانسان يشعر بالعزلة والوحدة فاضطر الى ان يتقوقع في عالمه الخاص يعيش الاغتراب في وطنه والغربة خارج الوطن ؟

نحاول ان نتلمس الطريق للاجابة عن هذه التساؤلات التي تتمحور حول اخطر مشكلة انسان هذا العصر ــ انها مشكلة الغربة ومأساة الاغتراب .

وتتناول في الصفحات القادمة ظاهرة الاغتراب على مستويين هما : الاغتراب في الفكر العالمي والاغتراب في التراث العربي الاسلامي وعلى النحو الاتي :

القسم الثاني : الاغتراب في الفكر العربي ــ الاسلامي ويتضمن :

اولا : الاغتراب مفهوما

ثانيا : الاغتراب انواعا

ثالثا : الاغتراب ابعادا ومقاييسا

رابعا : خصائص الشخصية المغتربة

خامسا : عوامل الاغتراب واسبابه

القسم الثاني : الاغتراب في الفكر العربي ــ الاسلامي ويتضمن :

اولا : الاغتراب في التراث العربي قبل الاسلام

ثانيا : الاغتراب في الاسلام والعصور الاسلامية

ثالثا : الاغتراب في العصر الحديث

اولا : الاغتراب مفهوما ـ يُعتَد الاغتراب اكثر المفاهيم شيوعا واستخداما ولكنه اقلها وضوحا وتحديدا فهو مفهوم غامض واسع ومطاط املنا بالله كبير ان يكون عرضنا لظاهرة الاغتراب القديمة ـ الحديثة ذات التاريخ الطويل لن يزيدها غموضا وتعقيدا بل اجابات مبسطة للتساؤلات المطروحة واشارة لتساؤلات جديدة وتعقيبات تثري موضوع البحث وتضيف اليه •

ولعل من النافع والمفيد قبل الخوض في الموضوع ومناقشة فقراته الاشارة الى بعض الحقائق العلمية التي تعد مسلمات معترف بها ومقبولة من كثير من اصحاب الاختصاص ومن هذه الحقائق الاتي :ـ

١ ـ أن الاغتراب ـ بوصفه ظاهرة اجتماعية ـ سلوكية ليست سمة العصر الحاضر فحسب بل سمة العصور الغابرة وهي موجودة منذ وجد الانسان وخرج من رحم امه صارخا لتغيير المحيط الذي كان يعيشه ليحل محله المحيط الخارجي الجديد •

٢ ـ ان ظاهرة الاغتراب ليست سمة مجتمع محدد من نوع خاص بل سمة كل المجتمعات ـ متقدمة ومتخلفة ، رأسمالية واشتراكية ، صغيرة وكبيرة ، إلا ان الاختلاف والتباين يمكن عادة في نوعية الاغتراب وطبيعته ودرجة سعة انتشاره بين الافراد • ويكمن في العوامل والاسباب المكونة له التي ادت الى وجوده •

٣ ـ ان ظاهرة الاغتراب على مستوى الفرد والمجتمعات ليست كلها مدمرة ـ سلبية ومرضية يعاب عليها سواء أكانت على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي بل هي ظاهرة في بعض جوانبها ايجابية بناءة مثمرة وقد تكون ضرورية في طريق الاصلاح وتغيير المسار الاجتماعي وقد تكون ظاهرة الاغتراب ضربا من ضروب التحدي الذي يتطلب استجابة وحلولا •

ويفسر كثير من علماء التاريخ والاجتماع ان كثيرا من الثورات والانقلابات حدثت في تاريخ البشرية ولدت في رحم ظاهـرة الاغتراب لعـدم الرضا بالواقع المعاش والنضال من أجل تغييره واحلال وضع اجتماعي جديـد يلبي حاجات الناس وطموحاتهم وآمالهم •

بعد هذه المقدمة الضرورية جاء دور الاجابـة عن السؤال مـا مفهـوم الاغتراب ؟

« الاغتراب باللغة العربية مصطلحا مشتق من الفعل غرب يغرب ويعنـي غاب واختفى وتوارى وتمادى وتنحى وبعد عن وطنه اما اغترب يغترب يعني احس بالغربة ونزح عن وطنه فاغتراب مصدر لفعل اغترب اي انتاب الفـرد شعورا بالاغتراب رغم وجوده في بلده • وفقد الانسان ذاته وشخصيته ممـا قد يدفعه الى الثورة لكي يستعيد كيانه »[1] •

اما في اللغة اللاتينية فيعود اصل الفعل ALIENATE الـى كلمـة ALIUS وتعني الاخر • وللاغتراب في اللغة الاجنبية سياقات ثلاثة[2] كمـا تبينها المعاجم الانجليزية تتمثل بالاتي :ـ

- سياق قانوني يتعلق بالملكية ونقلها من شخص الى آخر •
- سياق نفسي ـ اجتماعي تغريب انسـان لشيء يمتلكه اجتماعـي يتعلق بشعور الانسان بالوحدة والعزلة عن الاخرين •
- سياق ديني يتعلق بانفصال الانسان عن الله وابتعاده عن الخالق •

وكلمـة ALIENATION تعنـي الاغتراب وبعضـهم يعطيها معنى

---

(١) المعجم الوسيط الاساسي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلـوم ، لاروس ، بيروت ١٩٨٩ ، ص ٨٨٨ .

(٢) فايز محمد مصطفى الحديدي « مظاهر الاغتراب وعوامله لدى طلبـة الجامعة الاردنية ـ رسالة دكتوراه فلسفة في التربية ـ جامعة عين شمس، القاهرة ، ص ٢٢ . (غير منشورة)

الاستلاب ، وهي تحويل شيء ما لملكية شخص آخر بالانتزاع والازالة وهي بالتالي فتور علاقة بين شيئين وابتعاد الواحد عن الاخر والانفصال عنه •

وهذا التصور لمفهوم الاغتراب يدعونا الى ايضاح من المغترب ؟ وعن ماذا يغترب ؟ فاذا كان (أ) المغترب و (ب) المغترب عنه فقد يكون (أ) شخصا او مجموعة من افراد كالاسرة والرفاق والمجتمع ، اما الفرد فقد يكون مغتربا عن جسمه ، نفسه ، ذاته • وقد يكون مغتربا عن جوهره وكينونته وانانيته كما يرى ارك فورم وقد يكون مغتربا عن انسانيته كما يرى سارتر وقد يكون مغتربا عن الله (اغتراب الروح) كما يرى كالفن وقد يكون مغتربا عن الحقيقة كما يرى الكندي ، وقد يكون مغتربا عن خصوصياته وبنيته الاجتماعية كما يرى ابو الاغتراب هيجل • وهنا يتحقق معنى التسليم وتخلي الفرد عن خصوصياته •

ثانيا : الاغتراب انواعا : تختلف معاني ظاهرة الاغتراب باختلاف المفكرين ويتنوع بتنوع وجهات نظر الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلى الرغم من التباين والتنوع والتعدد في المفاهيم ، يمكن ترتيب تعريفات ظاهرة الاغتراب وتصنيفها الى مجموعات واتجاهات وعلى النحو الاتي :(٣)

١ ــ الاغتراب بوصفه ظاهرة اجتماعية : يرى كثير من علماء الاجتماع والمتخصصين في علم النفس والاجتماعي ان الاغتراب من الناحية الاجتماعية هو « حالة يشعر خلالها الفرد بالانفصال عن المجتمع ، والشعور بالوحدة والغربة وانعدام علاقات المحبة والصداقة مع الاخرين • ويذهب احمد ابو زيد وغيره الى ان الاغتراب في جوهره يعني الانسلاخ عن المجتمع وعدم الانتماء اليه والاندماج فيه والتباعد

(٣) راجع أيمن منصور ندا «الاغتراب الثقافي لدى الشباب العربي» مجلة البحوث والدراسات العربية العدد ٢٩ يوليو ١٩٩٨ ص ٣٩٣-٣٩٦ . اعتمدنا في تصنيف انواع الاغتراب الى ما جاء في هذا البحث القيم .

عنه كما يعني رفض الفرد للمؤسسات الاجتماعية القائمة وعدم قدرته على القيام بدوره الذي اختاره لنفسه مما يؤدي الى ضعف الثقة الفرد والمجتمع .

٢ ـ الاغتراب بوصفه ظاهرة نفسية : يرى كثير من الباحثين وعلماء التحليل النفسي « كفرويد » و « اريك فردم » و « هورني » ان الاغترات حالة نفسية يعاني اصحابها من « الشعور بعدم الارتياح وعدم الاستقرار والقلق والشعور بالضياع والعزلة وعدم الفعالية والوحدة والتضاؤل .. وهذا الشعور كثير ما يؤدي الى نتائج نفسية منها : تفكك مشاعر الفرد واحساسه بعدم اهميته والفصامية والذهانية وبالتالي اختلال الشخصية . ويذهب بعض المتطرفين من علماء النفس في تشخيص الاغتراب بالمرض النفسي او الخلل العقلي .

٣ ـ الاغتراب بوصفه ظاهرة نفسية اجتماعية : يرى اصحاب هذا المنهج التوفيقي في التفكير ان الاغتراب ظاهرة اجتماعية لها انعكاسات نفسية او هما معا تجعل الفرد غريبا عن واقعه الاجتماعي ، رافضا معطياته وغير ملتزم بمعاييره وقيمه ، وفاقد الثقة بنفسه مما يؤدي به الى حالة من القلق والاكتئاب والعدوانية .

٤ ـ الاغتراب بوصفه ظاهرة سياسية : يرى اصحاب هذا الرأي كهيجل وهوبز ولوك أن الاغتراب هو تسليم الشعب وتخليه للقوة الحاكمة . اما روسو « صاحب نظرية العقد الاجتماعي » فيرى ان الاغتراب هو تنازل الشعب عن بعض حقوقه وحرياته للسلطة الحاكمة وقد يصل التخلي والتسليم الى حد تنازل الفرد عن ذاته وحقوقه . اما ليفين فيرى ان الاغتراب السياسي منوط باخفاق الديمقراطية التي بالاساس هي حكم الشعب وحقه في اختيار ممثلين له لتنفيذ ارادته وحل مشكلاته، مما يتطلب توفير الامكانات والاجواء المناسبة للجماهير الشعبية في المشاركة في اتخاذ القرارات لاحداث التغيير وتسخير السلطة الحاكمة

لتحقيق الاهداف المجتمعة • لقد اثبت تاريخ البشرية ان الحكم الديمقراطي وقيم الحرية والعدالة الاجتماعية شعارات بلا تطبيقات عملية • فقد غاب دور الشعب وأرادة الجماهير في صناعة القرارات بسبب تفرد السلطة السياسية وسيطرتها في الحكم • ان هذا التفاوت والتباعد بين اهداف السلطة الحاكمة ومتطلبات الجماهير ومصلحتها يشكل مصدرا للاغتراب •

٥ ـ الاغتراب بوصفه ظاهرة وجودية : يرى اصحاب هذا الاتجاه ان الاغتراب صفة مغروسة في الطبيعة البشرية تتمثل في انفصال الفرد عن وجوده الانساني وان ذاته ليست واقعية وشخصيته المميزة مستلبة الارادة وحريته مفقودة • وانه اصبح مجردا من القوى التي تسمح له بتحقيق الدور الذي خططه لنفسه ومن هنا يبدأ الصراع بين الواقع والمثال •

من هذا الاستعراض لمفهوم الاغتراب وتصنيف انواعه واتجاهات مدارسه العلمية والفلسفية والقواسم المشتركة والعناصر المتشابهة بين هذه الانواع يتبين لنا بان الاغتراب « حالة من شعور الفرد بانفصاله عن واقعه وعجزه عن التكيف للمجتمع الذي يعيش فيه » انه حالة إخفاق الفرد في تحقيق توازن بين الواقعية والامكان ، بين الكينونة والتملك ، بين المظهر والجوهر وبين الانا والنحن ، وبالتالي بين الوجود في ذاته والوجود لذاته وهذا الاتجاه يؤكده العالم النفسي الاجتماعي اريك فروم • هذا بالنسبة للناس الذين يشعرون ويحسون ، اما بالنسبة لعامة الناس فيمكن القول بانهم يعيشون ظاهرة الاغتراب إلا انهم لا يدرون بانهم غرباء • وكما قال الشاعر العربي :

الناس غرباء في هذه الدار　　لكن ليس يدرون بانهم غرباء

ثالثا : الاغتراب ابعاداً ومقاييساً :

وكما تعرف الشجرة بثمارها ويعرف المرض باعراضه ومظاهره المكشوفة، يعرف الاغتراب بوصفه حالة نفسية من الاعراض الخارجية والتصرفات السلوكية في تعامل الفرد مع واقعه وقدرته على التكيف الاجتماعي .

وتعد دراسات ملفن سيمان[٤] من الدراسات الرائدة التي اسهمت في تحديد الابعاد المختلفة لظاهرة الاغتراب وعلى النحو الاتي :ــ

١ ــ الاحساس بالعجز powerlessness احساس المرء ان مصيره وارادته ليسا بيده بل تحددهما قوى خارجة ، ومن ثم فهو عاجز تجاه الحياة ويشعر بحالة من الاستسلام والخنوع .

٢ ــ الاحساس باللامعنى meaninglessness : احساس الفرد ان الحياة لا معنى لها وانها خالية من الاهداف التي تستحق ان يسعى الانسان من اجلها .

٣ ــ الاحساس باللامعيارية normalessness: احساس الفرد بالخيبة في ادراك القيم والمعايير السائدة في المجتمع وفهمها وتقبلها وعدم قدرته على الاندماج فيها نتيجة عدم ثقته بالمجتمع ومؤسساته المختلفة .

٤ ــ العزلة الاجتماعية socialisolation : احساس الفرد بالوحدة ومحاولة الابتعاد عن العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه .

٥ ــ الاغتراب الذاتي selflienation : ومعناه « عدم قدرة الفرد على التواصل

---

(٤) من دراسة ملفن سيمان مقتبسة من بحث للدكتور جاسم يوسف الكندري بعنوان المدرسة والاغتراب الاجتماعي منشورة في المجلة التربوية الكويتية العدد السادس والاربعون المجلد الثاني عشر شتاء ١٩٩٨ ص٣٧ . وكذلك دراسة ايمن منصور ندا المصدر السابق نفسه ص٤١٤ ، وقد اعتمد على دراسة سيمان في تحديد الابعاد .

مع نفسه وشعوره بالانفصال بين ما يجب أن يكون عليه وما هو عليه بالفعل » •

وقد تمكن « سيمان ونيل » من خلال دراستهما للمظاهر السلوكية لعملية الاغتراب الى وضع مقياس احادي البعد لقياس درجة العجز لدى الافراد على اعتبار انه اهم بعد من ابعاد الاغتراب وتم تعريف العجز على انه «التوقع المنخفض للقدرة على التحكم في الاحداث» وتتراوح الدرجات التي يحصل عليها المبحوث بين صفر (قدرة كبيرة) وسبع درجات (عجز شديد) •

ويرى ايمن ندا منصور(٥) ان سيمان اول من حاول قياس الاغتراب ميدانيا عام ١٩٥٩ قبل ان تدور دراسات الاغتراب في فلك الدراسات النظرية الفلسفية ودراسة سيمان كانت بمثابة نقطة الانطلاق للباحثين نحو قياس الاغتراب ومن ثم قامت على هذا التحليل محاولات عدة لبناء مقاييس صالحة لقياس الابعاد الخمسة مجتمعة او لكل بعد على انفراد • ومن هذه المحاولات التي اسفرت عن مقاييس الاغتراب الاتي :

١ ـ مقياس « ميدليثون » : وهو مقياس سداسي الابعاد لقياس العجز ، واللامعيارية واللامعنى والاغتراب الثقافي والاغتراب الاجتماعي والاغتراب عن العمل ، على اعتبار ان هذه الابعاد متزامنة في تكوين الاغتراب •

٢ ـ مقياس الانوميا الاجتماعية « لسرول » وهو مقياس احادي البعد يهدف منه « سرول » الى قياس الانوميا الاجتماعية (سوء التكامل الاجتماعي) **Malintegration** ويتكون هذا المقياس من خمس عبارات تعبر عن خمسة مكونات اساسية لمفهوم الاغتراب ويستجيب المبحوث لهذه العبارة اى باحدى الاجابتين (موافق وغير موافق) •

---

(٥) راجع ايمن منصور ندا المصدر السابق ص ٤١٤ ـ ٤٢٤ ، وقد اعتمدنا على هذا المصدر في استعراض مقاييس الاغتراب .

٣ ــ مقياس احمد خيري حافظ : صممه الباحث لقياس درجة الاغتراب محددا في ثمانية ابعاد رئيسة هي : السخط وعدم الانتماء والقلق والعدوانية وفقد المعنى ، ومركزية الذات واللامبالاة والانعزال الاجتماعي . وقد بينت دراسة احمد خيري بان ٨٥٪ من طلبة الجامعة في مصر يعانون بصفة عامة من الشعور بالاغتراب .

٤ ــ مقياس محمد ابراهيم : صمم الباحث هذا المقياس لقياس مستوى الاغتراب لدى الافراد في ضوء ستة ابعاد هي العزلة الاجتماعية ، والتشيؤ واللامعيارية والعجز واللامعنى والتمرد .

٥ ــ مقياس عبدالسميع السيد احمد : وهو اداة لقياس الاغتراب صممه الباحث عبدالسميع السيد في ضوء ثلاثة ابعاد هي الاغتراب الاجتماعي والاغتراب عن الجامعة والاغتراب عن الذات وقد بينت الدراسة ان الاغتراب ظاهرة حادة منتشرة بين طلبة الجامعات المصرية .

٦ ــ مقياس الاغتراب الثقافي لايمن منصور ندا : وهو مقياس عربي لقياس الاغتراب الثقافي يتلاءم مع الخصوصية الثقافية للشخصية العربية وتتوافق معها . وقد وضع الباحث لمفهوم الاغتراب الثقافي بعدين اساسيين هما :

ــ التغريب : ويعني اعجاب الفرد بالنماذج الغربية وتفضيلها على النماذج العربية والشرقية في مجالات الفن والطعام والشراب والازياء والقيم الاسرية وطرق الزواج واللغة والدين والعمل وغيرها من المجالات التي يشتمل عليها مفهوم الثقافة بمعناها الشامل .

ــ الاحلال او الاستحلال : ويعني تبني الفرد لبعض القيم والادوار والاعراف التي تتفق مع قيم المجتمع العربي وادواره واعرافه ومنها اللامعيارية والفردية والبخل والمادية والانانية والغش والكذب والانانية والسلبية والفردية والعجز والسخط والعزلة والرغبة في الهجرة والعنف والتمرد .

كما ان هناك محاولات غربية متعددة لقياس ظاهرة الاغتراب نوعا ومستوى منها : دراسة كامل محمد حسن ١٩٨٦ ومحمد ابراهيم عبد (١٩٨٧) وآمال محمد بشير (١٩٨٩) ورأفت عبدالباسط محمد (١٩٩٣) وغيرها • وكلها اسفرت عن انتشار ظاهرة الاغتراب بدرجة عالية ولاسيما بين الشباب •

ان ابعاد مقاييس الاغتراب والتعرف على درجة الاغتراب ومستواه عند الفرد يعتمد بالاساس على نظرة الباحث الى مفهوم الاغتراب ونوعيته والى نظرة الى الاغتراب كعملية ام نتيجة او ظاهرة •

رابعا : خصائص الشخصية المغتربة :

الشخصية السوية هي تلك الشخصية القادرة على التكيف مع البيئة الاجتماعية والمتفاعلة مع صروف الحياة بكفاءة وتمكن وبعكسها تكون الشخصية المغتربة التي تشعر بوعي انها عاجزة أزاء ظروف الحياة ومتطلباتها وانه لا حول لها ولا قوة فتتساوى لديها معاني الاشياء بل تفقد معانيها بحيث يصبح صاحب الشخصية المغتربة في حالة من الحيرة والصراع والتناقض في المواقف التي تقوده الى الشعور بانه غريب عن اقرانه وهم غرباء عنه مما يؤدي به الى محاولة التكيف مع الموقف بعدة طرق منها :

- الاندماج الكامل والمسايرة والخضوع لكل المواقف •
- التمرد والثورة والاحتجاج •
- الرفض للاهداف الثقافية والقيم الاجتماعية •

يرى الدكتور حليم[٦] بركات استاذ علم الاجتماع في جامعة جورج تاون في واشنطن ان الشخصية المغتربة تواجه خيارات ثلاثة ، هي :

---

(٦) د. حليم بركات « اغتراب المثقف العربي » المستقبل العربي العدد ١٩٧٨/٧/٢ ص ١٠٦–١٠٧ .

١ ـ الانسحاب من الواقع الذي يسبب اغترابه ، ويتمثل الانسحاب بعدم المواجهة او الهرب واللامبالاة واليأس والاقتصاص من الذات .

٢ ـ الرضوخ للنظام القائم والتعاون معه قهرا ، وينشأ عن ذلك قبول ظاهري ورفض باطني ، الامر الذي يفسر نشوء الاقنعة وتناقض الظاهر مع الباطن او الوجه العام والوجه الخاص . وكثيرا ما يرافق الرضوخ نزعة نحو التحلي بالصبر والانتظار والتعليل والتبرير .

٣ ـ التمرد الفردي أو العمل الثوري ضمن حركة شعبية من اجل تغير الواقع تغييرا جذريا وتجاوز حالة الاغتراب .

اما الدكتور ايمن منصور[٧] الذي اعتمد على دراسة الدكتور بركات واقتبس بعض العبارات منها ، فيرى ان من تحليل الشخصية المغتربة امكن للعلماء تحديد ثلاثة انماط لظاهرة الاغتراب ، واعتبارها خصائص للشخصية المغتربة وهي :

زملة الاغتراب الانسحابي : وتتضح في اعراض متميزة تبدو في السلوك الاحجامي الذي فيه يتناءى الشخص عن التفاعل مع اعضاء الجماعة التي يتواجد فيها ، ويعزف عن الاضطلاع بادوار اجتماعية يقاسم فيها الاخرين المسؤولية الاجتماعية . ومن اشكال الانسحاب :

- الارتداد والنكوص الى الماضي ليلوذ الفرد بأمنه
- الاستغراق وغمر النفس في الحاضر والبحث عن المكافآت
- الانشغال باشياء سطحية واهتمامات تافهة
- التبلد والجمود الاجتماعي
- الانتحار .. وهو اعلى درجات الانسحاب واقواها .

---

(٧) أيمن ندا : المصدر السابق ص ٤٠٨ـ٤٠٩ . وفيه مقتبسات من دراسة حليم بركات ١٩٨١ ، (ندوة علمية حول الاغتراب) ، مجلة العلوم الاجتماعية جامعة الكويت ، العدد ٤ ، ص ١١٧ .

٢ ـ زملة الاغتراب الرفضي : ويتصف اصحابها بمقاومة السلطة او بتجاهل القواعد والقوانين الاجتماعية ، وبرفض المعايير الثقافية المقبولة فيما يتعلق بالسلوك والعلاقات الاجتماعية والممارسات العملية ... وهم ايضا اشخاص يحدثون الاضطرابات للاخرين برفضهم لاصول التفاعل معهم . فهم بصفة عامة رافضون للجماعة ولاهدافها ولجزاءاتها وقد قسم حليم بركات هؤلاء الرافضين ـ النشاط ـ الى فريقي هما .

- المصلحون .. ومنهم العلماء المخترعون والادباء والمفكرون ممن يحطمون لكي يبنوا ما هو افضل .
- المنتغمون ممن يشتركون في الانشطة بغية تحطيمهما او تخريبها لا تحسينها او اصلاحا .

٣ ـ زملة الاغتراب الانغلاقي : ويتميز الفرد هنا بنزعة مسيطرة للتركز حول الذات والانغلاق في دائرة خبرته واهدافه واهتماماته ومصالحه الشخصية ويتسم هؤلاء الافراد باتجاه ميكافيللي انتهازي يرى ايثار المكاسب والمنافع الشخصية فوق كل اعتبار ، والصفة الغالبة على هؤلاء انهم « براجماتيون وعمليون وباحثون عن المراكز » ولعل من مكرور الكلام ونافلة القول تأكيد حقيقة مفادها ان الواعين من الناس عموما على اختلاف جنسياتهم واعرافهم ومستوى قدراتهم العقلية ودرجة تحصيلهم المدرسي ومستوهم الثقافي يتعرضون بطريقة او باخرى لمشاعر الاغتراب وضروب الخصائص اما المجابهة لهذه الظاهرة والمرحلة التي وصلت اليها الشخصية المغتربة فتحددها الفروق الفردية التي تلعب دورا بارزا وفعالا في تحديد آليات المجابهة ونوعيتها سواء أكانت سلبية أم ايجابية بدءا بالقبول والاستسلام الى الزهد والانعزال الى التبريرات والانتهازية .. الى الرفض والتمرد والعدوان والكنوص : والكآبة وقد ينتهي الى الاغتراب والانسحاب مكانا وزمانا والى الانتحار وهو اعلى الدرجات واقواها .

خامسا : عوامل الاغتراب واسبابه

الاغتراب بوصفه ظاهرة وعملية سلوكية ـ لاتقع في فراغ ولا تظهر من لاشيء ـ من ذاتها ـ بل تحدد وجودها عوامل متعددة واسباب متشابكة . وكلما تعقدت الحياة وتعددت متطلباتها اصبح الانسان ولاسيما انسان هذا العصر يعيش أزمة الاغتراب وصعوبة التكيف والعيش بسعادة وامن وامان في مجتمعه .

والانسان ـ البدائي والمعاصر ـ له حاجات ومتطلبات للعيش . ويرى كثير من علماء النفس وفي مقدمتهم ماسلو ان حاجات الانسان تكمن في ثلاثة انماط هي :

- الحاجات البيولوجية ـ الفسيولوجية المتمثلة بالحاجه الى الجوع والعطش والنوم والجنس .
- الحاجات الاجتماعية المتمثلة بالحاجة الى الامن والسلامة والانتماء الى الجماعة والشعور بالمحبة .
- الحاجات النفسية « الذاتية » المتمثلة بالاحترام والتقدير وتحقيق الذات وتعزيز كينونتها .

هذه الحاجات كما يرى ماسلو مترتبة على شكل هرمي قائم على اساس الحاجات الاولى منها في قاعدة الهرم يجب ان تلبى وتشبع قبل الانتقال الى الحاجات الاجتماعية التي تليها ثم الى الحاجات النفسية في قمة الهرم .

ولما كان لكل قاعدة استثناء نجد ان هناك من الناس القلائل من اصحاب العقائد والمبادىء ممن لا ينطبق عليهم هذا الترتيب الهرمي فيتجاوزون الحاجات الاولية الضرورية ويضحون بها من اجل العقيدة والمبادىء وتحقيق الاهداف .

وفي تناول الاسباب والعوامل التي تحدد ظاهرة الاغتراب عند الانسان يتطلب الامر العودة الى انواع الاغتراب ومدارسه للتعرف على نظرتها لهذه

الحاجات ومدى امكانية كل من هـذه المـدارس تلبيـة الحاجات الحياتيـة والاجتماعية والنفسية التي تتطلبها حياة الانسان المعاصر •

فالمدرسة التي تنظر الى الاغتراب بوصفها ظاهرة اقتصادية تؤكـد : ان الانسان عندما لا تلبى ولا تشبع حاجاته البيولوجية الضرورية كالاكل والشرب والكساء والجنس • تنتابه حالة من غياب التوازن والاضطراب مما يؤدي الى الشعور بالاغتراب والغربة عن الوطن وقيم المجتمع •

ان اصحاب هذه المدرسة على حق في ضرورة اشباع الحاجـات الحياتية الضرورية كحد ادنى من العيش ليكون قادرا على الانتقال الى مرحلة انسانية اعلى في الشعور بالانتماء الى الجماعة وتحقيق ذاته واثبات وجوده وكينونته وتأكيا انسانيته فليس بالخبز يحيى الانسان ويعيش •

اما المدرسة التي تنظر الى الاغتراب بوصفهـا ظاهرة سياسية ، فتؤكـد اهمية دور الحكومات ومسؤولية السلطة السياسية الحاكمة في تهيئة الاجواء الديمقراطية المناسبة المتمثلة بترسيـخ مبادىء الحرية والعدالة الاجتمـاعية واتباع القيادة الجماعية والشورى في اتخاذ القرارات وتجنب التسلط والتفرد في الحكم • ان توفير الجو الديمقراطي يحفز المواطن ويشجعه في ابداء الرأي والمشاركة في اتخاذ القرارات التي تساعده على تنمية قدراته ومواهبه وبنـاء مجتمعه والنهوض به وبالتالي تحقيق ذاته واثبات وجوده وكينونته • وفي حالة غياب الجو الديمقراطي وانعدام الحريـة والعدالة الاجتماعية ينتاب المواطـن حالة من عدم الرضا والتمرد والدعوة لتغيير النظام السياسي واستبداله بنظام اكثر عدلا وحرية وامنا وامانا • ان طغيان السلطة وجبروت السلطان وسياسته في قطع الارزاق وقطع الاعناق وخنق الحريات يعد من اهم الاسباب التي تولد ظاهرة الاغتراب : تمـردا أو رفضا أو عـزلة وانـزوراء او هجرة وابتعـادا مكانيا وزمانيا •

وتؤكد المدرسة الاجتماعية التي تنظر الى الاغتراب بأنه ظاهرة اجتماعية ان من اهم عوامل الاغتراب عن الذات والاغتراب عن الوطن هي العوامل الاجتماعية متمثلة بالنظرة الكلية للمجتمع ومؤسساته المتعدده وبالاخص الاسرة ودورها في التنشئة الاجتماعية وتكوين الشخصية المتكاملة جسما وعقلا ونفسا وبالتالي ترسيخ القيم الاخلاقية .

فالاسرة وهي مؤسسة اجتماعية تعد من اهم أعمدة المجتمع واساس تقدمه ونهضته . فمهامها متعددة ودورها فعال في نقل التراث الحضاري والقيم الاجتماعية من جيل الى جيل ، فهي مؤسسة حضارية تؤثر في صياغة الفرد بالتعاون مع المؤسسات الثقافية والتربوية الرسمية وغير الرسمية ، كالمدارس واماكن العبادة والنوادي والاحزاب واجهزة الاتصال والتواصل كالراديو والتلفزيون والصحف ... وغيرها ، وعليه فاسباب الاغتراب الخفية والظاهرة وجذورها التأريخية تعود بالاساس الى عهد الطفولة ولاسيما السنوات الست الاولى كما يرى كثير من علماء النفس والاجتماع .

اما مدرسة « اريك فروم »(★) التي تنظر الى الاغتراب بوصفه ظاهرة اجتماعية نفسية فهي تؤكد الصراع بين مكونات النفس البشرية المتمثل في حب التملك والكينونة . وحب التملك يقوم على الانانية والفردية والشعور بالانا في الاقتناء والاستحواذ والجشع والنهم وحب التسلط والسيطرة والسعي من اجل الجاه والمراكز . اما الكينونة فتقوم على الشعور بالنحن والجماعة والايثار والتضحية وترسيخ قواعد الوجود وتعزيز الذات .

والسؤال الذي تطرحه هذه المدرسة كيف يحدث الاغتراب والغربة عند الانسان ؟

(★) ارك فروم « الانسان بين الجوهر والمظهر » ترجمة سعد زهران ، سلسلة ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب . الكويت ، ١٩٨٩ .

يحدث الاغتراب عندما تطغى وتتغلب الانانية والفردية وحب التملك والسيطرة في الانسان على الجانب الخير في النفس البشرية • اما التكيف الحقيقي والشعور بالامن والامان فيكون عندما يتغلب الجانب الخير في الطبيعة البشرية المتمثل الشعور بالكينونة وتعزيز الذات والشعور بالجماعة والعمل لخيرها على عنصر الشر في الطبيعة البشرية الذي يؤكد حب التملك والاهتمام بالمظهر متخطياً الجوهر •

وفي ضوء هذا الصراع في النفس البشرية بين الشر والخير ، بين المظهر والجوهر والانا والنحن وسيادة الشر على الخير وسهولة انتصار عناصره ولكونها تتصل باللذة والهوى على عناصر الخير التي تتطلب المجاهدة مع النفس نجد ان الانسان المعاصر يعيش مأساة ومكابدة الصراع بين الخيارين الذي كثيرا ما يؤدي الى الاغتراب عند الناس بصورة عامة الا من رحم ربي •

اننا نعتقد ان الاقتصار على سبب واحد للاغتراب فيه اهمال وتجاوز وتعد لاثر الاسباب الاخرى • ان من الممكن المجابهة والتغلب على ما تفرزه نتائج هذه الظاهرة المدمرة من سلبيات على حياة الانسان المعاصر بمعالجة الاسباب ـ كل الاسباب بموضوعية والتصدي لها بقوة وصبر وذلك بتوفير الاجواء الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية المناسبة التي تساعد الفرد على تنمية قدراته الكامنة وتفجير طاقاته الخلاقة ومواهبه المتعددة لتعزيز ذاته وتحقيق انسانيته الخيرة وسعادة مجتمعه وصالح البشرية جمعاء •

وهذا ما يؤكده ارك فروم في كتابه الانسان بين الجوهر والمظهر على ان السبل تضيق بالانسانية وان اشكال المجتمعات الحالية تدفع بالانسان الى الاختلال العقلي والاضطراب النفسي الذي ينتهي بالاغتراب المكاني والزماني• ويرى فروم أن لا طريق للخلاص ـ خلاص انسان هذا العصر وخلاص مجتمعه الا بالكفاح المرير والمجاهدة المستمرة من اجل بناء المجتمع الجديد ـ مجتمع المدينة الفاضله التي يسودها جو الحرية والعدالة الاجتماعية وخلق شروط

العمل والانتاج المبدع الذي يجعل الرضا النفسي المكافئات المعنوية والتقديرية اساسا للحوافز الفعالة وليست المكاسب المادية والربح الرخيص .

ان توفير اجواء الامن والامان للانسان والسعي لاشباع حاجاته الحياتية البيولوجية والاجتماعية والنفسية كفيل بان يحرر الانسان من العيش بذل وعبودية كالبهائم وتحت رحمة السلطة وسيطرة حكامها الطغاة .

القسم الثاني : الاغتراب في الفكر العربي الاسلامي :

يرى كثير من المؤرخين ان تاريخ العرب يمتد الى آلاف السنين قبل الميلاد . ومن هذا التاريخ ما اطلقوا عليه تاريخ العرب قبل الاسلام ومنه تاريخ العرب بعد ظهور الاسلام وانتشار رسالته الخالدة . ان ما يهمنا لغرض هذه الدراسة هو الاغتراب في التراث العربي ــ الاسلامي ، الا اننا وجدنا انفسنا امام تراث عربي ثر قبل الاسلام ، ارتأينا تناوله بشيء من الاختصار والايجاز .

اولا : الاغتراب العربي قبل الاسلام :

التاريخ والمؤرخون ومنهم الدكتور جواد علي والدكتور احمد سوسة يشيرون الى ان الجزيرة العربية هي الموطن الاصلي للعرب منذ اقدم الازمنة والعصور ، وان ارض الجزيرة العربية كانت مؤهلة لاحتضان الحضارات المتقدمة لما يتوفر فيها من الانهار الكثيرة والامطار الغزيرة والآبار المنتشرة . وكانت الجزيرة العربية آهلة بالسكان ، افرزت حضاراتها انماطا من انظمة الحكم والاعراف الاجتماعية المتوارثة لفض النزاعات والخلافات وترسيخ القيم . وكانت لغة التخاطب والتعبير بين السكان اللغة العربية مع اختلاف اللهجات وطرق التواصل .

اما دياناتهم فمختلفة منها الحنفية والنصرانية واليهودية وقسم كانوا يعبدون النجوم والملائكة ... ولما كثر سكان الجزيرة العربية وضاقت بهم الارض برحابها وازداد جدبها وجفافها اضطر اهلها بحكم تنازع البقاء وضغط

مطالب الحياة الى الانتشار الى الاراضي المجاورة والهجرة اليها مستوطنين حيث تتوفر متطلبات العيش الرغيد المتمثل بوفرة المياه من الانهار والامطار وخصوبة الارض • وكانت الاراضي البديلة هي وادي الرافدين وارض ما بين النهرين ووادي الاردن ووادي النيل الاسفل وساحل البحر المتوسط • وقد انشأوا الحضارات التي لايزال التاريخ يعترف باثرها ودورها الطليعي في تقدم الحضارة البشرية ومن هذه الحضارات حضارة الاكديين والبابليين والاشوريين والكنعانيين والاراميين والعموريين • وتعد تلك الهجرات خارج الجزيرة : اول ظاهرة اغتراب اضطرارية للعرب بحكم العوامل الاقتصادية القاسية وطلبا للعيش •

والتاريخ يؤكد ويدون بأحرف من نور ما قدمته هذه الحضارات من اساسيات التقدم الحضاري في مجالات الحياة وفنونها المختلفة في الزراعة والتجارة وفنون الحرب وانظمة الحكم والشرائع والاداب والفلسفة • ولعل اختراع فن الكتابة وابداع الحروف الابجدية وانشاء المدارس في المقدمة مما غير مجرى الحياة البشرية •

وقد نكتفي بما صوره لنا المؤرخ أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ من صورة واضحة عن مستوى هذه الحضارات فيقول[٨] « وكانت مستوطنات شعب الجزيرة في عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الاجزاء تضم الجزيرة العربية الام وابناءها في البلاد المهاجر اليها ــ وادي الرافدين وسوريا ولبنان وفلسطين الى مصر السفلى ــ وهو عالم متصل مفتوح السبل لاهله ، مرتبط بعضه ببعض بوشاح الاصل السامي العربي ، قائم بذاته يتكلم اهله لغة واحدة ــ هي اللغة العربية الام : منهم اهل السواحل (الذين) خبروا البحار

(٨) احمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ • دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٢ ص ١٣٩ •

ومنهم اهل الصحارى (اهل الوبر) احتضنوا البوادي ومنهم اهل المدن والقرى (اهل المدر) احترفوا الزراعة والتجارة ومنهم الرعاة اصحاب المواشي، فقد صهرتهم الوحدة الجغرافية في مصير واحد مشترك ، فتعاونوا على الرغم من اختلاف نزعاتهم على وضع اسس الحضارة السامية الكبرى » .

لقد كان مفهوم الاغتراب بالنسبة للقبائل التي انتقلت الى خارج الجزيرة العربية وكونت امبراطوريات ذات حضارات سادت ثم بادت هو الهجرة من الموطن الاصلي في الجزيرة العربية والانتقال الى موطن آخر بسبب الظروف الاقتصادية القاسية حيث مواطن الخصب ووفرة متطلبات العيش .

اما القبائل العربية التي انكفأت وانحصرت في الجزيرة العربية بعد سقوط هذه الحضارات فكانوا يعيشون عيشة بدائية بسيطة مع اغنامهم وابلهم ينتقلون من مكان الى مكان في طلب وسائل العيش من الكلأ والماء والنار ولهم ديانات مختلفة وتنتشر بينهم عادات الثأر والانتقام ووئد البنات بدفنهم وهم أحياء خوفا من العار وخشية الاملاق .

اما مفهوم الاغتراب قبل ظهور الاسلام بالنسبة للقبائل العربية التي كانت تقطن في مناطق فيها استقرار وملتقى طرق التواصل والتجارة كمكة المكرمة فتتمثل في الرحلات ـ شتاء الى الجنوب في اليمن وصيفا الى الشمال في سوريا للتجارة الارتزاق .

وهذا ما يحدثنا عنه القرآن الكريم في سورة « لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

كما يمكن ان نلحظ نوعا آخر من الاغتراب بالنسبة لقبائل الجزيرة العربية التي لا يتوفر في مواطنها اسباب الاستقرار ومتطلبات العيش فيغلب عليها الترحال والتنقل من مكان الى آخر .

تقيم الرجال الاغنيـاء بأرضهم   وترمي النوى بالمغتربين المراميا

لقد كانت الدنيا بالنسبة للبدوي ارتحـال ونزول حيث تتوفر اسـباب العيش البدائية من ماء وكلأ ونار . هذا بالنسبة لظاهرة الاغتراب الجماعـي المتمثل بالقبيلة ، اما بالنسبة للفرد البدوي فهي هـرب وانسحاب من قبيلتـه واللجوء الى قبيلة اخرى بسبب شعوره واحساسه بان حقوقه الفردية قـد انتهكت وان حريتـه الخاصة قد ضاقت وبالتالي كرامتـه قد أهينت وكـأن لسان حاله يقول كما قال الشنفرى :

أقيموا بني أمـي صدور مطيكم   فأني الى اهل سـواكم لأميـل
وفي الارض منأى للكريم من الاذى   وفيها لمن خـاف، القـلا متعـزل

وقال آخر :

فلا صـديق اليه مشـتكى حزني   ولا أنيـس اليه منتهى جذلـي
طـال اغترابي حتى حنّ راحلتي   ورحلهـا وقرا العسالة الذُبـل

وقال شاعر آخر :

وابعدني عـن أربعي بعد اربـع   شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي
فعليّ بعد اوطاني سكون الى الفلا   وبالوحش انسي اذ من الانس وحشتي

وقال آخر :

اذا لم يعش حرا بموطنه الفتـى   فسمي الفتى ميتا وموطنه قبـرا

كما ان هنالك انواعا اخرى من الاغتراب وترك القبيلة وهجر موطنهـا بسبب اخفاق البدوي في بلوغ مناله من محبوبته والنيل منها بالوصال وتبادل الحب والهوى .

وقد عبّر بعض الشعراء عن هذا النوع من الاغتراب بقولهم :

بكيت كما يبكي الوليد ولم اكن   جليدا وابديت الذي لم يكن يبدي



هجرتك اياما بـذي الغمر انني   على هجر ايامي بذي الغمر نـادم
واني وذاك الهجـر لو تعلمينـه   كعازبة عن طفلهـا وهي رائـم



تمتـع من شميم عرار نجـد   فما بعد العشـية مـن عـرار



ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد   فقد زادني مسراك وجدا على وجدي

وقال آخر اضطر الى الاغتراب :

فان كان هـذا منك حقا فأننـي   مداوي الذي بيني وبينك بالهجر

★

فلا تحسبي ان الغريب الذي نأى   ولكـن من تنـأين عنه غـريب

★

ارى كل ارض دَمّنتها وان مضت   لها حجـج يـزداد طيبـا ترابهـا

كما تشير بعض عادات القبائل العربية وتقاليدها الى نفي الفرد الـذي يتعدى بالقتل على احد من قبيلته او من قبيلة اخرى وهدر دمه ، مما يضـطر هذا المعتدي الذي اصبح مذموما من قبيلته الى الهرب والاغتراب من موطـن قبيلته والتخلي عن الانتماء اليها الى قبيلة اخرى بعيدة ، بصفته دخيلا يطلب الحماية والحفاظ على حياته .

هذا ما كان سائدا ومنتشرا من مفاهيم الاغتراب بين العرب القدامـى وعرب الجاهلية قبل الاسلام ، والان جاء دور التعرف على مفهوم الاغتراب بعد انتشار الاسلام وتكوين الدولة الاسلامية واشتهار حضارتها .

ثانيا : الاغتراب في العصور الاسلامية :

جاء الاسلام رافضا القيم الاجتماعية والعادات المتخلفة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية فكان ثورة حضارية انسانية اخلاقية رائدة في دعوته الى عقيدة التوحيد والايمان بالواحد الاحد خالق الكون وداعيا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل الصالح •

لقد بدأت الدعوة الاسلامية وتنظيماتها السرية بقيادة الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم • وعندما بان خطرها على قيادات قريش واصحاب المصالح في مكة المكرمة ، واجهت الدعوة الاسلامية معارضة شديدة وردود فعل معاكسة تمثلت بالاضطهادات والمضايقات • مما اضطر اصحاب الدعوة الاسلامية بعد افشاء سرها الهجرة الى الحبشة حيث احسن امبراطور الحبشة النصراني وفادتهم فاكرمهم وشملهم برعايته ضيوفا اعزاء •

لقد كانت هجرة المسلمين الى الحبشة البلد المسيحي نمطا من انماط الاغتراب الاضطراري •

ولما قويت الحركة الاسلامية وابتدأت بالانتشار واتسع نطاق مؤيديها واتباعها بعودة المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة ، ازداد الصراع بين الكثرة الكافرة والقلة المؤمنة مما اضطر قيادات قريش الى اعلان الحصار الشامل الذي شمل الاهل والاصحاب والاقارب والاتباع والمؤيدين للدعوة • لقد لاقى المسلمون الموحدون الامرين ـ مرارة العذاب ومرارة الحرمان فاضطروا الى الهجرة من مكة موطنهم الاصلي الى المدينة المنورة مغتربين • لقد استقبل اهل المدينة من قبائل الاوس والخزرج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه استقبالا حسنا فأكرموهم وشدوا ازرهم مما دعا الرسول الى ان يطلق عليهم اسم الانصار لانهم ناصروره وصحبهُ وآمنوا برسالته ـ رسالة التوحيد •

وعندما قويت الدعوة الاسلامية وكثر انصارها اصبحت قادرة على رد كيد الاعداء والتعرض لقوافل قريش العائدة من الشام • وقد قامت حروب وغزوات ووقائع كثيرة بين المشركين والمؤمنين كان من اهمها وقعة بدر الكبرى وأحد والخندق وغيرها ، وانتهت بفتح مكة وانتصار المسلمين على كفار قريش واعلان اسلامهم • ونتيجة لهذا الفتح العظيم المبين في ام الفتوح والانتصار التأريخي الحاسم والفاصل بين الكفر والايمان جاء عصر النور عصر بناء الدولة الاسلامية وتحت لواء قيادة الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وسلم وتلاه عصر الخلفاء الراشدين فالامويين في دمشق والعباسيين في بغداد والامويين في الاندلس وبسقوط بغداد ١٢٥٦هـ جاء حكم الغرباء من قبائل التتار والمغول ثم جاء الحكم العثماني ومن بعده الاحتلال الاوربي واعلان الانتداب والاستعمار الغربي وانتهى بالحكم الوطني المتمثل بالاستقلال الشكلي في المشرق العربي ومغربه على حد سواء بعد هذه العجالة في استعراض تاريخ العرب بعد ظهور الاسلام آن الاوان لبحث ظاهرة الاغتراب وانواعه في التراث العربي ــ الاسلامي •

فالاسلام في جوهره ظاهرة اغتراب وتحول اجتماعي نوعي بحكم كونه اولا : هجرة عبادة الاوثان والاصنام واحلال محلها عبادة الاله الواحد وعقيدة التوحيد • وثانيا : ثورة على النظام الاجتماعي السائد غير العادل وتبديله بنظام تسوده مبادىء الحرية والعدالة الاجتماعية وكرامة الانسان • ثالثا : ثورة نفسية داخلية ضد سلطة النفس الامارة بالسوء بترويضها وردها عن هواها وتغليب النفس اللوامة التي تحاسب وتراقب طموح النفس الامارة بالسوء وذلك بتكوين الضمير الحي ــ الضمير الاجتماعي ــ الذي يدعو الى العمل الصالح والقول الحسن والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزود بالتقوى ــ « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » •

يقول الدكتور فتح الله خليف[٩] : وعلى ذلك يكون الاغتراب بالمعنى الاسلامي اغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة ٠٠٠٠ فالغرباء قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة ايجابية سلبية ، فقهروا السلطتين جميعا سلطة الحاكم وسلطة النفس بترويضها على الطاعات والمجاهدات واعتزالهم عن الناس ٠ فحل النظام الروحي الداخلي الذي يشيع في النفس الشعور بالامن والامان محل النظام السياسي الخارجي ٠

وقد عبر الرسول الاعظم عن فلسفة الاغتراب في الحديث الشريف « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » ٠ والغرباء هم الذين يصلحون اذا الناس بغوا وفسدوا ويبتغون الايمان والتقوى ٠ ويدعو الرسول (صلى الله عليه وسلم) الناس الى العيش في هذه الدنيا الفانية كالغرباء ولقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير الى الاغتراب باكثر من صيغة لا كلفظ بل كفكرة منها : الاعتزال ٠٠٠ [واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي عسى ألا اكون بدعاء ربي شقيا فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب، وكلا جعلنا نبيا] (الاية ٤٨–٤٩ مريم) ٠

كما وردت بصيغة الخروج الطوعي او القسري ، الفردي أو الجماعي التي تعني الهجرة والاغتراب الذي لا يعادله الا قتل النفس ولا يوازيه الا القتال في سبيل الله كما جاء في الاية ٢٤٦ من سورة البقرة [وما لنا الا نقاتل في سبيل الله ، وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين] ومن قوله تعالى في آيات أخرى منها [فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب]

---

(٩) الدكتور فتح‌الله خليف « الاغتراب في الاسلام » مجلة عالم الفكر – وزارة الاعلام في الكويت أبريل ١٩٧٨ ص٨٨ ٠

(آل عمران ١٩٥) ، [أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله] (سورة الحج ٣٩ و ٤٠) وقوله تعالى [للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون] (الحشر ٨) .

كما جاء ذكر الاغتراب كفكرة في آيات متعددة لا مجال الذكر نصها بل نكتفي بالاشارة اليها (البقرة ٢١٨ ، آل عمران ١٩٥ ، الانفال ٧٢ و ٧٥ ، التوبة ٢٠ و١١٠ و١١٧ ، والحج ٥٨ ، والنور ٢٢ ، والعنكبوت ١٦ ، والممتحنة ١٠ ، والاحزاب ٦) .

وهناك آيات قرآنية(١٠) عبرت عن الاغتراب من خلق آدم عليه السلام كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية ٣٥ و ٣٦ : [وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين] .

فخروج آدم مضطرا ومجبرا من الجنة وهبوطه الى الارض بسبب عصيانه أوامر الله واتباع هواه وغواية الشيطان ، أول اغتراب عرفه الانسان .

ومنذ هبوط آدم على الارض الواسعة وهو في اغتراب يعاني حالات الخوف والحزن والاسى لشعوره بالذنب والخطيئة ــ وقد وعد الله كخالق مخلوقه الانسان بالغفران والرجوع اليه في حالة اطاعة اوامره والنهي عن منكراته [فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم] (البقرة ٣٧) [فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون] (البقرة ٣٨) .

---

(١٠) الدكتور فايز محمد مصطفى الحديدي مظاهر الاغتراب وعوامله لدى طلبة الجامعة الاردنية ص ٣ . رسالة دكتوراه من جامعة عين شمس غير منشورة .

ان شعور الانسان المسلم بالامن والأمان والتغلب على حالات الاغتراب وما يصاحبه من اضطرابات نفسية وقلق واكتئاب ليس بالامر الهين اليسير . انه حصيلة مجاهدة ومعاناة وامتحان عسير بل صراع حاد مستمر بين متطلبات النفس البشرية الأمارة بالسوء والنفس اللوامة التي تحاسب وتراقب اقوال الانسان . ان فوز الانسان المسلم وحصوله على التوبة والغفران لا يتأتى الا بتغليب النفس اللوامة وسيطرتها على النفس الامارة بالسوء وردعها عن هواها وغيها . لقد هدى الله الانسان النجدين والسبيلين : سبيل الخير والرشاد في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل الصالح ، وسبيل الشر في اتباع الهوى وغواية الشيطان . فمن يجعل الاهه هواه ليس كمن يجعل ربه الواحد الاحد ... وهكذا كانت النفس البشرية بطبيعتها تتمثل فيها بذور التوبة والتقوى وبذور الفجوة والعصيان [ونفس ما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها] ، [وانا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا] .

« وفي الاسلام ثلاثة مستويات ودرجات[11] من التقوى هي : المسلم والمؤمن والعالم وهذه المستويات والدرجات الثلاث تقابلها ثلاث درجات من الاغتراب .

الدرجة الاولى : اغتراب المسلم بين غير المسلمين من الناس .

الدرجة الثانية : اغتراب المؤمن بين المسلمين .

الدرجة الثالثة : اغتراب العالم بين المؤمنين .

فغربة العلماء هي اشد انواع الاغتراب لقلتهم بين الناس وقلة مشاركة الناس لهم كما جاء في قوله تعالى [يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات] .

---

(11) فتح‌الله خليف « الاغتراب في الاسلام » المصدر السابق ص٩٢-٩٤ .

فقلة المسلمين وأنفرادهم بين الناس باذعان والانقياد سموا غرباء ، ولقلة المؤمنين بين المسلمين وانفرادهم بالتصديق الصحيح سموا غرباء ، ولقلة العلماء بين المؤمنين وانفرادهم بأعمال الفكر والعقل للحكم على صحة الاسلام وصحة الايمان سموا غرباء » .

ولذلك يعرف الهروي الانصاري في كتابه (منازل السائرين) « بأن الاغتراب يشار به الى الانفراد على الاكفاء . فكل من انفرد بوصف شريف دون ابناء جنسه فانه غريب بينهم والانفراد اما ان يكون بالجسم او بالفعل او بالهمة .

اما الانفراد بالجسم فهو الاغتراب عن الوطن ... وغربة الافعال فهي غربة اهل الصلاح والتقوى بين اهل الفسق والفجور وغربة الصديقين بين المنافقين ... وأما غربة الهمة .. فهي غربة طلب الحق وغربة العارف هي غربة الغربة لانه غريب الدنيا والاخرة ... وهذه هي الغربة الباطنة ، وهي غربة الصوفية اصحاب المعرفة الذوقية .

وفي هجرة الاوطان والحنين اليها

يقول الجاحظ[١٢] في رسائله ولو جمعنا أخبار العرب وأشعارها في الاغتراب لطال اقتصاصه ولكن توخينا تدوين أحسن ما نسخ من أخبارهم واشعارهم .

فالرسول العظيم صلى الله عليه وسلم يرى ان حب الوطن من الايمان والدفاع عنه واجب مقدس ودعا الى القتال في سبيله كما جاء في الحديث الشريف ما معناه يقاتل المرء دفاعا عن حياته وماله وعرضه ووطنه .

والرسول العظيم عندما اضطرته الظروف القاسية في مكة المكرمة موطنه الاصلي هاجر الى المدينة المنورة فقال : والله انك لاحبُ ارض الله اليَّ ولولا

(١٢) رسائل الجاحظ : الحنين الى الاوطان والبلدان الجزء الثاني ، رسالة (٧) — تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون — الجزء الرابع — مكتبة الخانجي — مصر ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٢٨٠–٤١٢ .

ان قومك اخرجوني منك ما خرجت • وفي السيرة النبوية نجد دعوة الرسول العظيم لبلال وابي بكر الصديق ان يحبب الله لهم المدينة المنورة الوطن البديل لشدة حنينهم الى مكة المكرمة موطنهم الاصلي •

« وقالت العرب :

كل غريب سوف يمسي بذلة ... اذا بان عن اوطانه وجفا الاهلا
ألا ليت شعري والحوادث جمة ... متى تجمع الايام يوما لنا شملا

وقال ابو تمام (الطائي) في حب الوطن والحنين اليه :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يألفه الفتى ... وحنينه ابدا لاول منزل

نعم الغربة كربة حتى ولو توفر المال والغنى • والغبطة بالنسبة للعربي هي الكفاية مع لزوم الاوطان والجلوس مع الاخوان • والذلة هي التنقل في البلدان والتنحي عن الاوطان • والله يعمر البلدان بحب الاوطان كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه •

وقالت العرب اذا كنت في غير اهلك فلا تَنْسَ نصيبك من الذل •

والاعراب مع فاقتهم وشدة فقرهم يحنون الى اوطانهم ويقنعون بتربهم ومحالهم فيرون ان العسر في الدار اعز من السير في الغربة ، والناس باوطانهم امتع منهم بارزاقهم • لقرب الدار في الاقتار خير من العيش الموسع في الاغتراب » •

وقالت اعرابية : اذا كنت في غير اهلك فلا تنس نصيبك من الذل ، وكما قال الشاعر :

لا ترغبوا اخوتي في غربة ابدا ... ان الغريب ذليل حيثما كانا

وكانت العرب اذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملا وعفرا تستنشقه عند نزلة او زكام او صداع • وكان العربي اذا ذكرت التربة والوطن حن اليهما حنين الابل الى اعطانها :

اذا ما ذكرت الثرى فاضت مدامعي وأضحى فؤادي نهبة للهمائم

وانشد أبو النصر لاسدي :

أحب الارض تسكنها سليمى وان كانت توارثها الجذوب
وما دهري بحب تراب ارض ولكن من يحل بها حبيب

وقال شاعر آخر في حب تربة الوطن :

سقى الله أرض العاشقين بعيشة وردّ الى الاوطان كل غريب

كل هذه الاحاديث والامثلة والاشعار والاقوال تؤكد ان الاغتراب هو في ترك الوطن الاصلي وما فيه من ذكريات الطفولة والصبا الى مكان آخر جديد ومجتمع غريب يتطلب ملاءمة وتكيفا للبيئة الطبيعية والاجتماعية •

فحبب اوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذالكا

وفي الاثر ان فطره الرجل معجونة بحب الوطن والحنين اليه فالنفس الى مسقط رأسها تواقة والى مولدها مشتاقة •

اذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعي واضحى فؤادي نهبة للهمائم
حنينا الى أرض بها أخضر شاربي وحلت بها عني عقود التمائم

ان ما جاء في التراث العربي ـ الاسلامي من تأكيد ان حب الوطن من الايمان وان الاغتراب عن ديار الوطن واهله لا يعادله ولا يساويه الا قتل النفس ، كما في قوله تعالى [ولو إنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم] ، إلا ان هناك وجها آخر محببا للاغتراب

في الدعوة الى السفر والانتقال بل الهجرة في طلب الرزق والتعيش ، فلا بد من صنعاء ولو طال السفر • وقوله تعالى [ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها] وقوله [فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه] •

كما حث الاسلام على طلب العلم والتغرب من اجل الحصول عليه كما جاء في الحديث الشريف : (أطلبوا العلم ولو في الصين) •

وفي التراث العربي ــ الاسلامي تأكيد اهمية السفر ودعوى صريحة للحث عليه ففيه خمس فوائد : تفريج هم واكتساب معيشة وعلم واداب وصحبة ماجد •

وكما قال الشافعي رحمه الله :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه وانصب فانلذيذ العيش فيالنصب
اني رأيت وقوف الماء يفسده ان ساب طاب وان لم يجر لم يطب

والهجرة والتغرب بالانتقال من الوطن الاصلي الى وطن آخر امر مشروع عند غياب الحرية وانتشار الظلم وكثرة المضايقات والويلات والاضطهادات مما ادى الى اصابة النفس بالعذابات والاضطربات كما جاء في قول الشاعر :

تركت موطن آبائي على مضض مما تجرعت من هم وويلات

وقال شاعر آخر :

اذا لم يعش حرا بموطنه الفتى فسمي الفتى ميتا وموطنه قبرا

ولابن الوردي قصيدة فيها دعوة للتنقل والاغتراب عند الضرورة كما جاء في قوله :

دارِ جار السوء بالصبر وان لم تجد صبرا فما احلى النقل
حبك الاوطان عجز ظاهر فاغترب تلق عن الاهل البدل

فمكوث المـاء يبقى آسنـا وسرى البدر به البدر اكتمـل

وقال الطغرائي : فيم الاقامة في الـزوراء لا سكني فيها ولا ناقتي فيهـا ولا جملي •

وفي قوله تعالى [ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها] •

والاغتراب الذي حببه الاسلام وحث عليه ليس في طلب العلـم ولا في طلب العيش وطلب الحرية فحسب بـل في الدعوة الصريحة في حث المسلمـين على الاغتـراب في الزواج والمصاهرة وعـدم التقيد في الزواج من الاقـارب وابناء العشيرة ، كما جـاء في الحديث الشريف للرسـول الاعظم : اغتربـوا لئلا تضووا » •

ثالثا : الاغتراب في العصر الحديث :

لقد مر الوطن العربي من حيث سوء الاحوال ومرارة العيش في عهـدين هما عهد الحكم الاجنبي وعهد ما يسمى بالحكم الوطني • وقد لاقت الشعوب العربية خلال هذين العهدين مع الفارق في الدرجة لا في النوع صنوف الظلم والتعسف والاستغلال في الحكم والتجزئة الجغرافية والتفرقة الطائفية ، بحيث اصبح المخلصـون الواعون يشـعرون بانهم غربـاء في اوطانهـم ولسـان حالهم يقول :

ولكـن الفتى العـربي فيهـا غريب الوجـه واليد واللسان

واي اغتـراب فوق غربتنـا التي لها اضحت الاعداء فينـا تحكم

وقد زعموا ان الغريب اذا نـأى وشطت به اوطانـه ليس ينعـم

لقد اضطرت هذه الاحوال بعضهم الى الهجرة والتغرب • وكانت اكثـر هذه الهجرات الاغترابية خلال النصف الاول من القرن العشرين تتجه الـى

بلاد الامريكيتين ـ بلاد ما يسمى بارض الحرية والاماني العريضة وكان مصدر الهجرات بلاد الشام ـ سوريا ولبنان بحكم موقعها الجغرافي على طرق المواصلات البحرية وحب اهلها للمجازفة • اما الهجرات التي مصدرها شمال افريقيا فكانت تتجه الى اوربا ولاسيما فرنسا •

« لقد[١٣] كانت في نيه بعض المغتربين الى امريكا العودة الى الوطن الاصلي بعد جمع بعض الثروة ولذلك بقي الحنين الى الوطن الام غالبا على شعورهم واحاسيسهم • ولنسمع شفيق معلوف الذي رحل من بلدته زحلة ـ من بلاد الشام الى امريكا وهو يقول :

ودعي واديا وشبابا ان في ذمة الزمان الايابا
وطني موطن الغريب ولا املك منه حتى الحصا والترابا
وردة في فمي الدخيل فما يممت وردا الا وجدت سرابا
بلد تآلف الصوادح فيه ان يساكن في الخراب الغرابا

كما جسد هذا الشعور الشاعر عقل الجر بقوله :

وخير مغانم الدنيا غريب يتاح له الى الاوطان عود

واذا كانت الدنيا قد اقبلت على بعض المهاجرين لما اصابهم من الثروة والجاه والسلطة ، الا انها ادبرت وضاقت اسباب العيش والحياة ببعضهم الاخر •

فها هو الياس فرحات يعبر عن ما اصاب بعض المغربين من خيبة الامل ومرارة العيش فيقول :

مرت ليالي الانس والصفاء وانقلب السعد الى شقا

---

(١٣) عمر الدقاق : مأساة الاغتراب في شعر المهجر ، التربية ، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم العدد ١٢٥ السنة ٢٧ يونيو ١٩٩٨ ص ١٦٥ـ١٦٨ •

ويقول الشاعر القروي وهو يعبر غابات الامازون في البرازيل .

نبيت باكواخ خلت من اناسها وقام عليها البوم يبكي وينعب
فنمسي وفي اجفاننا الشوق للكرى ونضحي وجمر السهر فيهن يلهب
ونشرب مما تشرب الخيل تارة وطورا تعاف الخيل ما نحن نشرب

ويعبّر القروي عن معاناته في غربته من اجل لقمة العيش فيقول :

اصطاد اطيار السعادة وهي من وجهي تفر

ويقول نصر سمعان :

اسعى وراء الرزق مجتهدا والدهر في الحرمان يجتهد

ويقول زكي فيصل :

ضعنا وضيعنا هويتنا يا قلب شكوانا الى الشعر
يا صاحبي متنا بغربتنا ما الفرق بين الموت والهجر
ليت الشراع اضاع دفته يوم النوى والريح لم تجر

ويقول عبدالله صالح :

غدا الرحيل الى الديار الغربة فتجلدي اماه يوم الفرقة
ان انسى لم انسَ المدى وطنا غلا عندي كاثمن درة
اما اذا طال الفراق فلم اعد فاظل اذكره ليوم منيتي

اما الشاعر رشيد القروي فقد عبر عن مأساة المغتربين في مخاطبته البقرة السارحة في البراري حاسدا تلك البهيمة بقوله :

طوباك سارحة في القفر طوباك ان كنت احسد مخلوقا فأياك

وهذه صورة جسدت قول ابي العلاء المعري في قوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

كما عبر الشاعر ميخائيل نعيمـــة عن فقدان الهوية بالنسبة للمغتربـين قوله مخاطبا اخاه المهاجر المغترب

أخي من نحن ؟ لا وطن ولا اهل ولا جار ولا دار اذا قمنا ، اذا نمنـا ، ردانا الخزي والعار

لقد خمت بنا الدنيا ، كمـا خمـت بموتانـا

فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقا آخر نواري فيه احيانا

اخي ان عاد بعد الحرب جندي لأوطانه

ويبني بعد طول الهجر كوخا هدّه المدفع

لقد عاش المغتربون في امريكا صراعات مريرة وتناقضات حادة تجلت في الانفعالات الكامنة في النفس عبر عنها ايليا ابو ماضي بقوله :

انني أشهد في نفسي صراعا وعراكا

وارى ذاتي شيطانا واحيانا ملاكا

هل أنا شخصان يأبى ذاك مع هذا اشتراكا

أم تراني واهما فيما اراه

لست ادري !

وقد لخص الدكتور عمر الداقوق[١٤] صورة الاغتراب بقوله : « غدت صورة الاغتراب متجهمة الملامح قائمة الظلال وكنا نعهدها قبل الهجرة مشرقـة القسمات زاهية الالوان . لقد غاض فيها ماء الامل ونضب معين التفـاؤل وخمدت جذوة الحماسة »

الى هنا بانت وتوضحت مأساة المغتربين المهاجرين العرب الى الخـارج

---

(١٤) الدكتور عمر الداقوق ، المصدر السابق ص١٨ .

الذي بلغ عددهم اكثر من اثني عشر مليون عربي[١٥] سنة ١٩٩٦ • ولعل هؤلاء المغتربين مضطرون الى دفع ثمن ضياع الهوية الثقافية وفقدان الذات والوحدة النفسية الذي لا يعادله شيء كما عبروا عنه في اشعارهم •

أما المغتربون في اوطانهم ممن لا حول لهم ولا قوة والشاعرون بالمصلحة العامة ـ المصلحة القومية ـ فقد عبروا عن اغترابهم بالرفض والاحتجاج على الاوضاع المتردية • وكانت من نتائج نضالهم المتمثل بالمظاهرات الاحتجاجية والانتفاضات الشعبية والانقلابات العسكرية لتغيير انظمة الحكم وقياداتها في كثير من الاقطار العربية ولكن من المؤسف حقا ان المكاسب الشعبية لم تكن بمستوى التضحيات الجسيمة التي قدمتها الشعوب العربية فقد ترسخت القطرية والولاء القطري بدل الولاء القومي واستبد الحكام الجدد واستفردوا بالسلطة بدل القيادة الجماعية والمشاركة الشعبية وساد التخلف الاجتماعي :

فالاميون ازداد عددهم وانتشر المرض وعم الفقر الجماهير العربية •

والسؤال الذي يطرح نفسه لتحقق الدراسة اهم اهدافها • اين موقع المثقفين العرب واصحاب الكفاءات في مثل هذه المجتمعات العربية وما دورها في الحكم ؟

انه من الممكن تصنيف المثقفين العرب واصحاب الكفاءات العالية من ذوي التخصصات في العلوم الصرفة والتطبيقية والانسانية والادبية الى ثلاثة اصناف :

١ ـ الصنف الاول ممن استطاعت الدولة ان تكسبهم وتضمهم الى معسكرها بتولي بعض المراكز القيادية ومنحهم بعض الامتيازات • لقد جعلتهم الدولة من رجالاتها ممن تستعين بهم في تحمل بعض المسؤوليات في تنفيذ خططها وسياساتها • ان هذا النوع من المثقفين ما يطلق عليهم وعاظ السلاطين كما عبر عنهم المرحوم الدكتور علي الوردي •

---

(١٥) محمود الخطيب العرب المهاجرون ورحلة الضياع في بلاد الغرب ، مجلة المجتمع الكويتي العدد ١٢٦٣ في ١٩٩٧/٨/٩ .

٢ ـ الصنف الثاني ممن عزلتهم الدولة واعتبرتهم في المعسكر المضاد والمناهض للحكم • وهؤلاء يلاقون من السلطة الحاكمة واجهزتها الامنية اصناف العقوبات والعذاب من قطع الارزاق وصعوبة التعيين في الوظائف الحكومية ، والفصل بالنسبة للموظفين او السجون والتشريد والتعذيب ••• وقد ينتهي بالتصفية وقطع الاعناق •

٣ ـ الصنف الثالث ممن استطاع الهجرة والاغتراب الى الخارج بطريقة شرعية او غير شرعية • وهذا الصنف ما يهمنا في الدراسة •

ان المجتمعات العربية وانظمتها الحاكمة وبدرجات متفاوتة كانت ولا تزال تعاني من ظاهرة الاغتراب السلبي المدمرة المتمثلة بهجرة اصحاب الكفاءات العالية والتخصصات في العلوم الصرفة والتطبيقية (وخاصة الطب والهندسة) والانسانية والاداب والفنون الى الاقطار الاجنبية ـ امريكا وانجلترا وبلاد اوربا ونيوزلندا واستراليا وماليزيا •• وغيرها للاقامة الدائمة والتجنس بجنسية البلد المهاجر اليها •

ان في هجرة هؤلاء الصنف من اصحاب الكفاءات العالية ـ العلمية والفنية ـ يعد خسارة قومية فادحة وخطرا على خطط التنمية ومسيرة التقدم الحضاري في الاقطار العربية لان هؤلاء المتخصصين من اصحاب الكفاءات المؤهلة هم عماد المجتمع وأهم عنصر فعال في بناءه والنهوض به ، فلولا العلماء لاصبح الناس كالبهائم كما يقول الامام ابو حامد الغزالي :

فالبيت لا يبتنى الا له عمدٌ ولا عماد اذا لم ترس اوتاد

ان اتخاذ قرار بالاغتراب وهجر الاوطان الاصلية الى بلاد الغربة ـ البلاد الاجنبية ـ امر في غاية الصعوبة بل مخاطرة في المستقبل ومجازفة في تقرير المصير وخسارة لفقد الذات والانسلاخ منها وضياع الهوية الثقافية وقد يتهم المغترب ويوصف بعدم الولاء للوطن والاعراض عن محبته التي هي منة من المولى • وقد عبر رفاعة الطهطاوي عن هذا الموقف بقوله :

من اصل الفطرة للفطن بعد المولى حب الوطن
هو من الوهاب بها فالحمد لوهاب المنن

ان الموضوعية تدعونا الى ضرورة التعرف ــ بصورة مجملة ــ على الاسباب الداعية الى اغتراب الصفوة من العلماء والنخبة من المثقفين من اصحاب الكفاءات والتأهيل وترك اوطانهم الاصلية التي هي بامس الحاجة الى خدماتهم وخبراتهم في عصر تتعرض فيه الهوية القومية وذاتية الامة الى الخطر بعد ثورة المعلومات وهيمنة سياسة العولمة التي تحاول ان تلغي الحواجز التجارية والثقافية بين الامم لسيطرة القوي على الضعيف .

اننا اذ نتناول الاسباب الموضوعية والذاتية لظاهرة الاغتراب بين المثقفين العرب لا لتبرير مواقف المغتربين في اتخاذ قرارهم في الاغتراب بل لاظهار الحقيقة ودق ناقوس الخطر لايقاف هذه الظاهرة وتجنب تداعياتها والسعي لاستجلاب المغتربين للعودة الى الوطن الام .

فالاسباب الداعية للاغتراب متعددة ومتنوعة وتختلف من فرد الى فرد ومن قطر الى آخر ، الا ان من الممكن ان نجد قواسم مشتركة للاسباب يمكن ان نجملها في عوامل ثلاثة هي :

١ ــ العامل المتعلق بالوطن الاصلي أن بعض الاقطار العربية تعيش ازمة سياسية اقتصادية اجتماعية تتمثل بغياب الديمقراطية في الحكم والمعاملات وكبت الحريات المدنية والفكرية ، وغياب العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات ، وضعف الشعور بالانتماء والولاء للوطن واهمال المثقفين في المشاركة او الاستشارة في اتخاذ القرارات التي تهمهم وتحدد مصيرهم ومستقبل امتهم .

٢ ــ العامل المتعلق بالبلد البديل في الغربة فمما لا شك فيه ان الغرب ينعم ويتمتع بحضارة مادية متقدمة ــ علما وتقانة ــ وهذه الحضارة الغربية المتقدمة وما افرزته من اسباب العيش المرفه فيه من الاغراء والدافعية والحوافز المادية والمعنوية ما دعا الكثير من علماء العرب ومثقفيهم الى الاغتراب لاستبدال نمط من الحياة التي لا تتوفر فيها اسباب العيش

والجو العلمي الجيد الى نمط من الحياة احسن واكثر تقدما من الناحية المعاشية والعلمية •

٣ ـ اما العامل الثالث فهو العامل الذاتي المتعلق بشخصية المغترب وحالته النفسية • فكما هو معروف ان مستويات حاجات الانسان ثلاثة ـ البيولوجية ، والاجتماعية ، والنفسية • فكلما ارتقى الانسان في سلم الثقافة والتقدم العلمي ازداد طموحه في العمل لتلبية هذه الحاجات الثلاث •

والعلماء والمثقفون من اصحاب الكفاءات العالية عندهم من الوعي والشعور باهمية هذه الحاجات وضرورة اشباعها • اكثر من غيرهم من المواطنين الاخرين ان التقصير في الاستجابة لهذه الحاجات الثلاث بالنسبة لهذا الصنف من الناس خطر على الصحة العامة واختلال بالصحة النفسية وما يصاحبها من اضطرابات وتوترات واحباطات •

فكيف يكون الموقف اذا ما وجد المثقف العربي نفسه عاجزا عن تلبية الحد الادنى من متطلبات الحاجات الضرورية للحياة لقلة الموارد المالية وضعف المرتب غير الكافي للعيش المحترم ؟

كيف يمكن ان ينتقل الى المرحلة الثانية في سلم هرم الحاجات ويستجيب للحاجات الاجتماعية والنفسية ليشعر بالامن والامان والانتماء الاجتماعي والولاء الوطني ويحقق ذاته ويشعر بآدميته وانسانيته ويأخذ دوره الفعال في المجتمع ونهضة الامة ؟

الجواب عن هذين السؤالين ليس باليسير لاننا وضعنا المثقف في حالة حيرة وصراع حاد بين خيارين الواحد اسوأ من الاخر •

الخيار الاول هو خيار الغربة في موطنه الاصلي والاغتراب عن النظام الاجتماعي وقيمه السائدة وما يصاحب ذلك من كآبة وهم وقلق على حاضره ومستقبله • انه موقف العاجز المسالم للظروف والسائر في ركاب السلطة ونظامها الاجتماعي وقد يكون غير صادق في موقفه ولكن لا حول لله ولا قوة•

وقد يكون موقف المغترب المثقف في وطنه الرفض وعدم التعاون مع السلطة ونظامها الاجتماعي مما يعرضه للاخطار والحرمان .

اما الخيار الثاني فهو الغربة والاغتراب الى بلد بديل مجهول يدرك المثقف العربي بان من متطلبات هذا الاغتراب التنازل تدريجيا عن اتمائه الوطني وعن هويته الثقافية مما قد يؤدي الى طمس الماضي وذكرياته لينال قبولا من المجتمع الجديد الذي يتطلب فضلا عن المؤهلات العلمية والعمر المناسب قدرة كافية من الذكاء للتكيف مع متطلبات الحياة الجديدة وقيم الحضارة الغربية ، وهذا ليس بالامر اليسير على المثقف العربي ـ انها مجازفة مجهولة المصير !

السؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا التحليل ، هل نجعل الامور تسير على طبيعتها ونقر بالامر الواقع ، وانه ليس بالامكان احسن مما كان ؟

الجواب بكل صراحة بالنفي . اذن ما العمل ؟

وما موقفنا من اصحاب القرار السياسي وصانعيه في الحكومات العربية ؟

ليس بوسعنا الا ان ننبه وندق ناقوس الخطر لاستيقاظ الضمائر وندعو القيادات السياسية في الاقطار العربية الى ضرورة السعي الجاد لمعالجة اسباب الاغتراب .. تلك الاسباب التي ولدت المشكلة وجعلت ظاهرة الاغتراب منتشرة ، والا ستكون العواقب وخيمة وغير مضمونة النتائج على مستقبل الامة العربية وعلى حكومات اقطارها المجزئة .

وقد تأتي في المقدمة معالجة الظروف الاقتصادية وتوفير الاجواء العلمية واشاعة روح الحرية والعدل والمساواة بين جميع المواطنين بغض النظر عن توجهاتهم السياسية وانتماءاتهم الحزبية والدينية والمذهبية المختلفة في الوطن الواحد والامة الواحدة .

ولعل في زيادة الراتب ورفع المكافئة المالية لاصحاب الكفاءات العالية لكي يعيش المثقف العربي واسرته عيشة محترمة تناسب مقامه ومستواه العلمي خطوة حميدة في طريق المعالجة العقلانية والواقعية • كما ان المميزين من العلماء والمفكرين ينبغي مجازاتهم ومكافأتهم بسخاء لتشجيعهم على المزيد من العطاء العلمي والانتاج المبدع مما يتطلب الاخذ بنظام الحوافز المادية والمعنوية هذا فضلا عن ضرورة توفير الاجواء العلمية المشجعة للانتاج والابداع من حرية فكرية ومختبرات فنية واجهزة علمية كالحاسوب وشبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) ومصادرعلمية حديثة وامهات الكتب والمراجع مما يشجع العالم على البحث والاستقصاء والحصول على الشهرة العلمية على المستوى العربي والعالمي وبالتالي تشجيعه على البقاء والاستقرار في بلده الاصلي وعدم الالتفات الى مغريات البلاد الاجنبية باعتبارها مراكز اجتذاب وملاذا للهرب والاغتراب •

ان تشجيع التبادل الثقافي والعلمي بين اساتذة الجامعات العربية والعلماء في مؤسسات البحوث العلمية المتنوعة في الاقطار العربية ودعم مؤسسات البحوث العلمية العربية والمنظمات العربية ما ندعو الى المزيد منه • كما ان دعوتنا تنسحب الى ضرورة اقامة مؤتمرات على المستوى القطري والمستوى القومي لدراسة ظاهرة الاغتراب في الداخل والخارج ـ اسبابا وحلولا ـ وإلا فالموقف خطير والطوفان آت والمأساة قريبة الحصول • نسأل الله حسن العاقبة والهداية الى طريق الرشاد والله الموفق وانما الاعمال بالنيات والسلام •

- الشاووني (الدكتور) حبيب ، الاغتراب في الذات ، عالم الفكر ، وزارة الاعلام في الكويت ، ابريل ١٩٧٩ ص٦٩-٨٣ .
- خليف (الدكتور) فتح‌الله ، الاغتراب في الاسلام ، عالم الفكر ، وزارة الاعلام في الكويت ابريل ١٩٧٩ ص ٨٣-٩٢ .
- حنفي (الدكتور) وزملاؤه ، ندوة حول مشكلة الاغتراب ، عالم الفكر ، وزارة الاعلام في الكويت ، اكتوبر ١٩٧٩ ص ١١٣ - ١٤٦ .
- فروم ، اريك : الانسان بين الجوهر والمظهر « نملك أو نكون » ترجمة سعد زهران ، عالم المعرفة عدد ١٤٠ الكويت ١٩٨٩ .
- الحديدي ، فايز محمد مصطفى : مظاهر الاغتراب وعوامله لدى طلبة الجامعة الاردنية ، دراسة ميدانية ، كلية التربية ، قسم اصول التربية ، جامعة عين شمس ، رسالة دكتوراه غير منشورة .
- محمد ، علي محمد وآخرون « المجتمع والثقافة والشخصية ، » مدخل الى علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٥ .
- بركات ، حليم : اغتراب المثقف العربي ، المستقبل العربي السنة الاولى عدد ٢ سنة ١٩٧٨ .
- بركات ، حليم : ندوة علمية حول الاغتراب ، مجلة العلوم الاجتماعية . جامعة الكويت العدد ٤ ، ١٩٨١ .
- الكندري ، جاسم يوسف : « المدرسة والاغتراب الاجتماعي : دراسة ميدانية لطالب التعليم الثانوي بدولة الكويت ، المجلة التربوية جامعة الكويت العدد السادس والاربعون ، المجلد الثاني عشر سنة ١٩٩٨ .
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : المعجم الوسيط الاساسي ، لاروس بيروت ١٩٨٩ .
- ندا أيمن منصور : الاغتراب الثقافي لدى الشباب العربي ، مجلة البحوث والدراسات العربية ، العدد ٢٩ يوليو ١٩٩٨ .

الربوطـات الصناعيـــة
INDUSTRIAL ROBOTS

الدكتور منذر نعمان بكر التكريتي
عضو المجمـع العلمي

الملخــص :

تقف البشرية على عتبة ثورة صناعية جديدة قد تساوي أو تفوق الثورة الصناعية الأولى . هذه الثورة الجديدة سيكون محورها الاساس الربـوط الصناعي الذي دخل الصناعة منذ وقت ليس بالقليـل . ولكـن التطورات الحديثة التي دخلت مجال الربوطيات ستجعلها تؤدي دورا متميزا في مجـال الصناعة المعاصرة . وهذه الورقة تعطي عرضا لتعـريف الربـوط ومميـزاته وتطبيقاته التقانية علاوة على تأثيره في مجتمع الغد .

كلمات مفتاحية :

الربـوط ، الربوطيـات ، مكائن قابلة للبرمجة ، تعددية الوظـائف ، مميزات ، تطبيقات ، تأثيرات اجتماعية .

١ ــ المقـدمـة :

ان استخدام الحاسوب في العمليات الصناعية والاستمرار المـذهل في انخفاض كلفة القدرة الحسابية بسبب انخفاض أسعار الحـواسيب يُعَد من الاحداث التاريخية التي ستعد في يوم ما من الاهمية بما يعدل أهميـة وقـع اختراع ماكنة بخار الماء واكتشاف الكهرباء . فالبشرية تقف على أبواب ثورة صناعية جديدة تساوي أو تفوق وقع الثورة الصناعية الاولى . اننـا نواجـه تغيرات جذرية تدفع بنا نحن البشر نحو عالم جديد .

ان الثورة الصناعية الاولى عوضت عن القدرات العضلية بالطاقة الميكانيكية لصناعة البضائع وانتاج الغذاء • وأدى هذا التعويض الى زيادة في الانتاجية ووضعت تلك الثورة الصناعية الاولى حدا للعبودية وحررت جماهير غفيرة من الفقر والجهل والجهاد المستمر • وستقوم الثورة القادمة بتعويض القدرة العقلية البشرية بالقدرات الحاسوبية للسيطرة على المكائن وعلى العمليات الصناعية وهذه الثورة سوف تعتمد على استخدام الربوطات بدل الايدي العاملة البشرية وسنرى هناك معامل ومكاتب وحقولا مُمكننة ومُسيطرا عليها ذاتيا وقابلة على انتاج المواد والبضائع مثل السيارات والآلات والادوات والاثاث والطعام ، وسنحصل على الانتاج بكميات كبيرة غير محددة وبكلف واطئة ومن دون التدخل المباشر للانسان •

ان كلمة الربوط (Robot) مشتقة من اللغة الجيكية وهي تعني العبد أو الخادم وكانت قد أُدخلت الى مجال الثقافة في عام ١٩٢٠ في مسرحية كارل كابيك (Karel Capek) التي تدور أحداثها حول ثورة الرجال الميكانيكين على أسيادهم البشر • أما مصطلح الربوطيات (Robotics) فقد وضعه كاتب الخيال القصصي اسحاق أسيموف (Isaac Asimof) في عام ١٩٤٢ • وفي الواقع ان دراسة علم الربوطات لم تأخذ مداها الحقيقي والجدي إلا خلال العقود الاربعة الاخيرة • فلقد انتقلت الربوطات من قصص الخيال الى مختبرات الجامعات ثم الى معامل الصناعة •

واليوم تطور علم الربوطات الى مجال يشمل خلفيات واسعة من المعرفة والابداع في الهندسة الميكانيكية والكهربائية وهندسة الحاسوب والجوانب الهندسية للصناعة والانتاج • وان الطلبة الذين يدرسون على الربوطات اليوم سيكونون خبراء الربوطات ومصمميها ومبرمجيها ومستخدميها ومعلميها في المستقبل القريب • وهؤلاء الطلبة سيكون لهم الدور الفاعل في دفع عجلة ثورة الربوطات وبأعلى مستوى • فالطلبة في اختصاصات واسعة من الهندسة

الى علم الاجتماع ستكون لهم الفرص سانحة للمساهمة في تطور أعظم ابداع الوسائل التي تؤدي العمل منذ ابتكار الحاسوب •

ان المصطلح العربي الشائع للربوط هو الانسان الآلي • هـذا المصطلح المكون من كلمتين متناقضتين بالمفهوم بعيدة بعض الشيء عن الوصف الحقيقي لما هو مقصود لوصف حالة للاسباب الآتية :

* الانسان المملوء بالاحاسيس والمشاعر لايمكن أن يستخدم لوصف الآلة الخالية من أي احساس أو مشاعر والانسان الذي خلقه الله سبحانه وتعالى ويمثل قمة الابداع والارادة الإلهية لا يمكن أن يستعار وصفه حتى ولو اصطلاحا لوصف شيء ابتدعه الانسان نفسه ، فالعلاقة هنا هي علاقة السيد والعبد ولا يتساوى الاثنان •
* ان تاريخ الربوط بدأ بالخيال العلمي الذي قدم الربوط على هيئة البشر وأعطى صورة في أذهان الناس على أن الربوط هو دوما على شكل الانسان ولهذا سمي الانسان الآلي • ولكن في الحقيقة أن غالبية الربوطات الصناعية في الوقت الحاضر ليس لها هيئة الانسان بل هي ذراع آلي مبرمج على ما سوف يتم شرحه لاحقا • وعليه لاينطبق وصف الانسان الآلي على الربوطات الحالية أو المستقبلية •
* أقر المجمع العلمي استخدام مصطلح ربوط وجمعها ربوطات ومجال التخصص الربوطيات • وذلك باستخدام أسلوب التعريب كما تم تعريب مصطلحات سابقة مثل الفيزياء والجغرافية التي أصلها أعجمي •

٢ ـ تعريف الربوط :

يبدو أنه من الصعب وضع تعريف عام للربوط قابل للاستعمال ومتفق عليه • وما يزيد في صعوبة وضع هذا التعريف التصورات المخطئة في أذهان الناس والنابعة من خلفية الربوط • والتي بدأت في مجال الخيال العلمي وكما أسلفنا في المقدمة • وفي الوقت نفسه بات من المهم جدا وضع مفاهيم مشتركة

لمصطلح الربوط لكي يتسنى دراسة واقع حال هذا التخصص المستقبلي المهم ووضع اسقاطات مستقبلية للامكانات المتوقعة اضافة الى مقارنة التطورات التي سوف يحرزها الكثير من المجتمعات الصناعية .

هناك الكثير من المكائن المكننة والتي تعمل ذاتيا ولكن بالمقابل لايمكن أن تعد من الربوطات ، فالربوطات هي أنواع خاصة من المكائن المكننة ذاتيا . وان الربوط الذي يقوم بمهمة معينة يمكن أن تعاد برمجته ويفود بعُدد مختلفة من الآلات لكي يؤدي وظائف مختلفة . لذا نجد ان امكان اعادة برمجة الربوط ومرونته العالية بالقيام بوظائف مختلفة هو الذي جعل الربوط يتميز تماما على المكائن المكننة ذاتيا .

اذن ما تعريف الربوط ؟ هناك تعريفات كثيرة للربوط في الادبيات ولكن التعريف المناسب[1] للربوط الصناعي هو : المتحكم الخبير (Manipulator) القابل للبرمجة المتكررة (Reprogrammable) ويقوم بالوظائف المتعددة (Multifunctional) والمصمم لتحريك المواد والقطع والعدد والآلات والمعدات المتخصصة وبحسب حركات مبرمجة لأداء مهام مختلفة .

ان صفة قابلية البرمجة المتكررة تعني أن الربوط ماكنة يمكن برمجتها مرات ومرات وبحسب الحاجة . وان الكثير من الاجهزة المنزلية والصناعية مبرمج على شكل برامج مخزونة على رقائق الكترونية وهذه البرامج محفورة على الرقيقة بالحرق الفني وعليه لايمكننا اعادة برمجتها . ولكن من جانب آخر فالربوط يحتوي على برامج قابلة للتغيير والاضافة والحذف بحسب الاستخدام . والربوط يحتوي العديد من البرامج للقيام بمهام مختلفة وبأي تسلسل وعلى هذا الاساس فالربوط لابد أن يكون له حاسوب يقوم بخزن البرامج والتعليمات والمعلومات ثم القيام بتنفيذها بحسب الحاجة . والحاسوب اما أن يكون ضمن منظومة الربوط أو أن يكون مرتبطا عن بعد بمنظومات اتصالات خاصة .

أما صفة تعددية الوظائف فهذه تعني مرونة الربوط في أداء الوظائف المختلفة • فالربوط الذي يقوم بالقطع الليزري هو نفسه يستطيع وبتغير بسيط لعُدته القيام بعمليات اللحيم والصبغ والتجميع • أما صفة امتلاك المتحكم الخبير فان هذا يعني أن الربوط له منظومة ميكانيكية ذات شكل خاص بحسب المتطلبات يقوم بتحريك الاجسام وأداء الشغل المطلوب منها• فهذا المتحكم الخبير هو الذي يميز الربوط عن الحاسوب • والصفة الاخيرة للربوط الحركات المبرمجة المختلفة التي تجعل الربوط منظومة دايناميكية أي أن الربوط يتميز بالفعاليات الانتاجية المستمرة • ومما سبق فان التعريف المطروح يعطي وصفا شاملا لواقع حال تقانة الربوطات وهو مقبول في معظم المجتمعات الصناعية •

وتتكون الربوطات الصناعية ، عموما ، من ثلاثة عناصر أساسية :ـ

أ ـ ذراع (Arm) أو أكثر مرتبط الى قاعدة ثابتة • وهذه الذراع لها القابلية على الحركة في مختلف الاتجاهات •

ب ـ المتحكم الخبير (Manipulator) وهو الجزء المشتغل من الربوط انه اليد التي تمسك بالعُدد أو الاجزاء المراد تشغيلها •

ج ـ المسيطر (Controller) وهو الذي يعطي ايعازات الحركات الدقيقة والمفصلة •

ويضيف المختصون في مجال الربوطيات امكانات اخرى غير متوفرة عموما في ربوطات اليوم والتي من المؤمل أن تتوفر في ربوطات المستقبل ذات الاستخدام الشامل • وهذه الامكانات الاضافية تشمل :ـ

أ ـ قابلية الحركة (Locomotion) أي امتلاك الربوط امكانات الحركة في ضمن حيز محدود ومعروف المواصفات •

ب ـ الادراك (Perception) وهذا يعني امتلاك الربوط امكانات تحسس واقع

البيئة المحيطة به عن طريق النظر واللمس او أي وسائل أخرى • ثم قيامه بفهم هذه البيئة مثل تمييز الحواجز التي تعترض طريقه اضافة الى امكان تمييز بعض الاشياء وتحديد مواقعها •

ج ـ قابليـة حـل المشكـلات التجريبيـة (Heuristic Problem - Solving) أي امتلاك القابلية على تخطيط وتوجيه أفعاله لتحقيق أهـداف عـالية المستوى من حيث المفهوم •

٣ ـ الخلفية التقانية للربوط :

ان دراسة تاريخ تطور تقانة الربوطات تشير الى وجود جذرين للخلفيـة التقانية للربـوط همـا :

أ ـ الهندسة الصناعية للتقانة المكننة ذاتيا وهذا التخصص يمتد تاريخيا مدة قرن منذ بدء الثورة الصناعية الحديثة •

ب ـ علوم الحاسوب وتقانة الذكاء الاصطناعي التي عمرها لا يتجاوز فعـلا عـددا من العقود •

ان الربوطات الصناعيـة الحديثة تعدّ امتدادا لتقانة خطـوط الانتـاج المكننة ذاتيا • وهذا النوع من التقانة لم يعتمد على استخدام الحواسيـب ولكن بالمقابل تقانة الالكترونيات الدقيقة رفدته بقابليات قوية أدت الى زيادة امكاناته • ومن المنظور العلمي الحديث تعد الربوطات مـن عائلـة المكـائن المسيطر عليها عدديا (Numerically Controlled Machine) ، ومن هذا المنظور فانه يمكن أن تعدّ تقانة الربوطات تقانة ناضجة سيكون لها التأثير المباشـر في الاقتصاد والايدي العاملة •

ان تقانة الحاسوب الحديثة ستوفر لربوط المستقبل قابليات ذكية مثـل الرؤية والحركة والادراك وفهم الايعازات المعطاة بلغات حاسوبيـة عاليـة أو لغات طبيعية • وهذه القابليات غير متوفرة تجاريا في الوقت الحاضر ولكن من المؤمل توفيرها خلال العقدين القادمين • وعليه ومن منظور المتخصصين فـي

مجال علوم الحاسوب فان تقانة الربوطات لاتزال في مرحلة الطفولة ويتوقعون من خلال البحوث الجادة والمعمقة انتاج ربوط ذكي له القابلية على الحركة الحرة في محيط غير معروف الابعاد والحدود وكذلك القيام بأعمال مختلفة تنفذ بحسب الايعازات وبأقل قدر من البرمجة والزمن •

٤ ـ مميزات الربوط :

ان الاسباب الاساسية لاستخدام الربوطات بدل المكائن الممكننة ذاتيا في انتاج البضائع والمواد تعود الى صفات الربوط الاساسية التي هي إمكان اعادة برمجة ومرونة الربوط في تعددية أدائه للوظائف • فالمرونة تنعكس على زيادة الانتاجية وتحسين نوعية الانتاج وتقليل كلفته • وان متطلبات حاجة السوق الى المنتوجات في تغير مستمر وان كلفة اعادة برمجة الربوط واعادة تجهيزه بالعدد والآلات اقل بكثير من كلفة اعادة تجهيز وتشغيل المكائن الممكننة ذاتيا • ومن جانب آخر فالربوطات تستطيع القيام بمهام وأعمال خطرة ومزعجة للبشر وعليه يمكن تجنب الاصابات الصناعية والتي هي أحد أسباب زيادة كلف الانتاج • أضف الى ذلك ان الربوطات تقوم بأداء المهمة نفسها وبالاسلوب نفسه وفي كل الاوقات مما يحافظ على مستوى نوعية الانتاج• وباستخدام الربوطات يمكن القيام بتوقعات دقيقة للانتاج وهذا ، من ثم ، يساعد على السيطرة الدقيقة على خزين الانتاج • والتميز الآخر للربوطات هو امكانها القيام بكميات قليلة من المنتوجات بحسب الطلب وهذا غير ممكن مع المكائن الممكننة ذاتيا المصممة لانتاج الكميات الكبيرة من البضائع ذات المواصفات الخاصة •

وهناك أسباب أخرى لاستخدام الربوطات ، فكلفة أجور الايدي العاملة البشرية في زيادة وبمعدلات مؤثرة وبالمقابل فان سرعة انتاج هذه الايدي البشرية لم تزدد • فأجور الايدي العاملة الان عالية جدا بحيث ان استخدام المكائن بدل الايدي العاملة البشرية يكون اكثر اقتصادا وفعالية • فعلى الرغم ان الكلف الابتدائية لشراء المكائن ونصبها عالية الا انها تزيد من الانتاجية

وذلك لسرعة عملها واشتغالها ساعات أطول في اليوم . والمكائن قد حسنت ظروف عمل الانسان لانها تقوم بدلا عنه بالاعمال الخطرة والمملة ذات الانماط التشغيلية الرتيبة . ومن جانب آخر فالمكائن ومن ضمنها الربوطات تقلل كلف الانتاج لانها تقلل من البضائع المرفوضة بسبب عيوب الانتاج والتي عادة ما تظهر في المنتوجات من صنع الانسان بسبب تعبه وملله . والربوطات حسنت الانتاجية في العديد من التطبيقات من معالجة المواد الخام الى صناعة السيارات اضافة الى عملها في المناطق المحظورة على البشر .

٥ ـ موقع الربوط ضمن المنظومة الصناعية :

يعدّ الخبراء الربوط واحدا من المكونات للمجموعة الكبيرة من الاجهزة المترابطة وأساليب العمل الفنية التي تكوّن القاعدة التقانية للمنظومة الصناعية . والاجهزة والعُدد الميكانيكية التي تقوم بمهمات تشبه تلك التي يقوم بها الربوط الحديث موجودة ومعروفة منذ قرون . والفارق الاساسي ان هذه الاجهزة والعُدد مصممة خاصة بمهام محددة ولكن بالمقابل وكما أسلفنا فالربوط مرن وقابل للبرمجة المتكررة بحسب طبيعة المهمة .كما يمكن نصبه في المواقع ذات الظروف والبيئة المتباينة . وهنا لابد من الموازنة بين دقة وكفاية الاجهزة والعُدد المتخصصة ومرونة الربوط .

ومن جانب آخر بما أن المكائن الصناعية ستكون جزءا من التصميم العام لمعمل المستقبل فعليه قد لايكون من المفيد تميّز الربوطات عن أنها تقانة قائمة بحد ذاتها . وان معمل المستقبل الممكنن ذاتيا قد يحتوي العناصر الآتية :

ا ـ منظومة التصميم بالحاسوب Computer Aided Design System (CAD)

وهو أسلوب يساعد المهندسين لتطوير منتوجات جديدة باستخدام الحاسوب ووسائل العرض الالكترونية المرتبطة به . والمعلومات الناتجة عن مراحل التصميم تخزن في قاعدة المعلومات التي تستخدمها الاقسام المحوسبة من المعمل .

ب ـ المكائن المسيطر عليها عدديا Numerically Controlled Machine Tools

هذه أجهزة ممكننة ذاتيا وتقوم بتصنيع عناصر المنتوج ونقلها وتجميعها بحسب ايعازات يتم توليدها من منظومة التصميم بالحاسوب.

ج ـ الربوطات : Robotics

وهي أيضا تعمل بحسب ايعازات يولدها الحاسوب اذ تقوم بنقل المواد من محطة الى أخرى . وتقوم بتشغيل عدد اللحيم ورش الصبغ ومهام اخرى متنوعة .

د ـ منظومة المعلومات المحوسبة : Computerized Information Systems

وهذه المنظومات تسيطر على الخزين وتتابع حركة المواد في المعمل . وكذلك تقوم بتشخيص الاعطال والمشكلات وقد تقوم بالمعالجة لها .

بحسب ما ذكر سابقا يمكن استنتاج وجود مسارين متوازيين لحركة استخدام الربوطات الصناعية :ـ

- الربوط من حيث هو منظومة منفصلة لذاتها لها استخدامات مختلفة في ظروف ومواقع متباينة .
- اندماج الربوطات ضمن معامل مستقبلية حديثة لها صفة المرونة الانتاجية .

٦ ـ تأثير الربوطات في المجتمع (٢ و ٣) :

عندما نتحدث عن تأثير الربوطات في المجتمع لابد أن يكون الحديث عن المجتمعات التي دخلت اليها ثورة الربوطات وهذه المجتمعات هي المجتمعات الرأسمالية الصناعية مثل ما حدث في اليابان والولايات المتحدة الامريكية وبعض الدول الصناعية الاوربية . هذه المجتمعات المبنية على الاسس والمفاهيم الرأسمالية تعتمد حياتها واقتصادها على الاستثمار المادي بكل وسائل الانتاج المختلفة مع الاعتماد الكلي على تقانات العصر لكي تكون هذه الوسائل

الانتاجية بكفاية عالية من الاداء الذي ينعكس ايجابيا على العملية الانتاجية فتحقق المردودات والارباح .

يبدو أن النظام الاجتماعي الاقتصادي لهذه المجتمعات غير مؤهل من حيث تركيب هذه المجتمعات لتقبل تطبيق ثورة الربوطات فيها . ففي هذه المجتمعات لاتوجد ميكانيكية سياسية مقبولة تؤمن للفرد الاعتيادي الاستفادة المباشرة من الامكانات الهائلة للجيل الجديد من التقانة الصناعية فتحت الانظمة الاقتصادية الحالية في هذه المجتمعات وفي ظل ثورة الربوط سيكون تراكيز الثروات والسيطرة عليها في أيدي عدد قليل من الناس . فعلى المدى البعيد ، ان دخول الربوطات الى مجال الصناعة وبثقل كبير سيهدد أعداد كبيرة جدا من الوظائف مما يؤدي إلى ظهور البطالة التي تؤثر في الاستقرارية المالية والاقتصادية للكثير من عوائل المجتمع . لان المشكلة الاساسية هي أن دخول معظم العوائل تتحقق في الاساس الاجور والرواتب . ان وسائل الانتاج التقانية المتطورة ستولد الثروات الكبيرة وبجهود بشرية قليلة جدا وربما من دون أي جهود بشرية . فالسؤال هو كيف يستطيع الناس الاعتياديون الحصول على الدخول الاضافية لكي يستطيعوا شراء ما ينتج ؟ ان نظام توزيع الدخل في المجتمعات الصناعية مبني على أساس العمالة وليس على أساس المخرجات الصناعية وهذا نفسه خلل يعمل سلبيا ضد السياسات التي تبتغي زيادة انتاجية المنظومة الصناعية .

وفي منظور آخر فان واقع توليد الوظائف والعمالة هو عملية التحول الى الاقتصاد المستند الى استخدام الربوطات وهو يعطي صورة متفائلة . فالربوطات يجب أن تصنع بأعداد هائلة لكي يكون وقعها الفاعل على المنظومة الصناعية الحالية وهذا بدوره يؤدي الى ظهور صناعات جديدة تحتاج الى ملايين من الوظائف الجديدة . وبحسب التوقعات المستقبلية سنحتاج الى سنوات أو ربما الى قرون قبل أن تصبح الربوطات قابلة لتصميم وصناعة وتسويق نفسها وبرمجة وصيانة نفسها ذاتيا ، وعليه وفي المستقبل القريب فان

صناعة الربوطات وتقديم الخدمات لها سيفتحان سوقا واسعة للعمالة ولا سيما للمهندسين والفنيين والميكانيكيين ومبرمجي ومهندسي الحواسيب ومهندسي الالكترونيات والعمال الذين ينصبون ويقومون بصيانة الربوطات• وان شركات الربوطات ستحتاج الى اداريين من مديري مكاتب وسكرتارية وموظفي تسويق ومحاسبين ماليين • ومن المحتمل أن صناعة الربوطات ستقوم بتشغيل أيد عاملة تساوي أو تفوق الايدي العاملة في صناعة الحواسيب في يومنا هذا •

ان تحويل معدات الصناعة في العالم من معدات يدوية الى معدات ربوطية سوف يحتاج الى زمن قد يصل الى عدد من العقود وسيكلف، ما يساوي الثورة الصناعية في العالم • هذا التحول الجبار سيوفر ملايين من فرص العمل وجميع أنواع الوظائف ولعدد من الاجيال • وان الدول الصناعية المتقدمة والتي لها قاعدة تقانية قوية تحتاج الى وظائف لانتاج الربوطات تساوي ضعف عدد الوظائف المفقودة بسبب استخدام تقانة الربوطات ومن جانب آخر ان تصدير الربوطات من هذه الدول المتقدمة صناعيا سيكون له تأثير ايجابي في ميزانيات تلك الدول •

وفي ظل ثورة الربوطات لتقليل البطالة يمكن توزيع فرص العمل على الناس وذلك بتقليل عدد ساعات العمل في الاسبوع الى عشرين ساعة أو حتى عشر ساعات • وهذا يساعد على زيادة التمتع بالعطل والتعلم والتدريب في الكبر وهذا يؤدي الى رفع نوعبة الحياة وزيادة الاستمتاع بها •

٧ ـ تطبيقات الربوط :

يمكن تقسيم تطبيقات واستخدامات الربوط على قسمين هما :ـ

أ ـ التطبيقات الاعتيادية :

كما أسلفنا استخدم الربوط الصناعي في مجال واسع من التطبيقات الصناعية • ففي الاعمال التقليدية مثل تطبيقات اللحام النقطي والخيطي تكون دقة وانتظام اللحام من الامور المهمة والمطلوبة وهذه العمليات تولد حرارة

وجوا مشحونا بالاوزون مما يجعل صعوبة قيام الانسان بها . ومن المهام الخطرة التي يقوم بها الربوط رش الصبغ وفي هذا المجال يستطيع الربوط رش طبقات خفيفة جدا من الصبغ وبانتظام مما يقلل من كميات الصبغ المستعمل اضافة الى الاعمال مثل التحميل والتفريغ التي هي من الاعمال الشاقة التي يؤدي الانسان جهدا اذا قام بها . وهناك مهام أخرى يؤديها مثل تجميع السيارات والمحركات الكهربائية والحواسيب حتى صناعة الربوطات .

في التطبيقات أعلاه يكون الربوط فيها أطرش وأخرس وأعمى وثابتا في مكانه لايتحرك . ولكن بالمقابل هناك تطورات جديدة في تطبيقات الربوطات تم الدخول فيها بعد تطوير الربوطات الحديثة . هذه الربوطات تكون بالاساس مزودة ببعض المحسسات التي تعطي للربوط قابلية التحسس والاستجابة للمتغيرات في المحيط الخارجي . وأكثرية البحوث في مجال الربوطيات تركز على اعطاء الربوط امكان الرؤية بمنظومات الرؤية الاصطناعيةArtificial Vision Systeme علاوة على توفير الاصابع المتحسسة للربوط . وأن تقانة الذكاء الاصطناعي ستمكن الربوط من الاستجابة والتأقلم واستنتاج الاسباب واتخاذ القرارات لأي تغير في ظروف البيئة المحيطة بالربوط . وان الربوطات الحديثة يمكنها الرؤية والسمع واللمس ، فتطور المتحسسات مع التطورات الابداعية في حركة الربوط سيؤدي الى دخولها المعامل التي تحتوي على متغيرات بيئية مختلفة . فقد دخل الربوط في جني البرتقال وفي حقول تربية الاغنام وفي المستشفيات والقيام بالعمليات الجراحية وفي حراسة السجون .

ب ـ التطبيقات المستقبلية :

استخدامات الربوطات ليس مقتصرا على التطبيقات التقليدية في مجال الصناعة الممكنة ذاتيا وذلك لإمكان استخدامها في البيئات الخطرة والتي يصعب أو لا يتمكن الانسان العمل فيها . وتشمل التطبيقات المستقبلية للربوط المجالات الآتية :

* التطبيقات العسكرية :

وهذه تشمل استعمال الربوط في الاستخدام العسكري المباشر في ميدان المعركة في البر والجو والبحر . وان الطيارات من دون طيار والمستخدمة في عمليات التجسس العسكري ما هي إلا نوع من أنواع الربوطات . ويمكن أيضا استخدام الربوط في عملية نقل وتخزين الاسلحة والذخيرة . ومن المحتمل جدا أن يكون تركيز المؤسسات العسكرية في الدول الصناعية على تطبيق تقانة الربوطيات في مجال الصناعات العسكرية توخيا للدقة وتقليل الكلفة والحفاظ على أرواح العاملين .

* التطبيقات في مجال الفضاء :

تجري حاليا البحوث بشأن استعمال الربوطات في المهام الاستكشافية للكواكب وتصليح الاقمار الصناعية في الفضاء .

* التطبيقات في مجال التعدين :

ينطوي العمل في مجال التعدين على مخاطر مثيرة مثل الاختناق من بعض الغازات السامة أو قلة الاكسجين أو التعرض الى خطر الغرق أو الدفن ولذا يقلل استعمال الربوط من مخاطر الاصابة .

* استكشافات أعماق المحيطات :

العمل في أعماق المحيطات وللأسباب المعروفة ليس بالسهل أو الملائم للبشر وعليه يمكن أن تعد الربوطات البديل الممتاز لهذه المهمة الشاقة .

* التطبيقات المنزلية :

من المتوقع أن يدخل الربوط المنزل ويقوم بالاعمال الاعتيادية اليومية ويكون بديلا للخادم .

٨ ـ الاستنتاجات :

مما تقدم ومن حيث المبدأ فان الربوطات لها الامكانات على توليد الثروات الهائلة • واذا تجاوزنا مشكلة توزيع هذه الثروات على جميع أبناء المجتمع عن طريق نظام اقتصادي اجتماعي عادل فان الربوط قادر على أن يساعد كثيرا في تقليل الفقر في المجتمعات • وان علاج الفقر هو الحصول على الثروة والربوطات مؤهلة نظريا لانتاج مثل هذه الثروات وبلا حدود • وان الربوطات يمكن النظر اليها وكأنها أشبه بكائنات ميكانيكية جديدة يمكن أن تكون كالعبيد لبني البشر وانها لا تكلف البشر سوى ثمن شرائها وكلفة التشغيل والصيانة وقد يكون لها القابلية في المستقبل غير البعيد على صيانة وانتاج نفسها وبكلف تقل مع مرور الزمن •

وفي الحقيقة لاتوجد أي صعوبات فنية تقانية لانتاج الاعداد الكبيرة من الربوطات ولكن المشكلة تقع في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والنفسي لتأثيرات مجتمع الربوطيات • فليس السؤال هل نستطيع نحن البشر تصنيع هذه الاعداد من الربوطات ؟ ولكن السؤال هل صحيح أن نفعل هذا ؟ وما هي الآثار الفعلية الاجتماعية اذا فعلنا هذا ؟ فهذه أسئلة ليس من السهولة الاجابة عنها وذلك لتعدد المتغيرات المتداخلة في المجال وصعوبة الرؤية لضبابية الصورة المستقبلية لمجتمع الربوطات •

ان تأثير الربوطات في حياة البشر يأتي على مرحلتين المرحلة الاولى قد تظهر فيها المشكلات الاجتماعية والاقتصادية لنقصان فرص العمل • أما المرحلة الاخرى فهي المرحلة الانتقالية والتي تعد في توفير فرص عمل كبيرة جدا قد تفوق فرص العمل الحالية وفي كلتا المرحلتين فان ثورة الربوطات سوف تحسن مستوى حياة المجتمع لما توفره من فرص للتمتع بالحياة تمتعا فعالا •

السؤال الاخير والمهم هل يقوم الربوط بجميع الاعمال المطلوبة ؟ ولايبقى للانسان أي عمل يقوم به في المستقبل ؟

نعم اربما سيقوم الربوط بكل الاعمال الصعبة والخطرة والمملة • وان الربوط في هذا المجال يعمل بدقة وانتظام أحسن بكثير من الانسان • فهـو يستطيع العمل ٢٤ ساعة يوميا ٧ أيام في الاسبوع وسنة بعـد سنة ومن دون توقف • ولكن وبالمقابل لايستطيع الربوط تقليد الانسان في كل شيء فالبشر من حيث هم عمال لهم القابلية الرائعة على التأقلم والابداع والديهم القـابلية على تعلم آلاف من الاعمال خلال حياتهم علاوة على امتلاك البشر المتحسسات الرائعة جدا والمترابطة بمنظومة ذكاء لا مثيل لها • وأخيرا نحن البشر لـدينا امكان الشعور والعواطف والاستجابة الانسانية مما يجعلنا في حالة يمكن أن يساعد بعضنا بعضا وبعد كل هذا العرض فالاجابة عن السـؤال هـل تقوم الربوطات بكل الاعمال ؟ الجواب لا وسيكون من المستحيـل أن يقوم الربوط بكل الاعمال في الوقت الحاضر أو في المستقبل القريب على أي حال •



* * *

المصـــادر :

1- Hall, E. L. and Hall, B. C. "Robotics: A User - Friendly Introduction". CBS College publishing, 1985.

2- Ayres, R. "Changing Manufacturing Technology" Symposium on: "Robotics and Foreign Affairs", foreign service Institute, U. S. A., 1984.

3- Chamot, D. "The Labor Perspective", symposium on; Robotics and Foreign Affairs, Foreign Service Institute, U. S. A., 1984.

اشكالية القيم والأصيل
في تقويم البحوث العلمية في الجامعات العراقية

الدكتور هاشم يحيى الملاح
عضو المجمع العلمي

الملخص :

يدرس البحث اشكالية تقويم البحوث العلمية في الجامعات العراقية والمعايير المستخدمة في تصنيفها الى ثلاثة أصناف : أصيلة ، وقيمة ، ومفيدة • وقد توصل البحث الى ضرورة التقويم العلمي للبحوث والعمل على تطويره من أجل المحافظة على السوية العلمية للبحوث على أن يصحب ذلك بذل مزيد من الجهد من أجل تحسين الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للباحثين والتدريسيين في الجامعات ومراكز البحث العلمي •

تمهيد :

ان وصف الابحاث والكتب العلمية بصفة أصيل وقيم ومفيد أو ليس بذي فائدة ظاهرة حديثة عندنا ترتبط بالتقاليد العلمية التي ظهرت مع نشأة التعليم العالي في الوطن العربي • ويبدو أن هذه المصطلحات هي تعريب للمصطلحات الانكليزية Original وتعني الاصيل و Valuable وتعني القيم و Useful وتعني المفيد •

والحقيقة ان معاني هذه المصطلحات ودلالاتها تتسم بقدر كبير من المرونة والنسبية ، لذا كان من الطبيعي ان يتفاوت تحديد معانيها من علم الى علم كما يتفاوت بالنسبة للمقاييس المعتمدة لدى الباحثين والخبراء •

غير أن ما تقدم ، لايعني عدم وجود حدود وضوابط عامة لتوضيح معاني هذه المصطلحات ودلالاتها • فقد بذل الباحثون في مجال أصول البحث العلمي جهودا طيبة في توضيح شروط البحث العلمي ومواصفات البحث الاصيل والقيم وغير ذلك • كما كتب بعضهم بحوثا متخصصة من أجل تحديد معنى أحد هذه المصطلحات بشكل دقيق ، وربما كان ما كتبه الدكتور زكي صالح في سنة ١٩٥٣ من أفضل ما نشر حول مفهوم الاصالة في التأليف فقد عرف الاصالة في مجال العلوم الاجتماعية بأنها : « الانتاج المبتكر ، الذي يمتاز بالصواب أو الاقناع أو يكون أقرب ما هنالك الى الصواب أو الاقناع ، والذي يذلل عقبات كثيرة في سبيل الفهم والاستيعاب أو في سبيل البحث والاستقصاء ••»(١) وتستند الاصالة في التأليف عادة اما الى «خبرة عملية ، أو دراسة استقصائية ، أو فكرة مبتكرة ، أو عرض مبتكر أو تنسيق خطير أو الى مجموعة من هذه الصفات »(٢) •

ويشترط في الباحث كي يستطيع تقديم بحوث أصيلة أن تكون لديه خبرة عميقة في حقل اختصاصه ، وأن يكون « متمتعا بما يكفي من الاستعداد العلمي ، وحرية العمل للقيام بالتحري والاستقصاء وتمييز الغث من السمين، واذا ما اقتضت الحاجة الى الاقتباس من مراجع اخرى فان العبرة بنوع هذه المراجع لا بكثرتها ، فقد تكون ثلاثة منها خير من ثلاثين • ثم ان العلاقة بين الخبرة والاقتباس قد تكون قوية أو ضعيفة ، وقد ترجح أهمية الخبرة على الاقتباس أو تتساوى معها أو يكون الامر على عكس ذلك • والمهم ألا يكون الامتزاج بين نوعي المعرفة ــ بدرجة ــ لاتسمح بالتفريق بين هذا وذاك»(٣) •

وتشترط الجامعات المتقدمة في الرسائل العلمية التي تقدم اليها للحصول على الماجستير والدكتوراه (thesis) أن يتوافر فيها قدر من الاصالة وكذلك في

---

(١) د. زكي صالح ، مقدمة في دراسة العراق المعاصر ، بغداد ١٩٥٣ ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢١٧ . (٣) المرجع نفسه ، ص ٢١٨ .

البحوث والدراسات العلمية التي ينجزها الباحثون والتي يطلق عليها تعبيرات essay, monograph, paper وغـير ذلك[٤] .

أما البحـوث التي لاترتفع الى مصاف البحوث الاصيلة في فكرتهـا أو أسلوب عرضها أو منهجها أو غير ذلك ، فانها توصف بصفات قيم أو مفيد أو غير ذلك بحسب قربها أو بعدها من شروط البحث الاصيل .

وعلى الرغم مما تقدم ، فان هنالك شكوى من غموض معايير التقـويم الآنفة الذكر ، ومطالبة بتقديم أمثلة ملموسة لتوضيحها والحقيقـة ان ذلـك قد يتعذر في الاطار العام المجرد ، الا انه ممكن في حقل كل تخصيص على حدة ومن قبل الباحثين المتمرسين فيه مدة طويلة . فلو حاولنا على سبيـل المثـال توضيح مفهوم الاصالة في الدراسات التاريخية باعتبارها الحقل الذي يعمـل فيه كاتب هذه السطور لأمكننا تثبيت المعطيات الآتية :



الاصالة في البحوث التاريخية :

قد يبدو أمر انجاز بحوث أصيلة ومبتكرة في مجال الدراسات التاريخية أمرا صعبا ان لم يكن متعذرا بسبب ان المادة التاريخية ترتبط بالماضـي وان حقائق هذا الماضي ليس بالامكان اضافة جديد اليها وكل ما يستطيع المـؤرخ أن يفعله تجاهها هو أن يتولى عرضها وتوضيحها استنادا الى ما تقدمه المصادر له من معلومات وأخبار والحقيقة أن دور المؤرخ يتجاوز هذه الابعـاد بكثير وان بامكانه أن يقدم بحوثا تاريخية أصيلة في مجالات كثيرة أذكر منها ما يأتي:

١ ــ ان ما نجهله عن الماضي أكثر مما نعرفه وذلك لان كثيرا من الاثار القديمة ما زالت مطمورة تحت الارض وهي بحاجة الى من ينقب عنها ويستخرجها ثم يقـوم بعد ذلك بدراستها وكشف ما يتصل بها من حقائق وأخبار . أما على مستوى التاريخ الاسلامي والحديث فان المخطوطات والـوثائق الموجودة في مكتبات العالم قد يفوق عددها عدد المخطـوطات المحققـة

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢١٩ .

والمنشورة ، مما يتطلب مضاعفة الجهد في مجال البحث عن هذه المخطوطات والوثائق ودراستها وتحقيقها ونشرها وبذلك نساعد على الكشف عن كثير من خبايا الماضي •• وعمل المؤرخ في هذا المجال لا يختلف كثيرا عن عمل الجيولوجي الذي ينقب في باطن الارض وطبقاتها •

٢ ـ ان تطور المعرفة الانسانية والمجتمع الانساني يضع على عاتق المؤرخ مهمة دراسة الماضي من زوايا جديدة لم تكن شائعة في الماضي ، لذا يجب على المؤرخ أن يبحث عن جذور كثير من الظواهر المعاصرة في الماضي سواء أكانت تلك الظواهر اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية أم فنية أم غير ذلك من أجل ان يحقق ترابطا حيا بين الماضي والحاضر •

٣ ـ ان هنالك ثورة في منهجيات البحث العلمي ، وقد ساهمت العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والاقتصادية على تقديم الكثير من الرؤى المعرفية والقواعد المنهجية الجديدة التي يحسن بالمؤرخ المعاصر الاستفادة منها في دراسة الماضي من أجل الكشف عن حقائق تاريخية جديدة أو تقديم تفسيرات حديثة لحقائق قديمة •

٤ ـ ان فهم التاريخ ودراسته عملية حية ومتطورة لا تتوقف ما دام هنالك مجتمع قائم يواصل حياته وتطوره •• ويسعى لفهم حقائق الماضي في ضوء الواقع الذي يعيش فيه والمعطيات العلمية والعملية التي يفرزها ذلك الواقع •• وهكذا تتوزع حياة المؤرخ ما بين الكشف عن آثار ووثائق جديدة وتفسير وتوضيح وقائع واخبار قديمة في ضوء العلوم والمعطيات الحديثة •

وبذلك يقف المؤرخ الى جانب العلماء والباحثين في شتى حقول المعرفة، يسعى بأقصى طاقته لاستيعاب معطيات الحاضر العلمية والواقعية ويوظف أحدث النظريات العلمية والمنهجية من أجل اقامة الجسور بين الماضي والحاضر بحيث لايحصل انفصام بين حاضر الانسان وماضيه •• ولاشك في ان تحقيق

هذه المهمة يتطلب تقديم بحوث اصيلة ومبتكرة لايستطيع ان ينهض بها الا مؤرخون أصلاء مبدعون ، قد أعدوا اعدادا جيدا لاداء دورهم في خدمة المجتمع .

الجامعات وتقويم البحوث العلمية :

أولت الجامعات العراقية منذ نشأتها البحث العلمي أهمية كبيرة ، فاشترطت فيمن يعين بوظيفة تدريسي في الجامعة أن يكون حاصلا على شهادة الماجستير أو الدكتوراه في حقل اختصاصه وهذا الشرط يعني أن حامل الشهادة قد أنجز رسالة علمية ترقى الى درجة قيم (في الاقل) بالنسبة للحاصل على شهادة الماجستير ودرجة أصيل بالنسبة لحامل شهادة الدكتوراه[٥] .

وقد اشترطت تعليمات الترقيات العلمية في الجامعات لترقية التدريسي في سلم الدرجات العلمية أن يبرهن على تطوره العلمي في أثناء عمله في الجامعات من خلال نشر بحوث علمية قيمة أو أصيلة تبعا للمرتبة العلمية التي يروم الوصول اليها فاشترطت فيمن يسعى للترقية الى مرتبة مدرس ان يقدم بحثين قيمين في الاقل بعد استكماله لمتطلبات مدة الخدمة التدريسية وغيرها كما اشترطت فيمن يسعى للترقية الى مرتبة استاذ مساعد ان يقدم ثلاثة بحوث قيمة في الاقل . أما من يتطلع للترقية الى الاستاذية فان عليه تقديم ثلاثة بحوث أصيلة في الاقل فضلا عن استكمال بقية المتطلبات كالخدمة التدريسية المتميزة وغيرها من الشروط التي حددتها تعليمات الترقية العلمية[٦].

مفهوم القيم والاصيل :

لم تحدد التعليمات الخاصة بالاقسام والدوائر العلمية التي أصدرتها جامعة بغداد بتاريخ ١٤/٩/١٩٦٣ ، وهي أقدم تعليمات للتعيين والترقية

---

(٥) يراجع على سبيل المثال قانون وزارة التعليم العالي والبحث العلمي رقم ٤٠ لسنة ١٩٨٨ المواد من ٢٥ــ٢٧ وكذلك تعليمات الدراسات العليا الصادرة في ٢٢/٩/١٩٧٧ مادة ٣٢ و ٣٣ .

(٦) قانون وزارة التعليم العالي رقم ٤٠ لسنة ١٩٨٨ ، مادة ٢٥ــ٢٩ . الصادرة في ٢٢/٩/١٩٧٧ مادة ٢٢ و ٣٣ .

العلمية في الجامعات العراقية مفهوم القيم والاصيل على الرغم من اشتراطهما توفرهما في بحوث التدريسيين عند الترقية بحسب المرتبة العلميـة التي يسعى التدريسيون للترقية اليها •

ومن ثم فقد ترك أمر تحديد قيمة البحث لاجتهاد خبراء الترقيات العلمية، وكثيرا ما كانت أحكام هؤلاء الخبراء تتضارب في تقييم البحث الواحد •

غير أن هذه التعليمات قد نصت في الفقرة د من المادة ٥٢ على أن البحث يعد أصيلا اذا تم نشره في مجلة علمية عالمية معترف بها[٧] •

ان هذا النص قد جعل تقييم خبراءالمجلة العلمية العالمية للبحث وموافقة المجلة على نشره بمثابة شهادة على أصالة البحث ومن ثم لم تعد ثمـة حـاجة لتقييمه من قبل خبراء الترقية العلمية •

وهنا يجدر بنا أن نتساءل هل جميع البحوث التي تنشرها مثـل هـذه المجلات تعد بحوثا أصيلة ؟•• وما مفهوم الاصالة لدى هذه المجلات ؟••

وحينما نشأت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في سنة ١٩٧٠ عملت على توجيه سياسة الجامعات العراقية وتنسيقها في مجـال التعـين والترقيـة العلمية • وقد اعتمدت في هذا المجال الاسس نفسها التي كانت قائمـة فـي جامعـة بغـداد •

ولم يحاول قانون التعليم العالي والبحث العلمي رقم ١٣٢ لسنة ١٩٧٠ تحديد مفهوم البحث القيم والاصيل حينما تحدث عنهـا في مجـال الترقيـة والتعيين بل انه اشار اليهما بطريقة تثير بعض اللبس ولاسيما في المادة السادسة والاربعين التي اشترطت على من يتقدم للترقية الى مرتبة الاستاذية ان يكـون قد «نشر بحوثا قيمة وأصيلة» ان هذا النص لم يحدد عدد البحوث المطلـوبة للترقية وكم هو عدد البحوث القيمة أو الاصيلة الواجب تقديمها لهذا الغرض كما أنه لم يميز بين القيم والاصيل واعتبرها كأنها مفاهيم مترادفة ، وان كنت

---

(٧) مجموعة القوانين والانظمة والتعليمات لجامعة بغداد ، بغـداد ١٩٦٥. ص ٥٦ •

أستبعد ذلك لان القانون نفسه قد اشترط في المادة الخامسة والاربعين على المدرس الذي يسعى للترقية الى مرتبة أستاذ مساعد ان يكون قد « نشر بحوثا علمية قيمة » ومن دون الاشارة الى الاصالة .

وقد تلافى قانون وزارة التعليم العالي والبحث العلمي رقم ٤٠ لسنة ١٩٨٨ هذا النقص فميز بين البحث القيم والاصيل ، وحدد عدد البحوث المطلوب تقديمها ونوعيتها لكل مرتبة علمية في المواد من ٢٦ الى ٢٨ . فاشترط تقديم بحثين قيمين للترقية من مرتبة مدرس مساعد الى مرتبة مدرس وثلاثة بحوث قيمة للترقية الى مرتبة أستاذ مساعد وثلاثة بحوث أصيلة في الاقل للترقية الى مرتبة الاستاذية .

وقد حاولت تعليمات الترقية العلمية التي صدرت استنادا الى قانون وزارة التعليم العالي وكذلك تعليمات الدراسات العليا تحديد مفهوم القيم والاصيل في البحث وحسب التفصيل الآتي :

مفهوم القيم والاصيل في الرسائل العلمية :

ان احد الميادين الرئيسة للبحث العلمي في الجامعات هو ميدان الدراسات العليا على مستوى الماجستير والدكتوراه حيث يتوجه الطالب تحت اشراف أحد الاساتذة المؤهلين لاختيار موضوع الرسالة فيقوم بجمع مادتها العلمية ودراستها وتحليلها على أمل الوصول الى نتائج جديدة في مجال تخصصه .

وقد عرفت الرسالة العلمية بأنها «تقرير واف يقدمه باحث عن عمل تعهده وأتمه ، على أن يشمل كل مراحل الدراسة منذ كانت فكرة حتى صارت نتائج مدونة مرتبة بالحجج والاسانيد»(٨) .

ان الهدف الاساسي الذي تسعى الرسائل الجامعية الى تحقيقه عن طريق البحث العلمي هو ابتكار جديد واضافته الى ما هو معروف من العلوم ،

---

(٨) د. أحمد شلبي ، كيف تكتب بحثا أو رسالة القاهرة ١٩٦٨ ، ص٥ .

فالباحث يبدأ من حيث انتهى غيره من الباحثين ليسير بالعلم خطوة اخرى وليسهم في النهضات العلمية بنصيب»[٩] •

ان الابتكار المطلوب في الرسائل العلميـة ولا سيما في مجال الدراسات التاريخية ، ليس الكشف عن الجديد فقط ، بل انه يشمل فضلا عن ذلك « ترتيب المادة المعروفة ترتيبا جديدا مفيدا أو الاهتداء الى أسباب جديدة لحقائق قديمة ، أو تكوين موضوع منظم من مادة متناثرة أو نحو ذلك»[١٠]•

ويعد تحقيق المخطوطات ذات القيمة العلمية العالية أحد مجالات البحث الاصيل في مجال الدراسات التراثية بشرط ان يصحب التحقيق « مقدمة مشبعة عن المخطوط وصاحبه والموضوع الذي يتناوله » ،كما قررت ذلك تعليمات منح الماجستير في جامعة بغداد في ١٩٦٤/٢/١[١١] •

وقد أوضحت تعليمات الدراسات العليا التي أصدرها مجلس التعليم العالي والبحث العلمي في ١٩٧٧/٩/٢٢ المعمول بها حاليا مواصفات رسالة الماجستير في فقرة ١٠ من المادة ٣٢ بقولها : «يجب أن تتضمن الرسالة اضافة للمعرفة أو توسيعا لآفاقها بأسلوب يعكس طريقة البحث العلمي يتناسب والوزن المقرر لها »[١٢]• كما نصت الفقرة ١٢ من المادة ٣٣ على أن رسالة الدكتوراه يجب أن تتضمن «ابتكارا علميا واضافة جديدة الى المعرفة بأسلوب يعكس طريقة البحث العلمي ويتناسب والوزن المقرر لها »[١٣] •

يظهر مما تقدم ان تعليمات الدراسات العليا لم تستخدم مصطلح قيم في وصف رسالة الماجستير وانما اشترطت في الرسالة أن « تتضمن اضافة للمعرفة أو توسيعا لآفاقها » فهل يعني ذلك انها كانت تشترط في رسالة الماجستير الاصالة ؟•• أما بالنسبة لرسالة الدكتوراه فقد نصت بصراحة على وجوب توفر الاصالة والابتكار العلمي فيها •

---

(٩) المرجع نفسه ، ص ٨ (١٠) المرجع نفسه ، ص ٨ •
(١١) مجموعة القوانين والانظمة والتعليمات لجامعة بغداد ،ص ٣٩ •
(١٢) مجموعة القوانين والانظمة والتعليمات ، الموصل ١٩٨١ ، ص ٥٢٨ •
(١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ •

ويلاحظ ان تعليمات الترقيات العلمية التي صدرت في ظل قانون وزارة التعليم العالي والبحث العلمي رقم ١٣٣ لسنة ١٩٧٤ كانت قد نصت في المادة ١١ على أن « تعتبر رسالة الماجستير التي تعد باشراف عضو هيئة التدريس بحثا واحدا قيما ورسالة الدكتوراه بحثا واحدا مبتكرا شرط النشر كبحث على أن يعفى ذلك البحث من شرط التقييم»[١٤] .

يستنتج مما ورد أعلاه أن تعليمات الدراسات العليا قد اشترطت توفر الاصالة في كل من رسالة الماجستير والدكتوراه وان الفارق الوحيد بينهما هو في درجة الاصالة بحيث تصل الاصالة في رسالة الدكتوراه الى حدود الابتكار أما في الماجستير فتقرب الاصالة من حدود البحث القيم .

مفهوم القيم والاصيل في تعليمات الترقية والتعضيد :

لاتوجد فروق أساسية في المواصفات العلمية للبحوث التي ينجزها التدريسيون بعد حصولهم على الماجستير او الدكتوراه من حيث المنهجية العلمية او السعي للوصول الى الجديد والمبتكر في ميدان تخصصهم . غير ان من المتوقع ان تظهر بحوث التدريسيين قدرا اكبر من المهارة والنضج في استخدام المادة العلمية وتحليلها والوصول من خلالها الى نتائج مؤثرة ومن الضروري ان تتناسب قيمة البحوث التي يقدمها التدريسيون مع الدرجة العلمية التي يشغلونها في الجامعة وطول مدة خدمتهم فيها .

وقد أولت تعليمات الترقيات العلمية والتعضيد العلمي هذه الناحية أهمية كبيرة فنصت تعليمات الترقية العلمية الصادرة في ظل قانون وزارة التعليم العالي رقم ١٣٣ لسنة ١٩٧٤ في المادة ٩ منها على الاسس الواجب اتباعها في تقويم ابحاث التدريسيين على النحو الآتي :

أ ــ بيان الادلة على قيمتها العلمية وما اضافته الى المعرفة والفهم النظري او التطبيقي في مجال اختصاصها .

---

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢٠ .

ب ـ بيان الادلة على قيمة موضوعاتها وابتكارها واسلوب معالجتها وتنائجها، اساسية كانت أم تطبيقية .

ج ـ يجب توفر الفقرة (أ) لترقية المراتب العلمية كافة عدا مرتبة الاستاذية حيث توفر الفقرة (ب)[١٥] .

يستنتج من النص الآنف الذكر ان لا مكان في تعليمات الترقيات العلمية للبحوث التي ليس فيها اضافة او جديد أيا كانت المرتبة العلمية لصاحب تلك البحوث . وكل مافي الامر ان التعليمات قد اشترطت أن يكون البحث القيم فيه اضافة الى المعرفة والفهم النظري أو التطبيقي أما البحث الاصيل فينبغي أن يتضمن ابتكارا سواء في موضوعه أو اسلوب معالجته أو النتائج الاساس التي توصل اليها . فالفرق بين البحث القيم والبحث الاصيل اذا ليس في طبيعته وانما في درجة الابتكار التي يتضمنها .

في ضوء ما تقدم فقد أوصى المؤتمر الثالث للتعليم العالي المنعقد في بغداد للفترة من ٢١ـ٢٣/٧/١٩٨٧ (قاطع الآداب) في الفقرة ١٣ من باب الترقيات بأن « تعدل درجات الورقة التقويمية المرفقة بالبحوث (أصيل ـ مبتكر ـ قيم) لتفاوت مفهوم هذه الدلالات في الجامعات التي ترسل اليها البحوث ويكتفي بسؤال الخبير هل البحث يؤهل صاحبه للترقية الى مرتبة أعلى وما هي عناصر الاصالة » كما أوصى المؤتمر في الفقرة ١٤ بـ « الغاء تقدير (مفيد) من الورقة لعدم انسجامها مع ما حدد لها من دلالة[١٦] » .

أما الندوة الفكرية الثانية لرؤساء الجامعات الخليجية التي أسهم العراق فيها بحكم عضوية جامعاته في مجلس التعليم العالي التابع لمكتب التربية العربي التابع لدول الخليج التي انعقدت في المدة من ١٣ـ١٥/٤/١٩٨٥ فقد أوصت باعتماد سلم للدرجات العلمية لاعضاء هيئة التدريس في الجامعات ومهامهم وأسس تقييم أدائهم . ويلاحظ على هذا السلم المقترح انه قد حذف

---

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٣٢٠ .

(١٦) المؤتمر الثالث للتعليم العالي ، قاطع الاداب ، ج٢ ص ٣ .

ثنائية (قيم ــ أصيل)من البحوث ، واشترط على التدريسي الذي يروم الترقية من مرتبة مدرس الى أستاذ مساعد ان يقدم «بحوثا علمية أصيلة لايقل عددها عن ثلاثة بحوث منشورة في مجلات أو دوريات متخصصة من مستوى الدوريات الجامعية المعترف بها في فرع التخصص » . وكذلك الامر بالنسبة لمن يسعى للترقية الى مرتبة أستاذ مشارك أو أستاذ مع تأكيد أن درجة الاصالة والابتكار لابد أن تتناسب مع سمو المرتبة التي يسعى للحصول عليها[١٧] .

وهكذا نلاحظ ان التوجه العام لتعليمات الدراسات العليا والترقيات والتعضيد يميل الى الغاء درجة مفيد ودرجة قيم من بين درجات التقييم العلمي للبحوث مع تأكيد ضرورة توفر درجة الاصالة والابتكار في البحوث كي يستحق صاحبها الترقية . غير ان ذلك لايمنع من التسليم بأن البحوث الاصيلة تتفاوت في درجة اصالتها بحيث يمكن تقسيم البحوث الاصيلة الى ثلاث فئات هي : أصيل (مقبول) وأصيل (جيد) وأصيل (جيد جدا)[١٨] .

ولكن السؤال الجدير بالتأمل هو ما الحدود الفاصلة بين هذه الانواع الثلاثة من البحث الاصيل ؟. الحقيقة ان المسألة نسبية ومن الصعب جدا وضع معايير واضحة للتمييز ولكن الخبير المختص في البحث يستطيع التمييز من خلال خبرته الطويلة وتمرسه في ميدان البحث العلمي في حقل اختصاصه. لذا فقد قررت المادة ١٤ من تعليمات الترقية بأن يعد رأي «خبراء الترقية الاساس في بيان قيمة وابتكار الابحاث ولايكفي شرط النشر في المجلات العلمية دليلا على ذلك»[١٩] .

وبالنظر لدور الخبراء العلميين الخطير والحاسم في تقدير قيمة البحث فقد وضعت التعليمات مجموعة من الضوابط لضمان موضوعية الخبير وعدم

(١٧) سلم الدرجات العلمية لاعضاء هيئة التدريس في الجامعات ومهامهم وأسس تقويم ادائهم ، الرياض ١٩٨٥ ، ص ١٧ــ٢٠ .
(١٨) تراجع استمارات الترقية العلمية المعمول بها حاليا في الجامعات العراقية .
(١٩) مجموعة القوانين والانظمة والتعليمات لجامعة بغداد ، ص ٣٢١ .

تأثره بالعوامل الشخصية كتأكيد التخصص الدقيق وسرية التقييم واختيار الخبراء من خارج القسم أو الجامعة أو القطر بحسب طبيعة كل حالة .. كما حرصت بعض التعليمات على التأكد من عدم وجود علاقة شخصية متينة بين الخبير وبين صاحب البحث[٢٠] .

وعلى الرغم من كل هذه الضوابط فان هنالك شكاوى مستمرة من عدم موضوعية كثير من تقييمات البحوث وتضارب نتائج التقييم بين خبير وآخر . فما السر في ذلك ؟

يبدو من خلال المقارنة بين التعليمات الآنفة الذكر وبين ما شخصته مؤتمرات التعليم العالي في العراق أن هنالك نوعا من الانفصام بين الواقع والمثال في أوضاع التدريسيين وظروف عملهم في الجامعات العراقية ، ففي الوقت الذي تحرص فيه القيادات العلمية والادارية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي على وضع أفضل الشروط للارتفاع بمستوى البحث العلمي بما يجعله موازيا للبحث العلمي في أرقى جامعات العالم ، نجدهم غير قادرين على توفير المستلزمات العملية للارتفاع بهذه البحوث الى المستوى المطلوب[٢١] .

وقد أدى هذا الواقع الى كثرة التذمر من تخلف مستوى البحوث العلمية المنجزة في جامعاتنا وعدم موضوعية تقييم كثير من البحوث من قبل الخبراء والمحكمين مما يتطلب علاجا جذريا للاوضاع العامة للتعليم العالي[٢٢] .

---

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣١٦-٣١٨ ، وكذلك تراجع التعليمات الداخلية لتنظيم اجراءات الترقيات العلمية في جامعة الموصل التي أصدرها مجلس جامعة الموصل في جلسته الثانية عشرة في ١٩٩٢/٨/١٧ .

(٢١) لقد عقدت بضعة مؤتمرات لبحث واقع التعليم العالي وسبل النهوض به كان أولها في سنة ١٩٧١ وآخرها في سنة ٢٠٠١ .

(٢٢) تراجع ورقة اصلاح التعليم العالي في العراق ، بغداد ١٩٨٩ .

التوصيـــات :

١ ــ ان رفع المستوى العلمي في الجامعات وترصينه يجب أن يسبقه ويسـير معه اصلاح شامل لاوضاع التدريسيين الاقتصادية والاجتماعية وتحسين ظروف العمل في الاقسام والكليات من الناحية الادارية والخدمية .

٢ ــ لما كان الهدف من تقييم البحوث العلمية هو تصنيفها على أساس درجة ما قدمته من اضافة علمية في الحقل المعرفي الذي تنتمي اليه ، فانه أصبح من الضروري فتح الحوار في ميدان كل تخصص على حدة من أجل وضع ضوابط أكثر دقـة في مجال توضيح معاني مصطلحات (أصيل ، قيم ، مفيـد) المستخدمة حاليا في تقويم البحوث .

٣ ــ من أجل الوصول بالبحوث التاريخية الى مرتبة الاصالة من الضـروري فتح أبواب اقسام التاريخ لأحدث التوجهات العلميـة في دراسة التاريخ والاهتمام بفلسفة التاريخ ومناهج البحث الحديثة فضلا عن التوسع في البحث عن المخطوطات القديمة والوثائق وتحقيقها ونشرها بغيـة اماطـة اللثام عن كثير من خفايا الماضي واسراره .

٤ ــ من أجل تحقيق أعلى درجات الموضوعية في تقييم البحوث العلمية مـن الضروري التوسع في وضع الضوابط التي تبعد التأثيرات الشخصية عن عملية التقويم وذلك من خلال المراجعة الدائمة لاجـراءات التقويم من أجل تحسينها وضمان أقصى درجات الدقة والعدالة في هذا المجـال . ولا سيما أن الترقية العلمية الى مرتبة الاستاذية تترتب عليها امتيازات مادية ومعنوية تجعل معظم التدريسيين يحرصون على بلوغها .

استثمار الاموال في الفكر الاقتصادي الاسلامي

الدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي
كلية الآداب / جامعة بغداد

الملخص :

تعطينا كتب الفقه نبذا مبتشرة عن حصول عمليات استثمار رؤوس الاموال في مجالات عدة • وقد نجد إيماءات الى استثمار رؤوس الاموال في كتب التاريخ العام •

ومن محصلة هذه المؤلفات وغيرها نستطيع أن نعطي صورة واضحة عن المجالات التي استثمرت فيها رؤوس الاموال ، وما كانت تعطيه من مردودات اقتصادية ومالية للذين استثمروها بشكل خاص ،ولموارد بيت مال المسلمين واقتصاد الدولة بشكل عام • اذا ما أحسن اختيار مجالات الاستثمار، وحددت منذ البدء خططها وطبيعة نشاطها ، وسبل تنفيذها في ضوء بعض المؤثرات الاقتصاديةوالمالية ، وبضمنها اجراء حسابات دقيقة مبنية على أساس تخمين مقادير الارباح التي من الممكن أن يحققها المشروع الاستثماري • عندئذ تبرز الجدوى المتوقعة من الجهد المبذول في المسار الصحيح لمهمة الاستثمار ، وفي مقدمتها تحقيق فضول أموال من خلال النشاط الاستثماري المراد ممارسته ، على أن لا يتعارض ذلك مع مبادىء الشريعة الاسلامية •

تمهيـــد :

الحث على استثمار رؤوس الاموال :

وردت في القرآن الكريم آيات تحث المسلمين على السعي في طلب الرزق والمال الحلال . قال تعالى : « ليس عليكم جنـاح أن تبتغـوا فضـلا من ربكم»[1] . وقد كان المسلمون يتأثمون ويتحرجون من ممارسـة التجـارة حتى نزلت هذه الآية التي تبيح نهم الاتجار والربح الحلال . وقال عز وجـل: « وآخرون يضربون في الأرض ويبتغون من فضل الله »[2] . وقـال أيضا : « فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله »[3] . أي تفرقـوا في الارض وانبثوا فيها للتجارة واستثمار أموالكم ، واطلبوا من فضل الله وانعامـه[4].

وحتى يكون الاستثمار متفقا مع النهج الاقتصادي الاسلامي ينبغي أن يتجه نحو سبل غير منهي عنها شرعا[5] . وأباح الله عز وجل استثمـار رؤوس الأموال في كل شيء أباحه ، أو ندب اليه ورغب فيه . ومن هنـا يتضـح أن استثمار رؤوس الاموال حلال جائز في شتى وجوه النشاط الزراعي والصناعي والتجاري التي أحل الشرع التعامل بها[6] . ولم يبـح النهـج الاقتصـادي الاسلامي استثمار الأموال والتكسب بها في كل شيء حرمه الله عز وجـل ، مثل التكسب بالخمر ولحم الخنزير، وعمل أنواع الملاهي والاصنام والصلبان والتماثيل المجسمة ، وبيع الميتة ، وما أهل لغـير الله والتكسـب بهـا[7] . والتكسب بحفظ كتب الضلال[8] .

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٩٨ . (٢) سورة المزمل ، آية ٢٠ .
(٣) سورة الجمعة ، آية ١٠ .
(٤) الصابوني ، صفوة التفاسير ، جـ١ ، ص ١٢٩ ، ج ٣ ، ص ٣٨١ .
(٥) البخاري ، صحيح البخاري ، جـ٣ ، ص ٢٨٠ .
(٦) ينظر : سورة البقرة ، آية ٢٧٥ و ٢٨٢ ، سـورة النساء ، آية ٢٤ و٢٩، سورة التوبة ، آية ٢٤ ، سورة النور ، آية ٣٧ .
(٧) ينظر : سورة البقرة ، آية ١٧٣ ، وسـورة النحـل ، آية ١١٥ ، وسورة المائدة ، آية ٣ . (وينظر : الطوسي ، النهاية ص ٣٦٤-٣٦٥) .
(٨) الطوسي ، النهاية ، ص ٣٦٤ ــ ٣٦٥ .

وفي الحديث النبوي الشريف نلمس فوائد الاستثمارات المالية والاقتصادية والاجتماعية ومضامينها ، فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حث أصحاب رؤوس الأموال على استثمارها ، وبين لهم مجالات البيع والشراء بما يتلاءم مع مبادىء الشريعة الاسلامية التي يتم من خلالها نماء هذه الأموال. وبذلك تتحقق الآفاق المستقبلية التي تقي الفرد احتمال حصول الفاقة والتعرض لعوادي الدهر وتقلباته ، وبيّن أنه لايتحقق ذلك الا اذا وجهت عمليات استثمار رؤوس الأموال الخاصة نحو اتجاهات تتفق مع النهج الاقتصادي الاسلامي الذي يستهدف أن تكون الاستثمارات انسانية العطاء[٩] .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء»[١٠] . وقال أيضاً : « أحل ما أكل الرجل من مكسبه ، وكل بيع مبرر»[١١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق »[١٢] .

وقال : « الاسواق موائد الله تعالى ، فمن أتاها أصاب منها »[١٣] .

ويعد (الغزالي) امتهان المسلم لحرفة من الحرف ، ومنها استثمار المال في التجارة « فرضا من فروض الكفاية»[١٤] . وهنا يتضح أن استثمار المال وتنميته من الامور المشروعة ، سوى الحالات المنهي عنها شرعا . وان الاسلام ما من أمر حرمه الا وكان فيه غنى عنه واستبداله بما هو خير وأزكى وأقوم منه .

---

(٩) الغزالي ، احياء علوم الدين ، جـ٢ ، ص ٦١-٦٢ ، ابن ماجة سنن ، جـ٢ ، ص ٧٢٤ و ٧٧٤ .

(١٠) الغزالي ، احياء علوم الدين ، جـ٢ ، ص ٦١ .

(١١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٦١ .

(١٢) ن.م ، ص ٦٢ . (١٣) ن.م.

(١٤) ن.م ، ص ٨٣ .

ويؤكد الفقهاء على انه ينبغي للانسان الذي يروم استثمار ماله ، أو مال غيره ، أن يعرف كيفية الاكتساب ، ويميز بين العقود الصحيحة والفاسدة ، ويسلم من الربا الموبق ، والا ارتكب المأثم من حيث لا يعلم . إذ روي عن الامام علي رضي الله عنه أنه قال : « من اتجر بغير علم ، ارتطم في الربا ثم ارتطم »[15] . وكان يقول : « التاجر فاجر ، والفاجر في النار ، إلا من أخذ الحق وأعطى الحق »[16] . وقال أيضا : « معاشر الناس الفقه ثم المتجر ، الفقه ثم المتجر . والله للربا في هذه الأمة أخفى من دريب النمل على الصفا »[17] . ويؤكد (الغزالي) كل من يحاول الاشتغال باستثمار الاموال أن يكون على دراية تامة بجملة مفسرات العقود ليتميز له المباح من المحضور . اذ ان المكتسب يحتاج الى علم الكسب . ولذلك روي عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يطوف في السوق ويقول : « لايبيع في سوقنا الا من يفقه ، وإلا أكل الربا شاء أم أبى »[18] .

ويرى بعض الفقهاء أنه يكره استثمار الاموال في الصروف لان صاحبها لا يكاد يسلم من الربا ، ويكره بيع الطعام لان صاحبه لايسلم معه من الاحتكار ، ويكره بيع الاكفان لان صاحبها لا يسلم من تمني موت الأحياء . كل ذلك ليس بمحضور اذا أدى مستثمر المال في هذه الانشطة الامانة ، واستعمل ما يسوغ في شرع الاسلام[19] . وكثير ممن اشتغل في استثمار رؤوس الاموال كان يتراءى أمامهم القول المأثور : « شر المال ما ازمك اثم مكسبه ، وحرمت الاجر من انفاقه »[20] . وينبغي لمن يريد أن يستثمر ماله في تجارة أن يتجنب خمسة أشياء : مدح البائع ، وذم المشتري ، وكتمان

---

(15) الطوسي ، النهاية ، ص ٣٧١ .   (16) ن.م.

(17) الطوسي ، النهاية ، ص ٣٧١ .

(18) الغزالي ، احياء علوم الدين ، جـ٢ ، ص ٦٤ .

(19) الطوسي ، النهاية ، ص ٣٦٨ .

(20) الثعالبي ، الاعجاز والايجاز ، ص ٩٩ . تحفة الوزراء ، ص ١١٩ .

العيوب ، واليمين على البيع والربا • وينبغي أن يسوى بين الناس في البيع والشراء ، فيكون عنده الصبي بمنزلة الكبير ، والساكت بمنزلة المعاكس، والمستحيي بمنزلة المُداق ، ولا يفضل بعضا منهم على بعض[٢١] •

التحسب والاحتراز عند استثمار رؤوس الاموال

من المؤكد ان نجاح المشروع الاستثماري لايعتمد على النيات المخلصة وحسن التوجه وبقية الاجراءات الاحترازية والتحوطات الاخرى فقط ، وانما ثمة أسباب واعتبارات أخرى لابد من التأكد من مدى ملاءمتها • وتأتي في مقدمتها تهيئة مناخ مناسب ، بضمنه هياكل أساسية تستجيب لأي توسع متوقع في المشروع الاستثماري • والا قد تحصل بعض الاختناقات ، وربما ارتفاع التكاليف ، حتى في حالة السير الحسن في تنفيذ المشروع • وان لم يكن كذلك فان حصول التعثر ، وربما الاخفاق ، في أداء المشروع الاستثماري• ولكي يكون المشروع المراد توظيف المال فيه مربحا يجب العمل بكل الوسائل الى تحديد مجالات الانفاق التي تتطلبها العملية الاستثمارية ، بحيث يصبح هدف المشروع ، أو القائمين على ادارته ، أن لا تفوق مصروفاته الشهرية ، أو السنوية ، بأي شكل من الاشكال مقادير ايراداته في المدة الزمنية المحددة نفسها • لاسيما عندما يتكامل المشروع الاستثماري ويصبح باستطاعته أن يقف على قدميه ، ويجتاز مرحلة التجريب والاختبار[٢٢] • ففي هذا الصدد قال الدمشقي : أن لاينفق المسؤولون عن المشروع أكثر مما يكسبون ، فانه حتى فعلوا ذلك فان مالهم وجهدهم سائر نحو الاخفاق[٢٣] •

ومن أجل أن يحقق المشروع الاستثماري ريعا جيدا ومناسبا ، يجب أن لايكون الانفاق على متطلبات المشروع الاستثماري مساويا لما يدره من ربح • بل لابد أن يكون في دونه ليكون الفرق الحاصل بين المنفق والمكتسب،

(٢١) الطوسي ، النهاية ، ص ٣٧٢ •
(٢٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٨٥ و ٨٩ •
(٢٣) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٨٠ •

فضلا وأصلا لمتطلبات المشروع المستقبلية[٢٤] وبلا ريب ، فان المال الذي يأتي من تدارك النفقات ، وعدم اغفال فضول الاموال القليلة ، لتكون نقطة البداية في تكوين رأس المال الذي يمكن أن يوظف في مشاريع انمائية واستثمارية مربحة .

ففي هذا الشأن أوضح (الجاحظ) أن خطة التاجر الناجح تقوم على الاعتماد على فضول الاموال الصغيرة من القراريط[٢٥] ، والدوانق والأرباع[٢٦] ، والأنصاف ، لتصبح بعد ذلك ادخارات ، أي أموالا ، مؤهلة للاستثمار[٢٧] .

من المؤكد أن ربح المشروع الاستثماري لايسير على وتيرة واحدة ، فهو تارة يسير بوتائر متصاعدة ، وتارة أخرى يعتريه الهبوط ، بحيث يصل في هبوطه هذا الى الحد الادنى من الممكن المحتمل . وعندئذ يتطلب الامر باعادة النظر بشكل اجمالي بالسياسة المعتمدة في ادارة المشروع .

وتوجد نصوص تشير بما هو أهدى من أجل توضيح الكيفية التي يجب أن تتبع في الاستثمار من أجل تحقيق ريع أفضل ، وانتاج أوفر . وعندئذ يحصل تحقيق الفضل بين كلفة الانتاج، وبين الربح المتحقق من بيع الانتاج . وحتى يتم تحقيق هذا الهدف استلزم ايجاد توازن بين المعادلتين السابقتين . ولايتم ذلك الا في حالة العمل على عدم حصول تكسد الانتاج أو انتفاء الحاجة اليه في بعض المواسم .

---

(٢٤) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٨٠ .
(ينظر : الجاحظ البخلاء ، ص ٨٥) .

(٢٥) القراريط : هي أجزاء الدرهم . (ينظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٧٠ – ٤٧١ .

(٢٦) الدوانيق : الدانق سدس الدرهم . (ينظر : المقريزي ، شذور العقود ، ص ٥ .

(٢٧) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٥ و ٣٠–٣١ و ٨٩ .

المفكـرون المسلمون :

نظر المفكـرون المسلمـون الى مسألة توظيف رؤوس الامـوال نظرة ايجابية ، وعدوا ذلك ضرورة في استمرارية تواصل الانشطـة الاقتصاديـة والمالية في ميادين متعددة على أساس ان هذه الانشطة ثمرة صغيرة يتـم من خلالها توظيف فضول الاموال التي تؤدي لا محال الى انماء المال ، وخلـق فرص جديدة في العمل ، وزيادة في الانتاجية •

فالجاحظ يرى أن الاستثماريهدف الى تنمية رأس المال ، وهـو أحـد قنوات توظيف فضول الاموال المدخرة ، والحصول على أموال جديدة ، يمكن من خلالها أن يرتقي الفرد على مصاف الاغنياء وأهل الثـروة والجـاه[٢٨] • ويفضل الجاحظ (ويتفق معه ابن خلدون) استثمار الاموال في التجـارات اذ هي أكثر ربحا من استثمارها في العقار الذي قد يدافع ساكنه بالكرأ ، ويماطل في الأداء ، حتى اذا اجتمعت أشهر عليه فر وخلى • وكانا يحثـان أصحـاب العقارات على بيعها واستثمار أثمانها في أعمال ونشاطات تجارية لان ذلـك أربح[٢٩] • وبيّن (الجاحظ) أن الاستثمار في مجال ملكية الاراضي الزراعية يحقق مستوى من الربحية عاليا جدا • وأن ذلك يكون أفضـل من غيره ، اذ أنه بيّن أن غلة الزرع أكثر ضمانا[٣٠] • ومن هنا نلمس وجود تخطيط متقن في أوجه الاستثمارات في الفكر الاسلامي ، وبلا ريب ، فـان أصحـاب رؤوس الاموال يقدمون على استثمار رؤوس أموالهم في هذا المجال أو ذاك ، حسب ما يلوح لهم من توقعات الحصول على نسبة أعلى من الارباح •

ان دعوة (الجاحظ) المشار اليها جعلت أحدهم يقول : انكم « أخربتم غلاتنا ، وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومستقلاتنا حتـى سقطت غلات

---

(٢٨) ينظر : الجاحظ ، البخلاء ، ص١٣ و١٤ و ١٥ و ٣٠ و ٣٥ و ٥١ •

(٢٩) الجاحظ ، البخلاء ، ص٢٧ و ٢٩ و ٨٤ ــ ٨٥ • ، أبن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٨٣ ــ ٣٨٤ •

(٣٠) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٨٥ و ٨٧ •

الدور من أعين المياسير وأهل الثروة •• فصارت لذلك غـلات الدور ، وان كانت أكثر ثمناً ودخلا ، أقل يمنا ، وأخبث أصلا من سائر الغلات »[٣١] •

وقد كانت (للغزالي) آراء يمكن أن نعدها أبوابا وآفاقا لتوظيف الاموال لتشكل اسهامات جادة في تنشيط حركة الاسواق التجارية وزيادة الاستثمار فيها ، فهو يرى ان الذي ينتحي هذا المنحى هو المقبل على أمور الدنيـا أكثر من اهتمامه بأمور الآخرة • وفي موقفه هذا يعيب على التاجـر أو صاحـب رأس المال المتهالك على الدنيا وكأنه يريده أن يتخذ موقفا متوازنا بين الامور الدنيوية وأمور الآخرة[٣٢] • وهنا نلمس نظرة (الغزالي) نظرة انسان زاهد يكفيه القليل من القوت• وبلا ريب فان هذه النظرة لو امتد تأثيرها ، لأثرت سلبياً على واقع استثمار رؤوس الاموال • والغزالي بآرائه هذه على النقيض من (الجاحظ) الذي يرى أن حفظ المال أشد من جمعه[٣٣] • وأنه أخذ بقـول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « انك ان تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»[٣٤] •

ومن أجل نمو العمليات الاستثمارية يرى (الدمشقي) ضـرورة ايجـاد قنوات استثمارية جديدة يوظف فيها الربح المتحقق من المشروع الاستثماري ، بحيث يجعلها قادرة على اعطاء ربح جديد من جهة ، كما أنها في الوقت نفسـه تخلق فرصا جديدة في مجالات العمل والانتاج[٣٥] •

ومن المؤكد أن كل أصناف الاموال يمكن أن يستفاد منها في الاستثمار، وحينئذ تدخل ضمن العملية الانتاجية • ومن نافلة القـول ان نجاح عمليـة استثمار أي رأس مال مرهون في سبل تدبيره ، وحسن ادارته • ومن المفيـد أن نشير في هذا الصدد الى ان (الدمشقي) أشار الى أصناف المال فقسمهـا الى قسمين هما : المال الصامد ، والمال الناطق • وحدد ضمن هذا التقسيـم

---

(٣١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٨٧ •
(٣٢) الغزالي ، احياء علوم الدين ، جـ٢، ص ٦٠-٦١ و ص ٨٣ •
(٣٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٩١ • (٣٤) ن•م ، ص ٩٢ •
(٣٥) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٨٢ •

مجالات استثمارية عديدة منها : النقود (الدنانير الذهبية ، والدراهم الفضية)، والجواهر ، والامتعة ، والسلع والمنتوجات الصناعية، سواء أكانت مصنوعة من الاخشاب أم النحاس أم الحديد ، أو الصناعات الاخرى كالنسيجية والجلدية وغيرها[٣٦] . وشمل الاستثمار مجال العقار كالمسقفات من الاسواق والحمامات والطواحين والمعاصر والافران والدور وحتى الاراضي الزراعية ؛ وتدخل الضياع والبساتين والآجام ضمنها ، وما تحويه من العيون والآبار والحقول في مياه الانهار الصغيرةوالجداول والترع . ويمكن أن يستثمر رأس المال في الكراع . ونقصد بها الاغنام والابل والبقر والخيل والحمير[٣٧].

ويرى (الدمشقي) أن الاستثمار العقاري يظل يفيض ربعا على صاحبه، لذا يجب ضبط الوسيلة التي يركن اليها المستثمر ، كأن يعمد الى الاسراع في بيع ناتج الاستثمار حال عرضه بغض النظر عن مقدار حجم الربح المتحقق. في حين يعد[٣٨] (ابن خلدون) ان استثمار الاموال في النشاط التجاري من أوسع المجالات في الحصول على ايرادات جيدة ، أو ربح كبير ، لان النشاط التجاري يتميز باتساع مجالاته وأنشطته وبه يمكن أن تزداد موارد بيت المال[٣٩] . وشخص (ابن خلدون) كثرة أرباح رؤوس الاموال المستثمرة في النشاط التجاري والحاصلة من الفرق بين القيمة السلعية ومقدار بيعها فقال: « ان التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص ، وبيعها بالغلاء »[٤٠] .

---

(٣٦) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ص ١٧-١٨ . (وقسم الماوردي المال الى مال ظاهر ومال باطن . ينظر : الاحكام السلطانية ص ١١٣) .

(٣٧) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ١٨ .

(٣٨) ن.م ، ص ٨٢ .

(٣٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٣.

(٤٠) ن.م ،ص ٣٩٤ .

ويرى (الثعالبي) أن من أولى مهام الوزير استثمار رؤوس الاموال التي ترد الى حاضرة الخلافة . ففي هذا الشأن قال : «وأما الاموال فلتكن العناية بتثميرها أكثر من العناية بتحصيلها »(٤١) .

وأدرك المفكرون المسلمون ومنهم (الدمشقي) ان أبواب استثمار رؤوس الاموال ليست مشرعة بالشكل الهين على وفق الصورة المرسومة في ذهن أصحاب رؤوس الاموال الذين يرغبون في استثمار اموالهم في مجالات تجارية أو صناعية ، أو مشاريع زراعية . وانما كان يتحتم عليهم ان يجروا دراسات مستفيضة تتناول جوانب الميدان الذي يرغبون في ولوجه ، وان دراستهم هذه لابد ان تتناول ظروف الحقبة الزمنية اللازمة لتنفيذ المشروع الاستثماري والمدة المتوقعة التي يمكن أن يتم خلالها بدء الانتاج الفعلي وعرضه في الاسواق ، ودرجة احتمال رواج السلعة المنتجة ومقدارها ، ومدى تقبل الناس لها ، واحتياجهم اليها ، ومدى تناسب الكلفة والجهد المبذول مع القيمة الحقيقية التي يمكن أن يباع فيها الانتاج الجديد ، وعندئذ يتضح بشكل جلي الربح المتحقق من عملية الاستثمار هذه . ففي هذا الشأن قال (الدمشقي) أن على صاحب رأس المال المراد استثماره ان يحذر من « ان يمد يده الى ما يعجز عنه وعن القيام به مثل تشغيل ماله في قرية يعجز عن عمارتها ، أو في ضياع متفرقة لايمكنه مباشرتها .. أو يتخذ من الحيوان وما تجاوز النفقة عليه مقدار ماله»(٤٢) .

ولكي يؤدي النشاط الاستثماري وظيفته الاجتماعية يجب أن يشمل نفعه عددا من الناس من خلال ايجاده فرص عمل لأيدٍ عاملة ، كما انه يسهم في زيادة انتاج سلع يحتاجها الناس فتشبع عندئذ تلك الحاجات ، وهذا سيؤول لا محال الى زيادة العرض في الاسواق ، وحينئذ سيؤثر في خفض الاسعار

---

(٤١) عبدالملك بن محمد الثعالبي ، تحفة الوزراء ، مطبعة العاني (بغداد : ١٩٧٧) ص ٧٩ .

(٤٢) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٨١ .

(٤٣) ن.م.

فتتسع دائرة الأستفادة من هذا الأستثمار من خلال تقديمها خدمات عامة وفرص عمل جديدة • ففي هذا الصدد يحث (الدمشقي) أصحاب رؤوس الاموال على توظيف أموالهم بمشاريع أستثمارية يكون عامة الناس بحاجة ماسة الى أنتاجها•[٤٣] وأكد (أبن خلدون) لأصحاب رؤوس الأموال أن استثمارها في مشاريع أنتاجية فيها مردودات مفيدة للفرد وأسرته ، أذ أن هذه الاستثمارات تشكل ضمانة أكيدة لصاحبها واولاده وذويه•[٤٤]

وخاطب (الدمشقي) أصحاب رؤوس الأموال المستثمرة ونصحهم بقوله : « أنك تملك الأموال ما ملكت فيها حسن التدبير • فأذا جانبته وسلكت في السيرة سبل الاضاعة كثرت الرغبة اليك فيما لا يأذن الرأى فيه »[٤٥]• ومن هنا يتضح أنه حث أصحاب رؤوس الأموال على ضرورة تثميرها ، وعد ذلك « آلة المكارم » وبين أن عدم أستثمار المال سوف يؤول لامحال الى فقدانه ونفاده • والشخص الذي يفقد ماله تقل الرغبة فيه ، والرهبة منه• ومن لم يكن بموضع رغبة ، ولا رهبة ، أستهان بين الناس[٤٦] •

ويرى (الدمشقي) أن المشاريع الاستثمارية قد تتعرض الى هدر مستديم ، وإخفاق محقق اذا ما أصبحت تحت ادارة أنسان جاهل ، ذى نظرة ضيقة ومحدودة ، بعيدة عن مستلزمات العمل الأستثماري[٤٧]•

والحق أن (ابن خلدون) نظر الى استثمار رؤوس الأموال نظرة عملية تطبيقية ، فهو يرى أن الاستثمارات التنموية أنما تبدأ من قيمة الجهد المبذول في ميدان العمل الذي يقدمه الأنسان في المشروع الاستثماري • وأن رأس المال لوحدة لا ينمو ولا يأتي بالأرباح المرجوة الا بجهد الأنسان فقال : « لابد من العمل الأنساني »[٤٨] والا لم يكن في مقدور رأس المال المستثمر أن ينمو •

---

(٤٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٧–٣٦٨ •

(٤٥) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٩٥ •

(٤٦) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٩١ •

(٤٧) ن•م ، ص ٩٥–٩٦ •   ٤٨ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٨١ •

وبمفهوم متوازن ربط (ابن خلدون) بين ظاهرة العمـران (كما يسميه العمران البشرى) التي عدها من النقاط الجوهرية واكدها في مقدمته ، وبين جدوى استثمارات رؤوس الأموال ، فقال : « ان كثرة الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه[٤٩] » .

وأحسب أن (ابن خلدون) يقصد في الكسب هنا استثمار المال في المشاريع الانمائية التي تحقق مردودات أقتصادية ومالية ملموسـة يمكـن توظيـف استثمار عوائدها في مشاريع انمائية جديدة ، كما وضـح ان وجود فـائض القيمة بوتائر متصاعدة يضمن ديمومة المشاريع الاستثمارية ، فضلا عن احتمال استحداث مشاريع استثمارية جديدة[٥٠] . وبلا ريب فان تآزر العمل الانساني مع رأس المال يخلف فرصا استثمارية جديدة ومتطورة من شأنها دفع النشاط الاقتصادي والمالي في الدولة في وتائر متصاعدة . اذ قال (ابـن خلـدون) أنه ما دام هناك عمل انساني دؤوب اذاً هناك استثمار ونمو في رأس المـال . وقال أيضا : انه متى توقف الاستثمار وأنعدمت مشاريعه قلّ العمل والمكسب ونضبت رؤوس الاموال وانتقص العمـران[٥١] . ويـرى (ابن خلدون) ان الاستثمارات التي تقوم بها الدولة انما هي في الاعم الاغلب محـرك للنشـاط الاقتصادي والمالي ، وذات مردود مفيد لعموم المجتمع[٥٢] .

الاستثمارات الفرديـة :

بلا ريب ، فان سبل الاستثمارات متعددة ، وان احتمالات حصولها على أرباح مجزية كبيرة ، اذا ما توفر الحذق التجاري والمال لدى أصحاب المشاريع الاستثمارية مع الجهود التي تقتضيها طبيعة المشاريـع الموظفة فيهـا رؤوس الامـوال .

---

(٤٩) ن.م ، ص ٣٦٦ . (٥٠) ن.م ، ص ٣٨١ .

(٥١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٨٢ . (٥٢) ن.م ، ص ٢٨٦ .

كان بعض أصحاب رؤوس الاموال يعزفون عن مزاولة استثمار رؤوس أموالهم بأنفسهم ، وانما يفضلون أن يعهدوا باستثمارها لأناس آخرين على أن يجعلوا لهم نصيبا معينا من ريعها • ففي هذا الشأن يورد (التنوخي) أن رجلا لديه رأس مال بلغ أربعين ألف دينار استثمر منها ألفي دينار عند أحد التجار الثقاة[٥٣] • ولم يفصح (التنوخي) كم كان ربح هذا الرجل من ماله المستثمر في التجارة • وأحسب انه وظف ماله على وفق شركة المقارضة (أي المضاربة) ، وهي أن يكون رأس المال لأحدهما (أي لأحد الرجلين) ويعمل الآخر بجهده على قسم معلوم من الربح[٥٤] • لكن (التنوخي) نوّه بأن الرجل المشار اليه استثمر ثمانية عشر ألف دينار في مجال الانتاج الزراعي اذ اشترى بها ضيعة ، وان هذا الاستثمار الاخير كان يدر عليه ريعا يكفي مصروفاته السنوية[٥٥] •

وفي الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي إشارات ونصوص كثيرة توضح كيفية توظيف رؤوس الاموال بين المتعاقدين على وفق شروط وضوابط محددة تكفل الحفاظ على رأس المال المستثمر ، كما توضح في الوقت نفسه مهمة الشخص الذي أودع لديه رأس المال ليستثمره على أساس نسبة محددة من الارباح ، والشروط بين المتعاقدين عادة تحدد مقدار نسبة ربح كل من صاحب المال والطرف الآخر الذي أوكلت اليه مهمة الاشتغال بهذا المال • ففي هذا الصدد أشار (السمرقندي) الى صيغة التعاقد بين الطرفين جاء فيها : (أقر فلان ابن فلان في صحة بدنه وعقله أنه قبض واستوفى من فلان ابن فلان من الورِق (الدراهم) ألف درهم مضاربة ليتصرف بها في صنعة كذا ، ويشتري ويبيع ويطلب النماء والربح على ما رزق الله تعالى في كل وقت من الربح كان بينهما نصفي معاملة صحيحة وقراضا جائزا)[٥٦] •

---

(٥٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٨٦ •
(٥٤) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٢١ •
(٥٥) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٨٦ •
(٥٦) احمد بن محمد السمرقندي ،الشروط والوثائق ، بغداد ١٩٨٨ ، ص ١٤٩ •

وكانت المضاربة (أي المقارضة)[٥٧] احدى المجالات المهمة التي من خلالها كانت توظف رؤوس أموال بعض الموسرين ، ذلك ان هذا الصنف من الاستثمار كان معروفا منذ صدر الاسلام ، قد مارسه عدد كبير من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ففي المصادر الاولية نصوص كثيرة تشير الى هذا النوع من النشاط التجاري وما حققته من ارباح[٥٨]. فعلى سبيل المثال لا الحصر اشار (التنوخي) في نشواره الى ان رأس مال قدره ثمانية آلاف درهم استثمر في مجال المضاربة ، أو المقارضة ، فبلغ نيفا وستين الف درهم[٥٩] . وهنا يتضح ان هذا الاستثمار حقق ربحا أكثر من خمسة أضعافه في مدة وجيزة . وان باستطاعة من يملك المال ولا يحسن العمل فيه، أن يعطيه لغيره على حصة معلومة من الربح .

الاكتناز :

يعني الاكتناز ـ في بعض معانيه ـ حجب الاموال عن الاستثمار وتجميدها وحبسها . وهذه الظاهرة مرفوضة في الاسلام . وتوجد في القرآن الكريم آيات تحث المسلم الذي وسع الله عليه في الرزق أن لا يدخر ماله ويحجبه عن الاستثمار . قال تعالى : « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »[٦٠] .

ومن هنا يتضح أنه يجب على أصحاب رؤوس الاموال أن لا يكنزوها ويمنعوها عن سبل البر ، أو يحبسوها عن الاستثمار الذي تتحقق من خلاله منافع الناس ، ومنفعة صاحب المال نفسه[٦١] . على وَفْقِ مفهوم هذه الآية لا يجوز تجميد فضول الاموال وحبسها عن الاستثمار والانفاق في الوقت

---

(٥٧) ينظر : الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٢١ .
(٥٨) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، جـ١ ، ص ٢١٤ .
(٥٩) ن.م ، جـ ٤ ، ص ٩٩ .   (٦٠) سورة آل عمران ، آية ١٣٤ .
(٦١) ينظر : سورة التوبة ، آية ٣٤ و ٣٥ .

الذي توجد فرص مناسبة لذلك[٦٢]. ومجمل القول توجد آيات كريمة تحاول كبح جماح النفس البشرية التي تعمل على اكتناز الاموال وعدم استثمارها . اذ ان الاكتناز يحجب كل منفعة متأتية من هذا المال . قال تعالى: « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم »[٦٣] . ان هذا الرفض في الآية الكريمة منصرف الى من امتنع عن دفع زكاة الاموال المكتنزة ، الا أن عملية عدم الاستثمار في مشاريع انمائية انتاجية لابد من أن تكون قد تناولها منطوق الآية الكريمة المشار اليها توا . وقال أيضا : « هذا ما كنزتم لأنفسكم »[٦٤]. وقال : « فذوقوا ما كنتم تكنزون »[٦٥] .

وعد الرسول صلى الله عليه وسلم حجب الاموال واكتنازها وحبسها وعدم استثمارها حقا غير مشروع[٦٦] . وان مرتكب هذا العمل واقع لا محال في هاوية حب المال والاستكثار منه ، وهو المكروه شرعا أيضا ، وفي التطبيق العملي نجد أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حاول أن يوظف فضول أموال الفيء ويستثمرها في مجال تربية الحيوانات وغيرها من أجل أن يضمن تهيئة السلاح والمؤونة للمجاهدين[٦٧].

وقد وقف (الغزالي) من مسألة اكتناز الاموال وقفة تأمل مشوبة بالحذر ، لان وراء ذلك سلبيات كثيرة . وأكد (ابن خلدون) ضرورة استثمار أية مدخرات أو أية رؤوس أموال مدخرة ، ويحث على استثمارها في مجال العقارات ، وشراء الضياع أو أية روافد أخرى كالتجارة والفلاحة ، يمكن أن يوظف بها رأس المال ، وتدر من خلاله أرباحا وخدمات لعموم المجتمع . وعندئذ تبرز قدرات عالية وحذق ملموس في التحكم بحجم الاستثمارات

(٦٢) ينظر : سورة البقرة ، آية ٩٥ . (٦٣) سورة التوبة ، آية ٣٤ .
(٦٤) سورة التوبة ، آية ٣٥ . (٦٥) سورة التوبة ، آية ٣٥ .
(٦٦) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٦١ و ٨٩ .
(٦٧) البخاري ، صحيح البخاري ، ج٢ ، ص ٦٣٢ .

وترشيد ريعها أو عوائدها المتحققة[٦٨]. وهو بهذا التأكيد يمقت اكتناز الاموال وتجميد الارصدة، ويعد ذلك هدرا مستديما في الثروة واندثارا لها. وبلا ريب، فان للنشاطات المشار اليها تأثيرات فاعلة في حركة التبادل التجاري في الاسواق، كما أنها في الوقت نفسه تدر ريعا جيدا لأصحاب رؤوس الاموال المستثمرة أولا. وثانيا لابد أنها سترفد بيت المال بموارد جيدة تعزز من خلاله اقتصاد الدولة وتكثر من نفقاتها العامة.

وفي الظروف السياسية القلقة كان أصحاب رؤوس الاموال يحاولون اخفاء أموالهم تحسبا لمستجدات الظروف المتقلبة، وكان أصحاب هذه الاموال يرتؤون الاحتفاظ بها في أماكن بعيدة عن عاديات الدهر، فكانت تدفن أحيانا في باطن الارض، أو يعمل لها فراغ خاص في جدران الدار الداخلية، أو في البلاليع[٦٩]. وقد استهجن الفقهاء اكتناز الاموال وايداعها باطن الارض، وعدوا ذلك أمرا مذموما لما قد يعتري صاحبها من المخاوف حول اهتداء الطامعين الى مكانها. فضلا عن احتمال تعرض الاموال المكتنزة للتلف أو الضياع بعد موت صاحبها لمجهولية مكانها. لذا فان توظيف هذه الاموال في مجالات استثمارية تنموية نافعة، حل ناجع لهذه المسألة لكونها أكثر نفعا ريعا، ولا يحتمل فيها الغضب والظلم، ولايستدعي المراقبة والحفظ[٧٠]. وفي بعض الاحيان كان اصحاب رؤوس الاموال الذين يتوقعون ان أموالهم قد تنالها يد الاعداء بالسرقة أو المصادرة أو غيرهما يودعون أموالهم عند أناس أمناء بعيدين عن أنظار الفئات المشار اليها قبل قليل[٧١].

---

(٦٨) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦٨.

(٦٩) مسكويه، تجارب الامم، جـ١، ص ١٠٢ و ١٩٣. عريب، صلة تاريخ الطبري، ص ٤٨. مجهول، العيون والحدائق، ص ٣٤٢.

(٧٠) الغزالي، احياء علوم الدين، جـ٢، ص ٦٣-٦٤.

(٧١) مسكويه، تجارب الامم جـ١، ص ١٤ و ١٠٢، عريب، صلة تاريخ الطبري، ص ٣٩.

وتشير النصوص الى ان بعض أصحاب رؤوس الاموال وجدوا مجالا آخر في استثمار رؤوس أموالهم ،حيث عمد بعض هؤلاء الى استثمارها لدى التجار أو الصيارفة أو أصحاب البيوت المالية الذين ينالون ثقتهم عادة . وهؤلاء يقومون بتوظيف الاموال المودعة لديهم في نشاطات انمائية متعددة، في مجال البيع والشراء (التجارة) مثلا ، أو منح قروض لمن يحتاجها لقاء فائدة معينة يتفق عليها الطرفان[٧٢] . وبلا ريب ، فان استثمار رؤوس الاموال في أية جهة من الجهات المشار اليها سيسهم في ايجاد نشاط تجاري في الاسواق، كما أنه سيحدث سيولة نقدية تعمل بفاعلية على ايجاد عمل لكثير من الناس. وهذا بدوره سيؤول بمردودات ايجابية لبيت المال والمجتمع على حد سواء .

في مجال العقار والضياع :

في مجال العقار والضياع ترد في المصادر الاولية نصوص كثيرة تشير الى إقدام بعض أصحاب رؤوس الاموال على توظيف اموالهم في امتلاك الاراضي الزراعية المنتجة ،ففي هذا الشأن أشار (وكيع) الى أن قاضي البصرة (سوار بن عبدالله) في عهد الخليفة المنصور كان يحث الاشخاص المودعة عندهم أموال اليتامى على أن يشتروا بها بساتين نخيل لانها تدر عليهم ريعا[٧٣] جيدا . ذلك أن مثل هذا الاجراء لايضمن بقاء أموال اليتامى وعدم استنزافها حسب، وانما يضمن نماءها وزيادتها باطراد .

وأورد (التنوخي) نصا قاله رجل اشترى ضيعة بألفي دينار ، قال : « فأغلت وأثمرت ، وانا من الله عزّ وجلّ في نعمة جزيلة وخير كثير »[٧٤] . وتوجد لدينا نصوص أخرى أشارت الى أن أموالا استثمرت في الاراضي

---

(٧٢) الجهشياري ،الوزراء ، ص ١٠٠ و ٢٢٠-٢٢١ ، ابن الجوزي ، المنتظم : جـ٦ ، ص ١٦٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ١٧٤ .

(٧٣) وكيع : اخبار القضاة ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

(٧٤) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، جـ٢ ، ص ٨١ و ص ٢٩٢ .

الزراعية ، وانها كانت تدر أرباحا سنوية تعادل خمسين مـن المائة من قيمـة الشراء[٧٥] • وهي نسبة عالية جدا اذا ما قيست بمجالات استثمارية أخرى •

عائدات بيت المال من النشاطات الاستثمارية :

شجع المسؤولون في الدولة الاسلامية النشاطات الاستثمـارية بأشكالهـا المتعددة ومجالاتها المختلفة ، كما أنهم دعموها ، ولاسيما تلك التي لايتعارض نشاطها مع تعاليم الدين الحنيف ومبادئه ، لانها كانت ترفد بيـت المال بموارد مالية جيدة ، وان هذه الموارد تزداد طرديا كلماازدادت النشاطات الاستثمارية• وكان (ابن خلدون) قد ربط كثرة تدفق موارد بيت المال بالنشاط الاستثماري فقال : « اذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة ، وقعد التجار عن التجارة ، وذهبت الجباة جملة ، أو دخلها النقص المتفاحش •• »[٧٦] • كما أن رؤوس الامـوال الموظفة في النشاط التجاري والمصرفي أصبحت فيما بعد ملاذا مأمولا لكثير من الوزراء حيث كانوا يقترضون من هذه الاموال المستثمـرة في التجـارة أو الصيرفة عندما يصاب بيت المال بعجز مالي بحيث أن موارده لا تغطي النفقات التي يجب أن يضطلع ، وعنـدئذ يلجأ الوزير الى الاقتـراض من ميـاسير التجار أو الصرافين الذين لديهم رؤوس أموال طائلـة مستثمرة في نشاطـات تجارية أو مصرفية ، وغالبا ما يكون الاقتراض بفائدة محددة يتفـق عليهـا الطـرفان[٧٧] •

---

(٧٥) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، جـ٢ ، ص ٨١ •

(٧٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ •

(٧٧) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ١٨ ، مسكويه ، تجـارب الأمم ، جا ص١٣ • الصابي ، الوزراء ، ص ٨٠ •

وفي مجال آخر نستطيع أن تتلمس ايماءات بسيطة من (الغزالي) يحث فيها أصحاب رؤوس الاموال على تنفيذ مشاريع ذوات نفع عام أطلق عليها (الخيرات المؤبدة) ، وهي في مجملها مشاريع غير إنمائية ، ولا انتاجية ، وانما فيها نفع عام مثل بناء المساجد والقناطر والربط ودور المرضى .

ويعد النهج الاقتصادي الاسلامي ثروة المفرد جزء متمما من ثروة المجتمع . وان توظيف الادخارات أو فضول الاموال في وجوه استثمارية مختلفة ومتعددة ، انما يكون زيادة فرص عمل جديدة . واستغلال طاقات معطلة ، وزيادة انتاجية تحقق من خلالها عوائد ترتفع من خلالها دخول الافراد والدولة معا .

ومن نافلة القول ان توظيف رؤوس الاموال في نشاطات اقتصادية ومالية كثيرة ومتعددة من شأنه تحقيق ايجاد سبل ومستجدات ربحية يحصل عليها الفرد من جراء توظيف أمواله في تلك النشاطات . كما أن هذه الانشطة من شأنها احداث سيولة نقدية في الاسواق تسهم في تعزيز اقتصاد الدولة ، وخلق فرص عمل جديدة لأبناء المجتمع . كما انها في المحصلة النهائية تؤدي الى زيادة الانتاج الذي يأتي بمردودات ايجابية لعامة الناس . وكان الاسلام قد أباح استثمار فضول الاموال بالوسيلة التي تحقق مردودات ايجابية لصاحب رأس المال على أن لاتكون الوسيلة الموظف فيها المال هذا منهيا عنها شرعا . كما أن الاسلام نهى عن اكتناز المال وحجبه عن الاستثمار حين تصبح الاستفادة منه معدومة الجانب ، أي يصبح غير قابل للانماء .

---

(٧٨) الغزالي ، احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ .

المصـــادر والمــراجع

القرآن الكريـــم .

- ابن الاثــير ـ أبو الحســن علي بن ابــي الكرم محمــود محمــد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) الكامل في التأريخ ، مطابع دار الفكر العربــي ، (بــيروت ١٩٦٧) .

- ابن الجوزي ـ عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ) .
المنتظم في تأريخ الملوك والامم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، (حيدر آباد ، الدكن ١٣٥٧هـ) .

- ابن خلدون ـ عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) .
المقدمة ، طبعة بالاوفست لمكتبةالمثنى ببغداد (بلا) .

- ابن ماجة ـ محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) .
سنن ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : بلا) .

- ابو يوسف ـ يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ) .
كتاب الخراج ، دار المعرفة للطباعة والنشر (بيروت : ١٩٧٩) .

- البخاري ـ أبو عبدالله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ) .
صحيح البخاري ، مطابع دارالقلم ، (بيروت : ١٩٨٧) .

- البلاذري ـ أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان ، مطبعة الموسوعات (القاهرة :١٩٠١) .

- التنوخي ـ أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ) .
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ،مطابع دار صادر ، (بيروت : ١٩٧٢).
- الفرج بعد الشدة ، دار الطباعة المحمدية ، (القاهرة : ١٩٥٥) .

- الثعالبي ـ عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ) .
- الاعجاز والايجاز ، المطبعة العمومية ، (القاهرة، ١٨٩٧) .
- تحفة الوزراء ،مطبعة العاني ، (بغداد ١٩٧٧) .

- الجاحظ ـ عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) .
البخلاء ، مطبعة دار المعارف ، (القاهرة ١٩٧١) .

ـ الجهشياري ـ أبو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ) .
الوزراء والكتاب ،مطبعة مصطفى الباني الحلبي (القاهرة ١٩٣٨) .

ـ الخوارزمي ـ محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ) .
مفاتيح العلوم ، المطبعة الكمالية ، (القاهرة ٩٧٨).

ـ الدمشقي ـ أبو الفضل جعفر بن علي (ت ٥٧٠هـ) .
الاشارة الى محاسن التجارة ، مطبعة الغد (الاسكندرية ١٩٧٧) .

ـ الصابي ـ ابو الحسن الهلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ) .
تحفة الامراء في تأريخ الوزراء ، مطبعة الآباء اليسوعين (بيروت ١٩٠٤) .

ـ الطوسي ـ أبو جعفر محمد بن الحسين (ت ٤٦٠هـ) .
النهاية في مجرد الفقه والفتاوى ، دار الكتاب العربي ، (بيروت ١٩٧٠) .

ـ الغزالي ـ أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) .
احياء علوم الدين ، دار الندوة الجديدة ، (بيروت : بلا) .

ـ القرطبي ـ عريب بن سعيد (ت ٣٦٦هـ) .
صلة تأريخ الطبري ، مطبعة دار المعارف ، (القاهرة ١٩٨٢) .

ـ الماوردي ـ أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ) .
الاحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٧٨) .

ـ مسكويه ـ أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ) .
تجارب الامم ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، (القاهرة ١٩١٥) .

ـ المقريزي ـ تقي‌الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) .
شذور العقود في ذكر النقود ، منشورات المكتبة الحيدرية ، (النجف : ١٩٦٧) .

ـ وكيع ـ محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ) .
أخبار القضاة ،مطبعة الاستقامة ، (القاهرة ١٩٥٠) .

الجاحظ والامثال العربية

الدكتور عبدالجبار علوان النايلة
كليـة الآداب ـ جامعة بغداد

الملخص

بحث تألف من مقدمة وتمهيد تلته ثلاثة فصول ، ذكر في التمهيد تشييد البصرة سنة ١٦هـ ونشأتها ثم تطوّرها حتى بلغت شأواً بعيداً في العلم والعمران لموقعها الفذ على الخليج العربي لكونها ميناءً بحرّياً ، ومحاذاتها للبادية العربية غرباً جعلها ميناءً برياً ، فكانت مركزاً تجارياً مهماً حتى غدت من أهم مدن العالم الإسلامي في القرنين الثاني والثالث • وجاء الفصل الأول دراسة حياة الجاحظ وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، في البصرة سنة ١٥٠هـ ونشأ بها ، وتلقى علومه على أكابر علماء اللغة والنحو وعلم الكلام • فضلاً عن قراءاته الشخصية للكتب التي كان يلتهمها التهاماً ، حتى غدا كاتباً فذاً فاق أقرانه من كتّاب الدولة العباسية ، وتفنن بالكتابة اذ استطاع أن يكتب في الشيء وضده ، وألف كتبا كثيرة أشهرها : البيان والتبيين والحيوان والبخلاء وعمّر طويلا حتى توفي سنة ٢٥٥هـ •

وكان الفصل الثاني دراسة عن الامثال ، واهتمام الناس بها في كل زمان ومكان لفوائدها الجمّة في تقريب الفكرة الى المخاطب بأوجز كلام ، فضلا عن أنها خلاصة التجارب الانسانية ، فهي من الادب الرفيع الذي ينتقل عبر الاجيال •

لم يغفل الجاحظ أمر الامثال ، اذ أولاها عنايته ، فألّف فيها كتابا وان لم يصل الينا ، فان ما نقرأه في كتبه من أمثال تدلنا على مقدار اهتمامه بها فقد أفاد منها في تآليفه ، فلم يخل كتاب من كتبه من عشرات الامثال ، بحيث

لا نكاد نجد صفحة أو صفحات من كتبه خالية من مثل أو أمثال يأتي بها في موقعها المناسب ، فذكر أمثالا عربيّة قيلت قبل الاسلام ، وأمثالا اسلامية ، وأمثالا بصرية قيلت في زمنه وقد سمعها من أفواه الناس في مسجد البصرة الجامع أو في المربد أو الاسواق ، كذلك ذكر أمثالا للكوفيين ، فكان هذا هو الفصل الثالث والاخير .

تمهيد :

شيد عتبة بن غزوان قائد الجيش العربي الاسلامي (البصرة) موطن الجاحظ في جنوبيّ العراق بأمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة ١٤ الهجرية ، الموافقة للسنة ٦٣٥ الميلادية في أرجح الروايات[١] ، في موقع فذ على طرف البادية الشرقي «في أقصى بلاد العرب وأدنى بلاد العجم »[٢] ، على مقربة من الأُبُلّة ميناء العراق القديم على الخليج العربي . فهذا الموقع الممتاز جعلها مدينة تجارية مزدحمة بسكانها العرب الذين بنوها ، وبمن وفد اليها من الجاليات الاجنبية من مختلف القوميات والاديان الذين سكنوها مع العرب للاشتغال واكتساب الرزق ، فما لبثت البصرة بعد انشائها أن أصبحت مركزا تجاريا مهما اجتذب اليه الناس من بوادي بلاد العرب ، ومن المدن والقرى العربية ، وممن دخل في الاسلام ، أو لم يدخل من مختلف الاديان والقوميات والفرق من الفرس كالاساورة ، ومن الهند والسند كالزط والسيابجة والهنود ، ومن الحبشة الاحباش ، والنبط من منطقة البطيحة ، جاؤوها للاقامة فيها ، ضمن مجتمع كبير فيه مجالات متسعة للعمل في بلد ،

---

(١) ينظر البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٨٤ و ٣٥٤ والطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ٢٣٧٧/٥ وابن الاثير ، الكامل في التاريخ ٣٨٧/٢ ، ٥٢٧ وياقوت الحموي ، معجم البلدان ٤٣٢/١ وابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ص ١٨٨ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٢٣٧٩/٥ ، الكامل في التاريخ ٤٨٦/٢ .

(٣) مختصر كتاب البلدان ص ١٩٠ .

وصف بأنه بلد المفلس والجائع والغريب[٣] ، يسوده حكم عربي اسلامي عادل يتسم بالطمأنينة والاستقرار النسبي ، وسرعان ما تكوّن من ذلك الخليط المجتمع البصري المتميز ذي العقلية المنطقية المتفتحة الى العلوم، فنشأت حركة فكرية عظيمة زاخرة بألوان من الثقافات ، ولاسيما علوم اللغة العربية ، والعلوم الاسلامية ، وعلم المنطق والكلام، فثقافة البصرة ثقافة عربية خالصة تعتمد على القرآن الكريم ، وما يتصل به من صرف ونحو ولغة ، وثقافة يونانية تعتمد على الطب والفلسفة ، وثقافة شرقية[٤] .

وفي العصر العباسي الاول ، ثم الثاني الذي نشأ فيه الجاحظ ، وصلت البصرة الى قمة المجد في العلوم والفنون والتجارة اذ كانت مساجدها تغص بطلاب العلم ، يقصدها الناس من مختلف الاجناس ، ليتفقهوا بالدين ، أو يتلقوا العلوم التي أشرنا اليها آنفا ، فقد بلغت مساجدها ـ كما ذكر اليعقوبي ـ سبعة آلاف مسجد[٥] .

وأما مسجد البصرة الجامع فكان أحسن مثال لمساجد الاسلام ، أسسه (عتبة)وقت نزوله موقع البصرة سنة ١٤هـ ثم توالت عليه أعمال التعمير والتجديد ، حتى صار وقت نشوء العلوم العربية الاسلامية في البصرة ، ثم ارتقائها مركز الاشعاع الفكري في البلاد الاسلامية اذ كان يعج بالعلماء في شتى ميادين العلم والمعرفة ، تغص بهم الحلقات الدراسية التي كانت تعقد تحت أروقته أو في صحنه ، ويتحلق فيها المفسرون والقصاص والمتكلمون واللغويون والنحاة والرواة والشعراء والادباء[٦] .

وكثيرا ما كان النقاش يدور في تلك الحلقات وتعقد المناظرات ، ويحتدم الجدال فيدلي كل عالم بشواهده التي يستند اليها وبحججه للفوز بالفلج[٧]،

---

(٤) ينظر طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ص ٨٩ .
(٥) كتاب البلدان ص٣٦١ .
(٦) ينظر : بحثنا (دور المسجد الجامع البصري في نشر الثقافة العربية) مجلة الجامعة التي تصدرها جامعة الموصل ص ٨٥ .
(٧) ينظر بحثنا : (الحلقات الدراسية للنحويين) مجلة الجامعة ص ٨ .

وكانت الاراء تطرح ، والافكار تناقش ، والمناظرات تقام بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل الذي زخرت بهم البصرة ، وكان الناس يهتمون بما كان يدور في تلك المناضرات ، لانها كانت تنعقد في المسجد الجامع غالبا ، وكان المسجد ملتقى الناس[8] .

ولم تكن الحلقات العلمية كل ما هيأ لازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد كان الى جانبها مجالس ذوي السلطان ، من الامراء وسراة القوم ، اذ كانت أشبه بالندوات العلمية ، كما كان لمربد البصرة الثمن في حضارة البصرة ، وهي سوقها العظيمة التي كانت في أول الامر مربطا للابل حينما نزل العرب بأغنامهم وابلهم فيها ، ثم تطورت الى (ملتقى للادباء) الذين يقصدون من أماكن قصية لالقاء ما جادت به قرائحهم وما ابدعته عقولهم من الشعر والرجز ، فكان بمثابة المنتدى الادبي والفكري والمنبر الذي ينشد الشعراء شعرهم والرجاز رجزهم والخطباء خطبهم من عليه[9] . ثم تحول (المربد) ابان اشتغال العلماء البصريين بدراسة اللغة ، ووضع قواعدها الى محج للأعراب الفصحاء الذين يقصدونه من البادية ، فأصبح المنهل الثر والمنبع الصافي الذي يستقي منه علماء اللغة والنحو مفردات اللغة ومأثور كلام العرب من الشعر القديم والحكمة والامثال[10] .

وهكذا وصلت البصرة الى قمة مجدها العلمي وقت ولادة الجاحظ ونشأته ، فكان من السهولة على النابغين والموهوبين من أمثاله أن يجدوا الفرصة مواتية لهم ، لاظهار نبوغهم ، وتجلية عبقرياتهم ، فبرزت عقول وخلدت أسماء .

---

(٨) ينظر بحثنا : (دور المسجد الجامع البصري ..) مجلة الجامعة ص ٨٦ .

(٩) ينظر بحثنا : (المربد عكاظ العراق) مجلة البصرة التي تصدرها جامعة البصرة ص ٥٨ .

(١٠) ينظر بحثنا : (المربد والسماع) مجلة بين النهرين ، الموصل ص ١٩٩ .

حياة الجاحظ :

في تلك البيئة البصرية العلمية المتفتحة ، وفي ذلك المجتمع الزاخر بمختلف الاقوام والاجناس ، ولد طفل موهوب لـ (بحر بن محبوب الكناني) سماه (عَمْراً) وكناه أبا عثمان ، ثم غلب عليه فيما بعد لقب (الجاحظ) لجحوظ عينيه[11] ، في أسرة بصرية فقيرة تنتسب الى كنانة ثم فُقَيم صليبة أو ولاءا[12] . فهو ــ اذن ــ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي) ، وكان جده أسود يقال له (فِزَارة [13]) .

لم يكن هذا الطفل من أبناء الاسر المعروفة بالثراء أو الجاه أو السلطة، ولهذا لم يؤرخ لولادته ، فاختلف فيها ، ولكن المرجح أن ولادته كانت سنة ١٥٠ هجرية كما ذكر هو عن نفسه؛ وهي موافقة لسنة ٧٦٧ الميلادية[14] .

ولما كانت للعلم منزلة عظيمة في نفوس البصريين يومئذ أرسله والده الى (الكُتّاب) ليتعلم تلاوة القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، وما أسرع ما كشف هذا الطفل عن مواهبه ، وأبان لمن يحيط به عن حدة ذكائه وسعة عقله وقوة ذاكرته وسرعة نباهته ، وكان توّاقا الى العلم ، نزّاعا اليه ، فساعدته تلك البيئة على الوصول الى ما تصبو اليه نفسه من جاه ورفعة ، وحب لتغيير واقعه ، فأخذ يحضر حلقات الدرس في المسجد الجامع بالبصرة وكانت من الكثرة واختلاف التخصص بمكان ، فجمع بين العمل والدراسة ، اذ كان في مطلع حياته يبيع الخبز والسمك في نهر سيحان بالبصرة[15] .

---

(١١) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ٧٤/١٦ ، كانت حدقة عيني الجاحظ ناتئة بارزة عن محجر العين .

(١٢) معجم الادباء ٧٤/١٦ . جعله ابن النديم في الفهرست ص ٢٠٨ مولى لابي الفقعن عمرو بن قطع الكناني .

(١٣) معجم الادباء ٧٤/١٦ .

(١٤) ينظم معجم الادباء٧٤/١٦والامثال العربية القديمة ص١٦٤د. طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره ص ٨٨ .

(١٥) ينظر معجم الادباء ٧٤/١٦ ، والجاحظ حياته وآثاره ص ٨٩ .

تلمذ الجاحظ لعلماء أجلاء من اللغويين والرواة البصريين كأبي عبيدة (ت ١١٠هـ) والاصمعي (ت ١١٥هـ) وأبي زيد الانصاري (ت ٢١٥ هـ)، كما أخذ النحو والصرف عن أبي الحسن الاخفش (ت٢١٥هـ) وكان صديقه. وأما علم الكلام فقد تلمذ لابراهيم بن سيار النظّام (ت ٢٣١ هـ) وأبي الهذيل العلاف (ت ٢٢٦هـ) وبشر بن المعتمر (حوالي ٢٢٦هـ) و ثمامة بن أشرس (ت ٢١٣هـ) وهم رؤوس المعتزلة في البصرة، ولكنه اختص بالنظّام أكثر[١٦]، حتى أصبح هو أيضا من رؤوس المعتزلة، فكوّن فرقة عرفت بـ (الجاحظية)[١٧].

كان الجاحظ الشاب يلتهم كل ما يقرؤه أو يسمعه في حلقات المسجد الجامع البصري من علوم اللغة والنحو والصرف ورواية الشعر والحكمة والامثال، وكذلك العلوم الشرعية وعلم الكلام، ويحفظ ما يدور من نقاش ومحاورات بين اللغويين والنحويين والمتكلمين والمحدثين والفقهاء والمفسرين، وكان يواظب على حضور تلك الحلقات، فذكر في كتبه جانبا مما كان يجري فيها، بل ذكر تاريخ بداياتها، فقال: «أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة وأقرأ فيها القرآن جعفر بن الحسن»[١٨]، كما روى عن الحسن البصري أنه قال: «ان أول من عرّف بالبصرة ابن عباس، صعد المنبر فقرأ سورة الفاتحة ففسرها حرفا حرفا، وكان مثجّا يسيل غربا»[١٩]، وفسر الجاحظ المثج: السائل الكثير، وهو من الثجاج، والغرب: الدوام. وقال الحسن أيضا: «صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفا حرفا»[٢٠]. وفي أول القرن الثاني الهجري عرفت المجالس القصصية في البصرة لقصّاص يحدثون الناس

---

(١٦) ينظر معجم الادباء ١٦/٧٤ـ٧٥ والجاحظ ص ٩٠.

(١٧) ابن خلكان، وفيات الاعيان ٣/٤٧١، عبدالرزاق الرستني، مختصر كتاب الفرق بين الفرق ص ١١٧ـ١١٨.

(١٨) البيان والتبيين ١/٣٦٩، الاعلاق النفيسة ص ١٩٦.

(١٩) البيان والتبيين ١/٣٣١ (هارون). والتعريف في النص بمعنى التعليم.

(٢٠) البيان والتبيين ١/٢٦٢ـ٢٦٣ (سندوبي).

عن العرب في الزمان الاول ، وعن غزوات النبي (صلى الله عليه وسلم) والفتوحات الاسلامية وايام العرب[21] ، فكان الجاحظ يغشى تلك المجالس ويستمع لاولئك القصّاص، فمن مشهوريهم الذين كان يعجب بهم وقد ذكرهم: موسى بن سياء الاسواري من الاساورة الذين ذكرناهم في التمهيد ، قال عنه: «كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيتلو الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحوّل وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرى بأي لسان هو أبين »[22] . وذكر شخصا آخر يدعى (عمرو بن قائد) وهو أسواري أيضا ، فقال عنه : « انه قصّ ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لانه كان ــ كما قال الجاحظ عنه ــ ربّما فسّر آية واحدة في عدة أسابيع ، كأن الآية ذكر فيها يوم بدر ، وكان يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الاحاديث كثيرا ، وكان يقص في فنون من القصص ، ويجعل للقرآن نصيبا منه ، وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ، ويحتج به»[23] ، وذكر قصّاصا آخرين، منهم ابوالعباس الضرير ، قال الجاحظ عنه : «لم يدرك في القصّاص مثله »[24] .

كان المسجد يعجّ بالناس من مختلف الطبقات ، ومنهم من كانوا يلازمونه حتى عرفوا ونسبوا اليه ، فسمّوا «المسجديين» ، وقد ذكرهم الجاحظ في كتبه غير مرة اذ كان يجالس شبانا منهم في حداثة سنه[25] ، كما أدرك رواتهم[26]. وقد أدت حلقاته العلمية ومجالسه خدمات جلّى في نشر الثقافة العربية وتخريج

(٢١) ينظر طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ص ٣٥ .
(٢٢) البيان والتبيين ١/٢٨٤ (سندوبي) .
(٢٣) البيان والتبيين ١/٢٨٤–٢٨٥ (سندوبي) .
(٢٤) البيان والتبيين ١/٢٨٥ (سندوبي) .
(٢٥) كتاب الحيوان ٣/٥٣٥ .
(٢٦) البيان والتبيين ٣/٢٠٥ (سندوبي)

علماء أفذاذ ، وكانت أهم معهد للعلم تخرج فيه الجاحظ بعـد (الكتّـاب) في طفولتـه •

ولم يفت الجاحظ أن يختلف الى (المربد) وهي السوق التي كانـت فـي زمانه موئل الفصحاء ومحج الأعراب القادمين اليهـا من بوادي الجزيـرة العربية ، فيشافه الاعراب ويسمع منهم اللغة ، وما ينشدونه من مرويات العرب ومأثور كلامهم من الشعر والحكمة والامثال ، وكان يلتذ لسماع أحاديثهـم، فهو القائل : « انه ليس في الارض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ولا أجمع تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء »[٢٧] • وعـن الأعـراب تلقف الجاحظ الفصاحة شفاها في المربد ــ كما ذكر ياقـوت الحمـوي ــ فكان من أفصح الناس[٢٨] •

ولم يكتف الجاحظ بذلك بل اتجه الى الكتب يقرؤها في دكاكين الوراقين ليلا ، اذ كان يكتريها ويبيت فيها للنظر[٢٩] • وثقافة الكتب عادة لاتحد بحدود، ولا تجمعها نزعة معينة ، وانما تحوي كل الثقافات والاراء على اختلافهـا ، فكان الجاحظ مشغوفا بقراءة الكتب يلتهمها التهاما ، وكان اذا وقـع بيـده كتاب قرأه من أوله الى آخره أي كتاب كان[٣٠] •

وهكذا أحسنت تلك البيئة العلمية تخريج الجاحظ أحسن تخريـج اذ كان لديه استعداد لتقبل العلم ، فضلا عما وهبه الله من ذاكرة قـوية وعقـل رزين وذكاء حاد ، فغدا كاتبا من الطراز الاول فاق كتّاب عصـره أمثـال : ابراهيم بن العباس الصولي ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حُمَيد وأبي العباس بن

---

(٢٧) البيان والتبيين ١/١٣٣ (سندوبي) •

(٢٨) معجم الادباء ٧٤/١٦ •

(٢٩) ينظر معجم الادباء ١٥٨/١٦ــ١٥٩ •

(٣٠) ينظر ابن النديم ، الفهرست ص ٢٠٨ ،ومعجم الادباء ١٧٥/١٦ •

ثوابه[٣١] ، واختلف عنهم في أنه تناول كل علم ومارس كل فن ، فهو راوية، متكلم ، فيلسوف ، كاتب ، مصنّف ، مترسل ، شاعر[٣٢] ، مؤرخ ، عالم بالحيوان والنبات ، وصّاف لأحوال الناس ، ووجوه معايشهم ، واضطرابهم، وأخلاقهم ، وحيلهم ، وأمثالهم[٣٣] . عرض « لكثير من المسائل التي لم يفكر فيها أحد غيره ، وفتح للناس أبوابا كثيرة في أمور شتى لم يكن من تقدمه من العلماء والكتّاب وأهل الادب يحسبونها مما يدخل في صنوف الاداب ،فكان أول من بحث في طبائع الاشياء كالحيوان والنبات والمعادن »[٣٤] ، واهتم برواية الشعر والامثال ، ومن يقرأ كتابا له في علم ما ، يظن كل الظن أنه هو الواضع لذلك العلم ،ولا يحسن سواه ، وامتاز بأسلوب اتسم بالواقعية، اذ ذكر واقع عصره ومجتمعه ، فصوّره على حقيقته بفضائله وشروره ، مختارا الالفاظ المناسبة لواقع من يتحدث عنه ، مستعينا بالامثال وكلام المولّدين والعوام ، على ما فيه من خطأ أو لحن ، كما صور حركات من تحدث عنه واشاراته ، واهتم بها ،وذلك لحرصه على نقل الواقع الى قرائه بصورة حية متحركة[٣٥] . ولا يخلو كلامه من الاستطراد ، اذ ينتقل من غرض الى غرض، ويستعين بالنوادر متعمدا وبالامثال ليصرف الملل عن القارىء[٣٦] . وأحد أسباب الاستطراد غزارة العلم والتمكن منه .

عاش الجاحظ عمرا طويلا متمتعا بفضل علمه وأدبه في قصور الخلفاء، والوزراء والكتّاب ، كمحمد بن عبدالملك الزيات ، ومن بعده ابن أبي دؤاد.

---

(٣١) ينظر د. شوقي ضيف ،تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الثاني ص ٦٥٢ .

(٣٢) ينظر (شعراء بصريون) للدكتور محمد جبار المعيبد ، ط (١) بغداد سنة ١٩٧٧ ص ٧٥.

(٣٣) ينظر الجاحظ ، حياته وآثاره ص ١٠٢ .

(٣٤) البيان والتبيين ، (مقدمة حسن السندوبي) ١/٧ـ٨.

(٣٥) ينظر البيان والتبيين (مقدمة حسن السندوبي) ١/٩ .

(٣٦) معجم الادباء ١٦/٧٦ .

وكان متنعما بأعطياتهم وما كانوا يغدقون عليه من صلات وهبات[٣٧] • غير أنه في أواخر عمره أصيب بالفالج • وفي المحرم من سنة خمس وخمسين ومائتين توفي في البصرة ،وهي السنة الموافقة لسنتي٨٦٨ـ٨٦٩ الميلاديتين[٣٨]، بعد ان ترك تراثا ضخما من الكتب ضم أكثر من مائتي كتاب في مختلف الاغراض أهمها كتاب الحيوان والبخلاء والبيان والتبيين• قال المسعودي: «لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم اكثر كتبا منه»[٣٩] • فكان الجاحظ كاتبا موسوعيا متعدد الجوانب ، قال ياقوت الحموي : « واذا تدبّر العاقل المميّز أمر كتبه علم انه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان ، ومعرفة اصول الكلام وجواهره ، وايصال خلاف الاسلام ومذاهب الاعتزال الى القلوب ــ كتب تشبهها »[٤٠]• وقال القاضي الفاضل : «ما منّا معاشر الكتاب الا من دخل كتب الجاحظ الحارة ، وشن عليها الغارة ، وخرج وعلى كتفه منها كارة»[٤١] ، فكتبه ــ كما قال ياقوت : تعلّم العقل أولا والادب ثانيا»[٤٢] •

ورجل كالجاحظ الذي غدا من أعلام كتّاب العربية ، فذاع صيته ، وطبقت شهرته الآفاق ، واتصل بالخلفاء والامراء والوزراء، لم يخل من الحسّاد والناقدين قديما وحديثا ، فقد قيل : ان بعض كتبه تأثرت بما ترجم من علوم اليونان[٤٣] ، كما قيل: « ان علاقاته الشخصية وأهواءه السياسية وميوله المذهبية ، تترك [كذا] آثارها في كتبه بوضوح •• فتشنيعه على أبي يوسف الكندي في كتاب البخلاء صدى واضح لعلاقتهما الشخصية»[٤٤]•

---

(٣٧) المسعودي ، مروج الذهب ١٩٥/٤ ، وفيات الاعيان ٤٧٣/٣ـ٤٧٤ •
(٣٨) رودلف زلكايم ،الامثال العربية القديمة ص ١٦٤ ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ١٠٧/٣ •
(٣٩) مروج الذهب ١٩٥/٤ •
(٤٠) معجم الادباء ٧٦/١٦ •
(٤١) البيان والتبيين (مقدمة حسن السندوبي) ١١/١ •
(٤٢) معجم الادباء ١٠٧/١ •
(٤٣) د. ابراهيم سلامة، بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ٧٠•
(٤٤) الدراسات النحوية واللغوية ص ٨٨•

وقيل أيضا : انه كان كثير الاستطراد كثير الاستشهاد ، ولولا ذلك لكانت كتبه أقل حجما مما هي عليه[٤٥] . ورد هذا المذهب بأنه «يدل على سعة اطلاعه وتبحره في معارفه ، وعلى حفول صدره بشتى المسائل والمعلومات»[٤٦]. وكان البغدادي من أشد الناقدين له ، اذ قال: « كتب الجاحظ ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ، وكان له من الكتب كتاب في حيل اللصوص يعلّم الفسقة وجوه السرقة ، وكتاب غش الصناعات أفسدبه على التجار سلعهم ، وكتاب في (النواميس) جعله ذريعة للمحتالين على ودائع الناس وأموالهم و.. و .. »[٤٧] .

على أن الناقدين قلة بالاضافة الى المنتصرين للجاحظ ، وكان المسعودي ممن أنصف الجاحظ من الاقدمين ــ مع مخالفته له في المعتقد ــ فكان الرجل موضوعيا حين قال : « كتب الجاحظ ــ مع انحرافه المشهور ــ [أي لايميل الى الشيعة] تجلو صدأ الاذهان وتكشف واضح البرهان ، لانه نظمها أحسن نظم ، وصفها أحسن وصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارىء وسأمة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة»[٤٨] .وهذه شهادة حق بحق الجاحظ وكتبه .

اهمية الامثال لدى الناس

معنى المثل في اللغة وفي الاصطلاح :

المثل في اللغة : الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعله مِثْلَهُ . وفي الصحاح : ما يضرب به من الامثال .. ويقال : تمثل فلان ، ضرب مثلا ، وتمثل بالشيء : ضربه مثلا[٤٩] . وفي مجمل اللغة : المِثْل : النظير . والمَثَل :السائر

(٤٥) ينظر مقدمة حسن السندوبي ، البيان والتبيين ٧/١ .
(٤٦) المصدر نفسه ٧/١ .
(٤٧) مختصر كتاب الفرق بين الفرق ص ١١٧ــ١١٨.
(٤٨) مروج الذهب ١٩٥/٤ــ١٩٦ .
(٤٩) لسان العرب (مثل) ٦١١/١١ــ٦١٢ .

من أمثال العرب[٥٠] . وقال الخليل : « المَثَل : الشيء الذي يضرب لشيء فيجعل مثله »[٥١] .

وأصل المثل ـ كما قال أبو هلال العسكري [٥٢] ـ التماثل بين الشيئين في الكلام ؛ كقولهم : كما تَدين تُدان ؛ وهو من قولك : هذا مَثَل الشيء ومثله ،كما تقول : شبهه وشبيهه : ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا . وقال ابن السكّيت : «المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ شَبّهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره»[٥٣] . يفهم من اشتقاق كلمة (المثل) شيء اكثر من (التمثيل) ومعناه تشبيه شيء بشيء . وقد وجد المثل بالطبع ، قبل أن يعرف بهذا الاسم ، ويسمّى به بزمان طويل»[٥٤] .

أهمية الامثال وفوائدها :

وقد أجمع العلماء على مدح الامثال واطرائها لعظم فوائدها ، ولحاجة الناس ، ولا سيما الادباء والكتاب اليها ، قال ابن عبد ربه : « الامثال : وَشْيُ الكلام ، وجوهر اللفظ وحلي المعاني .. تخيّرتها العرب .. ونطقت بها في كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها ،حتى قيل : أسْيَر من مَثل ، وقال الشاعر :

ما أنتَ إلا مَثَلٌ سائرٌ   الجاهِلُ يعرفهُ والخابِرُ »[٥٥]

فالامثال ـ كما قال أبو عبيد ـ حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية

---

(٥٠) أحمد بن فارس ، المجمل في اللغة ٣٠٩/٤ .
(٥١) كتاب العين ٢٢٨/٨ .
(٥٢) جمهرة الامثال ص ٧.
(٥٣) مجمع الامثال للميداني ص ٩.
(٥٤) رودلف زلهايم ،الامثال العربية القديمة ص ٢٢ .
(٥٥) العقد الفريد ٦٣/٣ .

غير تصريح »[٥٦]، فلم تزل «الحكماء والعلماء والادباء يضربون الامثال ، ويبيّنون للناس تصرف الاحوال ، بالنظائر والاشباه والامثال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا ، واقرب مذهبا .. ولذلك جعلت القدماء أكثر آدابها ، وما دوّنته من علومها ، بالامثال والقصص عن الامم ، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش، وانما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها ، والمقدمات مضمومة الى نتائجها »[٥٧] ، فكانت تضمن أشعارها وأقوالها الأمثال والحكم فتزينها كقول أبي ذؤيب من قصيدة :

فلاتكُ كالثورِ الذي دُفِنَتْ له حديدةُ حتفٍ ثمّ أمسى يثيرها

وبعضهم نظم القصائد كلها من الامثال كارجوزة أبي العتاهية التي سمّاها : ذات الأمثال[٥٨]. وكثير من شعر المتنبي يشتمل على الأمثال السائرة، وأمثال الشريف الرضي من الشعر التي ضمها كتاب .

واذا نظرنا الى الأمثال من زاوية الدراسات النحوية وجدنا الامثال العربية القديمة « من بقايا أقدم النثر العربي ، لما يبدو أن بعضها كان سائراً مشهورا»[٥٩] قبل الاسلام ، وذلك لان «ايجاز اللفظ مع وفاء الدلالة ساعد على احتفاظ الحكم والامثال بصيغتها الاصلية»[٦٠] وهذا ماجعل النحويون يستشهدون بكثير من الامثال ، فهي الانموذج النثري الذي استراحوا اليه وجعلوه من شواهدهم المعتمدة[٦١] .

وفضلا عما ذكرنا فان الامثال تكسب الكلام سحرا وروعة وجمالا وبلاغة ، واذا ما أهمك أمر ، أو اعتراك جذل ، أو دهشت لحادث فستجد نفسك تنطق لاشعوريا بمثل ، وكأن طبيعتك الانسانية تذكرك ان موقفك هذا

---

(٥٦) جلال الدين السيوطي ، المزهر ٤٨٦/١.
(٥٧) الحسين بن وهب ، البرهان في وجوه البيان ص ١٤٥-١٤٦ .
(٥٨) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ٤٧/١ .
(٥٩) كارل بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ١٢٩/١ .
(٦٠) ولفنسون، اللغات السامية ص ٢١٢ .
(٦١) ينظر الشواهد والاستشهاد في النحو ص ٣٠.

شبيه بموقف من ضرب المثل ، وان لفظه هذا هو الذي يعبر عنك ، ويشفي جواك[٦٢] ولا اظن انك ستنكر الاثر الايجابي الفعال الذي ستحدثه في مخاطبك حينما تسند ماتقوله الى مثل ، فستجد لديه الكثير من الارتياح والتفهم والقبول ، وسيغنيك ايجاز المثل عن مؤونة الشرح والاسهاب .

وكفى بالامثال شرفا وفخرا أن كتاب الله عز وجل وهو أشرف الكتب وأجلها لم يخل منها ، قال الله تبارك وتعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل)[٦٣] ، وقال تعالى : (كذلك يضرب الله الأمثال)[٦٤] ، وقال تعالى : (وكلا ضربنا له الأمثال)[٦٥] ، وقال تعالى : (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له...)[٦٦] وقال تعالى: (مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ..)[٦٧] .

كما ان حديث الرسول الكريم محمد(صلى الله عليه وسلم)«وهو أفصح العرب لسانا واكملهم بيانا وارجحهم في ايضاح القول ميزانا لم يخل في تبشيره وانذاره من مثل يجوز قصب السبق في حلبة الأيجاز ويستولي على الحسن في صنعة الأعجاز »[٦٨]. فقال عليه الصلاة والسلام : (إياكم وخضراءَ الدِّمن ، قالوا : وما خضراءُ الدِّمن يا رسولَ الله ؟ قال : المرأة الحسناءُ في المنبتِ السّوء[٦٩] . وقال أيضا : (مَثَلُ الجليسِ الصّالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إمّا أن يجذبك وامّا أن تبتاع منه ، وأما أن تجد منه ريحا طيّبا ، ونافخ الكير إمّا أنّ يحرق ثيابكَ واما أن تجدَ منه ريحاً خبيثة)[٧٠] . وفي احتواء كلام الله سبحانه وتعالى وكلام نبيّه الأمين (صلى الله عليه وسلم) على كثير من الامثال دليل أيّما دليل على أهمية الامثال وفوائدها .

---

(٦٢) ينظر ابو منصور الثعالبي التمثيل والمحاضرة ص ٢٣ لمحقق الكتاب .
(٦٣) سورة الزمر من الآية ٢٧ .
(٦٤) سورة الرعد من الآية ١٧ . (٦٥) سورة الفرقان من الآية ٣٩ .
(٦٦) سورة الحج من الآية ٧٣ . (٦٧) سورة الجمعة من الآية ٥.
(٦٨) مجمع الامثال ، مقدمة الميداني ١/٥ .
(٦٩) العقد الفريد ٣/٦٤ . (٧٠) مجمع الامثال ، مقدمة الميداني ١/٦

ولهذا عني العرب في جمعها لانها من جملة ما احتاجوا اليـه في تحقيق ألفاظ اللغة ، « فالحظوة التي نالتها عند اللغويين والادبـاء ، أدّت الى تأليف الكثير من الكتب فيها ، وتخصيص الفصـول الكاملـة لهـا في كثير من كتب الادب ، وبث ما لا حصر له من الامثال وقصصها ، في تضـاعيف الاعمال الادبية الوفيرة »(٧١) .

يرجع الاشتغال في تأليف كتب الامثال الى عهد مبكر ، فقد ذكـر ابـن النديم أن أول من وضع كتابا في الامثال (عبيد بن شرية الجرهمي) وذلك في زمن معاوية ،وكان عبيد ممن أدرك النبيّ محمداً (صلى الله عليه وسلـم) ولكنه لم يسمع منه شيئا ، وقد رأى ابن النديم ذلك الكتـاب(٧٢) . وممـن ألّف في الامثال كتابا : علاقة بن كريم الكلابي ، وصحار بن عيـاش العبدي، أحد النسّابين والخطباء من الخوارج ، وكان معاصرا لعبيد(٧٣) . وجمع ابن خلاد الرامهرمزي أمثال النبي (صلى الله عليه وسلم) في كتاب(٧٤) ، ويظهـر أن هذه الكتب فقدت ، فلم تصل الينا ، ولذا جهلنا محتوياتها .

وبعـد سقوط الدولة الأموية ، وانتقـال المركـز الحضاري للـدولة الاسلامية الى العراق ، نشأت مدارس العلماء التي اشتهرت فيما بعـد فـي البصرة والكوفة ، فألف علماؤها الاوائل كتبا في الامثال . وأقـدم كتـاب في الامثال ما وصل الينا كتـاب المفضّل الضّبي الكوفـي المتوفى في حدود سنة ١٧٠هـ ويشتمل الكتاب على مجموعة من الحكايات ، والنبذ التاريخيـة التي تنتهي بعبرة على لسان بطل الحكاية أو خصمه ، فتصير تلـك العبـارة مثلا»(٧٥) . وقد اتسع نطاق الامثال بعد المفضل ، فشملت ضروبا اخرى مثل الحديث والحكمة والشعر ، وتعددت المؤلفات فيها وازداد عددها على مـرّ

(٧١) الامثال العربية القديمة ص ١١ . (٧٢) ينظر الفهرست ص١٠٢ .
(٧٣) ينظر الفهرست ص١٠٢ . (٧٤) الفهرست ص ١٧٢ .
(٧٥) ينظر الامثال العربية القديمة ص٧٢-٧٣ .

الزمن ، وتفرعت في ثلاثة أقسام في الاقل : الامثال القديمة ، وامثال المولّدين ، وأمثـال العامة[٧٦] .

ثم جاء الجاحظ فشارك فيما بدأ به أسلافه من المـؤلفين في التـأليف بالامثال ، فاهتم بها أيّما اهتمام فجمع أمثال الامام علي بن أبي طالب (رضوان الله عليه) في كتاب[٧٧] وكذلك جمع ما أمكنه جمعه من الامثال التي نقلها مـن الكتب ، أو سمعها بنفسه من أفواه الناس في كتاب[٧٨] ، غير أن الكتابـين لم يصلا الينا لكي نعرف ما فيهما .

الجاحظ والامثـال العربيـة:

أما وقد عرفت شأن الامثال العربية ، فما موقف الجاحظ منها ؟

ان الجاحظ الذي عرفناه من خلال سيرته التي تقدم ذكرهـا ، أديبـا كبيرا وكاتبا موسوعيا فذا اذ « لم تعرف العربية كاتبا فرض نفسه على عصره والعصور التالية وملأ الدنيا بملكاته النادرة ، لم يغفل هذا النـوع من الادب الرافي»[٧٩] (الامثال) ، اذ انه عرف مكانه الامثال بين ضروب الادب ، وقدّر أهميتها بين الفنـون الادبيـة ، كما لاحظ مـدى اهتمام الناس على اختلاف طبقاتهم ومعارفهم ومنازلهم بها وتداولهم اياها وروايتها ، وعـرف فوائدهـا الجمة ، لهذا أولاها عنايته البالغة ، وقد ذكرنا آنفا وضعه كتابا فيهـا ، كما أنه أفاد من مزاياها وفوائدها ايّما افادة ، اذ ملأ كتبه العديدة المختلفة بالامثال العربية التي قيلت في قديم الزمان ، أو الامثال الاسلامية ، أو الامثـال التي كان الناس يضربونها ، أو يتداولونها في زمنه ، فسمعها منهم ، ثم حفظهـا في ذاكرته القوية ، فاستعملها بكثرة مستفيدا من مزاياها في تقـريب أفكـاره

---

(٧٦) المفضل الطبي ،امثال العرب / مقدمة المحقق ص ٥.

(٧٧) ينظر ابن قتيبة ، عيـون الاخبار ، المجلد ٢/٧٥ وتاريخ الادب العربـي ، بروكلمـان ١/١٧٩ .

(٧٨) معجم الادباء ١٦/٧٧ .

(٧٩) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ص ٦١٠.

وما يريد قوله وتوضيحه للقراء ، أو كان يزيّن بها الاخبار ، كما انه كان يوردها للدعابة ، أو لاظهار أحوال مجتمعه وطبائع أفراده وعاداتهم وافكارهم، أو يضربها لاجل ما فيها من الحكمة والعبرة والموعظة ، لان الامثال خلاصة التجارب ، وكذلك كان أحيانا يشرح المثل ويبيّن سبب ضربه ، ويذكر أول من قاله .

لقد أكثر الجاحظ من أيراد الامثال اكثارا يلفت النظر ، ففي كتاب الحيوان وحده أكثر من ثلثمائة مثل[80] ، على أن الكتاب ضخم ، ضم سبعة أجزاء ، ولكن في رسالة صغيرة له كرسالة (التربيع والتدوير) نجد فيها أمثالا كثيرة ، ففي مقدمتها ذكر كثيرا من الامثال ، فقال : « .. كأنه لم يسمع بقولهم : (من جادلَ قاتلَ) ، و (عاداك من لاحاكَ) و (الخلاف شر") ، و (اذا عزّ أخوك فهُنْ) ، و (أزهى من غراب) ، و (فلان" أخلفُ من بولِ الجمل)[81] . وهو القائل : « وانما اعتمدنا في هذه الكتب [ويعني بها أجزاء كتاب الحيوان] على الاخبار عما في أجناس الحيوان من الحجج المتظاهرة وعلى الادلة المترادفة .. حتى صار الناس لا يضربون المثل الا بها ، ولا يذمّون ولا يمدحون الا بما يجدون في أصناف الوحش من الطير وغير ذلك ، فقالوا : أحذر من عقعق ، واحذرُ من غراب ، وأسمعُ من فرس .. وأخدع من ضبّ »[82] . وقال أيضا : « وقد سمعنا في المثل : (أحمق من راعي ضأن ثمانين)[83] ، وقال في مقدمة كتابه (الرد على المشبّهة) : « وقد كتبت ــ مدّ الله في عمرك في الرد على المشبّهة كتابا لا يرتفع عند الحاذق المستغني ، ولا يرتفع عنه الريّض المبتدىء .. وقد بيّنت ذلك بالوجوه القريبة والدلالات المختصرة ، والاشعار الصحيحة والامثال السائرة .. »[84] . فالجاحظ ــ اذن ــ يقدر الامثال حق قدرها ، ويعرف ما لها من مزايا جمة ،

---

(٨٠) ينظر معجم الادباء ٧٧/١٦ . (٨١) ينظر ص ١١ .
(٨٢) كتاب الحيوان ٩/٧ ــ ١٠ .
(٨٣) كتاب الحيوان ٤٨٨/٥ ، البيان والتبيين ٢٤٨/١ .
(٨٤) الرد على المشبهة والمسائل والجوابات في المعرفة ص ٥ .

واستعمالات مفيدة ، وها هو ذا يقول : «وكانت الملوك اذا أتت ما يجل عن المعاتبة عليه ضربت لها الامثال وعرّض لها بالحديث ، وقال الشاعر : [يزيد بن مفرّغ]

العَبدُ يُقرعُ بالعصَا والحرّ تكفيه الملامَة »[85]

ويبين الجاحظ لنا كيف أن الامثال تؤثر في أعراف الناس وعاداتهم لكثرة تداولهم اياها وترددهم لها عند مناسباتها ، واتخاذهم اياها سندا وحجة : «وما زالت العاريّة مؤداة ، والوديعة محفوظة ،فلما قالوا : (أحقّ الخيلِ بالركض المُعَار) ، بعد أن كان يقال : (أحقّ الخيل بالصونِ المُعار) ، وبعد أن قيل لبعضهم : ارفق به ، فقال : انه عاريّة ، وقال الآخر : فقل : فسدت العاريّة وانسد الباب »[86] . ومما يدلّ على اعتماده على الامثال قوله في وصف الكتاب ضاربا فيه مثلين ، فقال « وعاء مليء علما وظرف حُشّي ظرفا ان شئت كان أعيى من باقل ، وان شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، ومن ذلك بستان يحمل في كم وروضة تقلّب في حجر ، ينطق عن الموتى ويترجم عن كلام الاحياء»[87] . فقوله : أعيى من باقل ، وأبلغ من سحبان وائل ، مثلان من أمثال العرب قبل الأسلام . وقال متحدثاً عما لقيه من عناء في تصنيف كتاب الحيوان ، وذكر أنه لو ألّف كتابا في عرض آخر لما لجأ الى تلفظ الاشعار وتتبع الامثال ، واستخراج الآي من القرآن[88] . وأختم حديثي عن اهتمام الجاحظ بالامثال واعتماده عليها بدليل آخر هو انه كان يستعين ــ أحيانا ــ بالامثال مباشرة في ردّه على من عابه في كتبه فقال : قالوا في المثل المضروب : رمتني بدائها وانسلّت »[89] .

---

(85) رسائل الجاحظ (كتاب الحجاب) ص31 .

(86) كتاب البخلاء ص207 .

(87) ابو منصور الثعالبي ، خاص الخاص ص 9 .

(88) ينظر كتاب الحيوان 209/4 .

(89) كتاب الحيوان 16/1 .

اهتمام الجاحظ بالامثال واستناده اليها:

هذه أمثال عربية التقطتها من كتب الجاحظ تدلنا على كثرة اهتمامه بالامثال ، واستناده اليها في كثير من القضايا والمسائل التي أوردها لافهام القارىء وجهة نظره ،واقناعه بما يريد ، وهذا من مزايا الامثال كما ذكرنا . كما تتبين من خلال عرضنا هذه الامثال سعة عقل الرجل ، وبعد معرفته بالحياة ، وكثرة اطلاعه ، وغنى تجاربه ، قال متحدثا عن الكتب وعما يلقاه مؤلفوها ممن هم دونهم في العلم من حسد : «ان الكتب عقول قوم وراءها عندهم حجج لها ، فما ينبغي أن يقضى على كتاب الا اذا كان له مدافع عنه، وخصم يبين عما فيه ؛ فان أبناء النعم محسودون ، وقد قيل في مثل من الامثال : الحَسَنُ محسود ، وفي مثل آخر : لن تعدم الحسناء ذاماً ، والذام هو العيب[90] .

وعند كلامه على المال أنشد لعدد من الشعراء قولهم في الحث على الافادة منه وانفاقه في وجوهه ، من ذلك قول الشاعر :

من يَجمعِ المالَ ولا يُثِبْ به ويتركُ العامَ لعامِ جَدْبِهِ
يهُن على الناس هوانَ كَلْبِهِ

ثم ذكر أمثالا كثيرة ، منها قوله : «وقد قيل في المثل : (الكدّ قبل المدّ). وقال لقيط : (الغزو أدرّ للقاح وأحد للسلاح ..) وقالوا في عذل المصلح ولائمة المقتصد : (الشحيح أعذر من الظالم) ، وقالوا : (ليس من العدل سرعة العذل) ، وقالوا : (لعل له عذرا وانت تلوم) ، وقالوا : (ربَّ لائم مليم). وقال الاحنف : (ربَّ ملوم لا ذنب له)[91] .

وتحدث عن كتمان السر ناصحا المرء أن يكتم سره دفعا لأذى يناله من جرّاء افشائه لكل انسان : « واذا أفشيت سرّك فجاءت الامور على غير ما تقدّر كان ذلك منك فضلا من قولك على فعلك . وقد قيل في الامثال :

---

(٩٠) رسائل الجاحظ ، (رسالة الى ابي الفرج) ص ٣٤٤ .

(٩١) كتاب البخلاء ص ١٨٧ .

(من أفشى سرّه كثر المتآمرون عليه) ، فلا تضع سرك الا عند من يضره نشره كما يضرك ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك »[٩٢] .

ومن الامثال العربية التي استند اليها الجاحظ في نصح المرء عند اتخاذه صديقا من الناس ، قوله : «واعلم أنك موسوم بسيما من قاربت ومنسوب اليك أفاعيل من صاحبت ، فتحرّز من دخلاء السوء ، ومجالسة أهل الرِّيب ، وقد جرت لك في ذلك الامثال ، وسطرت لك فيه الاقاويل ، فقالوا : (المرء حيث يجعل نفسه)وقالوا : (يظن بالمرء ما ظن بقرينه) ، وقالوا : (المرء بشكله، والمرءُ بأليفهِ »[٩٣] . وهذا ما عرفه علماء الاجتماع المحدثين ، اذ يقولون : أخبرني عن أصدقائك ، أقل لك من أنت !

وذكر الجاحظ امثال العامة عن المعلمين ، وفي دفاعه عنهم جعلهم ثلاث طبقات ــ مؤدبي أولاد الملوك ومؤدبي الخاصة ــ ومعلّمي كتاتيب القرى، وذكر بضعة نفر من كبار المؤدبين في العصر الاموي كالجُهني والشعبي وعبدالصمد بن عبدالأعلى والكميت بن زيد الاسدي وقيس بن سعد وعطاء بن أبي رباح وعبدالحميد الكاتب[٩٤] ، نعم لقد فرق بين الاساتذة المؤدّبين وبين معلمي الكتاتيب الذين لم يبلغوا مكانة في العلم والتأديب . وقال : « فكيف تستطيع أن تزعم ان مثل علي بن حمزة الكسائي ، ومحمد بن المستنير الذي يقال له قُطرب، وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ؟ ولايجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم »[٩٥] . وقال : ان امثال العامة قد لاتصدق على الطبقة التي ينتمي اليها كبار العلماء والفقهاء وقادة الافكار ، لان العامة ــ كما ذكر ــ تقول : أحمق من معلّم كتّاب . وقول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء[٩٦] .

---

(٩٢) رسائل الجاحظ (رسالة المعاش والمعاد) ص ١١٦ــ١١٧ .
(٩٣) المصدر نفسه ص ١٢٦ .
(٩٤) ينظر انيس المقدسي ،امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٣٦.
(٩٥) البيان والتبيين ١/٢٥٠ــ٢٥١ (هارون) .
(٩٦) ينظر البيان والتبيين ١/٢٤٨ (هارون) .

ومن الامثال التي رواها الجاحظ في كتاب الحيوان مثل اتخذه النحويون شاهدا ، وذلك قولهم : إنْ ذهبَ عَيْرٌ فعيرٌ في الرباط[٩٧] ، وقد استشهدوا به في (المبتدأ والخبر) مسألة الابتداء بالنكرة . والرباط : حبالة الصائد . يقال للصائد : إن ذهب عير فلم يعلق في الحبالة، فاقتصر على ما علق . يضرب في الرضا بالحاضر[٩٨] .

من أمثال البصريين والكوفيين:

ومن بين الامثال التي ذكرها الجاحظ مثل كان البصريون يرددونه عندما يرون عدم حصول أمر ما البتة ، وآخر في معناه لأهل الكوفة ، وكل منهما ضرب نتيجة حادثة تاريخية ، والحوادث مصدر مهم من مصادر نشأة الامثال، قال الجاحظ : «وقالوا في المثل : (لا يرجع فلان حتى يرجع غراب نوح) ، وأهل البصرة يقولون : (حتى يرجع نشيط من مرو)[٩٩] وكان نشيط غلاما لزياد بن أبي سفيان ، وكان بناءاً متقنا ، هرب الى (مرو) قبل أن يتم بناء قصر زياد ، وكان زياد لا يرضى الا عمله . فقيل له: ألا تتم بناء قصرك؟ فقال: حتى يجيء نشيط ، فصار مثلا لكل ما لا يتم . وقال بعض أهل البصرة :

الى ما يوم يبعث كل حي ويرجع بعد من مَروٍ نشيط»[١٠٠]

وقال : «وأهل الكوفة يقولون : حتى يرجع مصقلة من سجستان ،ورواه أيضا : من طبرستان »[١٠١] .وأما (مصقلة) فله قصة أيضا ، اذ كان قائدا أرسله معاوية بن أبي سفيان الى طبرستان في جيش كثيف ، فهلك هو وجيشه في كمين نصبه لهم العدو ،فضرب الناس به المثل ، يضرب في الاستحالة من

(٩٧) كتاب الحيوان ١/٢٥٧.
(٩٨) كتاب الحيوان ١/٢٥٧ هامش (٢) لمحقق الكتاب .
(٩٩) كتاب الحيوان ٢/٣١٨ و ٥ / ٥٢٨ .
(١٠٠) ينظر الميدالي ، مجمع الامثال ١/٢٢٦.
(١٠١) ينظر كتاب الحيوان ٥/٥٢٩ .

حدوث أمر بعينه[١٠٢] • ومثل هذين المثلين مثل قديم للعرب أورده الجاحظ في المعنى نفسه ، ولكن على لسان الحيوان ، وذلك قولهم : (لا آتيك سنّ الحَسَل) ، وقال العجّاج :

ثمّت لا آتيهِ سنّ الحَسَل

كأنه قال : حتى يكون ما لايكون ، لان الحسل لايستبدل بأسنانه أسنانا[١٠٣].

والامثال العربية تراث الامة تتناقلها الاجيال جيلا بعد جيل ، وتضيف اليها ما يستجد من جديد الامثال التي تضرب نتيجة الاحداث المهمة ، أو التجارب أو الحكايات الحقيقية أو الخيالية ، ولذلك وجدت في الامثال العربية القديمة مثلا للعرب في معنى مثل البصريين والكوفيين في استحالة حصول الشيء وذلك قولهم : (حتى يرجع السهم على فوقه) • وهذا مستحيل لان السهم يمضي قدما[١٠٤] • ويحضرني في هذه المناسبة ذكر مثل بغدادي يدور على ألسنة العوام يضربونه في استحالة حدوث الشيء ، وذلك قولهم : (حتى يبيضَ الديكُ) •

ومن المعلوم أن الامثال تنشأ لتعبر عن حقائق يعرفها الناس واتفقوا اجماعا عليها ، فمن الامثال التي ضربت في البصرة ـ على ما أظن ـ قول هشام بن حسان : (الوحدة خير من جليس السوء) • وهشام بن حسان الازدي الفردوسي البصري كان من كبار الحفّاظ وأعلم الناس بحديث الحسن البصري توفي سنة ١٤٦هـ[١٠٥]• ومن ذلك أيضا قول الاحنف الذي ذكره

---

(١٠٢) ينظر فتوح البلدان ص ٣٤٢ـ٣٤٣ ومصقلة هو ابن هبيرة بن شبل أحد بني ثعلبة بن شيبان .

(١٠٣) كتاب الحيوان ١٣٧/١٦ ـ ١٣٨ .

(١٠٤) ينظر مجمع الامثال ٢١٢/١ .

(١٠٥) البيان والتبيين ٧٨/٢ وانظر هامش (٢) ٢٩١/١ نقلا عن (تذكرة الحفاظ ١ / ١٥٤).

الجاحظ[١٠٦]: (ربَّ ملوم لا ذنب له) و (اعطاء السائل تضرية) و (اعطاء الملحف مشاركة) • وقال الشاعر :

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحِفِ غير الردّ

وقالوا في المثل : (القليل الدائم اكثر من القليل المنقطع) • والاحنف هذا هو الذي ضرب البصريون المثل بحلمه الذي رواه الجاحظ فقالوا : (أحلم من الأحنف)[١٠٧]، وهو الاحنف بن قيس ، وكان مثالا للتواضع ، فسئل بمن تأثر فصار هكذا ؟ فقال : بقيس بن عاصم المنقري ، وكلاهما ضرب بهما المثل في التواضع[١٠٨] ، وذكر الجاحظ (قيساً) بمثل ضربته العرب قبل الاسلام بحلمه ، وحلم عبدالمطلب ، فقالوا : (أحلم من قيس بن عاصم) و (أحلم من عبدالمطلب)[١٠٩] •

ومن أمثال الكوفيين التي ذكرها أيضا قول (ابن بيض) للكميت الشاعر حينما مدح مخلّد بن يزيد : انك يا أبا المستهل لكجالبِ التمر الى هَجر[١١٠]• وهَجَر مدينة اشتهرت بكثرة نخيلها • ولا شك ان من يذكر الامثال بكثرة في كتبه ويستخدمها وقت اللزوم ، ويستعين بها في كل مناسبة ، كما كان الجاحظ يفعل ، فلابد من أنه يعرف حياة المجتمع الذي يعيش بين ظهرانية معرفة واسعة ، كما يعرف وضعه السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، ويعرف العقائد والعادات والطبائع ، وحكايات الناس وقصصهم واساطيرهم وأغانيهم ، وهذا ما كان عليه الجاحظ كما مر بنا من سيرته ، فليست معرفة الامثال وشرحها والابانة عن معانيها والاخبار عن المقاصد فيها بالامر اليسير ، وانما يحتاج الرجل ــ كما يقول العسكري ــ في معرفتها مع العلم بغريب اللغة ،

(١٠٦) كتاب البخلاء ص ١٨٧ • (١٠٧) كتاب الحيوان ٩٢/٣ .

(١٠٨) المثل : (أحلم من الاحنف) في مجمع الامثال ٢٢٩/١ .

(١٠٩) كتاب الحيوان ٩٢/٢ .

(١١٠) ينظر البيان والتبيين ١٦٨/٢ (هارون) .

الى الوقوف على أصولها ، والاحاطة بأحاديثها ، ويكمل لذلك من اجتهد في الرواية ، وتقدّم في الدراية[111] .

مصادر الجاحظ من الامثال العربية :

أما مصادر الجاحظ عن الامثال فكثيرة كثرة كتبه وسعة أدبه ، وأنا اذ أكتب هذا معتمدا على اطلاعي ومعرفتي غير مستعين بأحد أرجو أن يكون ما توصلت اليه صوابا ، فمن تلكم المصادر : ما سمعته أذنه ووعته من اساتذته الكثيرين الذين تلمذ لهم ، وأتينا على ذكرهم في الفصل الأول ، فمصدره الأول اساتذته ، وقد دلني على ذلك ورود ذكر أسماء بعضهم بقلة . كذكره مثلا تمثل به استاذه ابو اسحاق النّظام يذكر شخصا بالذم ، فقال في حقه أ أظلم من صبي [112] وذكر الجاحظ هذا المثل مع أمثال أخر على شاكلته : « ويقال: أظلم من صبي ، واكذب من صبي ، وأخرق من صبي . وأنشد :

ولا تحكما حكمَ الصبيِّ فأنّه كثيرٌ على ظهرِ الطّريقِ مَجاهِلُه

أي : إنه يظهر ما يجب أن يخفى ، ولا يبالي بذلك»[113] ، وفسره الميداني بأنه يسأل مالا يقدر عليه ، ولذلك يقال : أعطاه حكم الصبي اذا أعطاه ماشاء[114] . ومن ذلك أيضا قوله : « وأخبرنا ابن الاعرابي أن أعرابيا كلّم صاحبه ، فرآه لايفهم عنه ولا يسمع كلامه ، فقال : (أصلَخ كصلَخ النعامة)[115] . والصّلَخ : الصمم وذهاب السمع . ومن ذلك قوله : « وما يضيفون الى هذه الضباب من الكلام مارواه الاصمعي في تفسير المثل : (هذا أجل من الحرش) . ان الضب قال لابنه اذا سمعت صوت الحرش فلا تخرجن ، والحرش : تحريك اليد عند جحر الضبّ ليخرج ويرى أنه حيّة .

(١١١) جمهرة الامثال ص٥ .
(١١٢) كتاب الحيوان ٤٧١/٣ .
(١١٣) البيان والتبيين ١٤٧/١ (هارون) .
(١١٤) مجمع الامثال ٤٦٠/١ . (١١٥) كتاب الحيوان ٤٠٢/٤ .
(١١٦) كتاب الحيوان ١٣٢/٦–١٣٣ . (١١٧) الجاحظ ص ١٠٢ .

قال : فسمع الحسل صوت الحفر . فقال للضب : يا أبت هـذا الحرش ؟ قال : يابني هذا أجل من الحرش فأرسلها مثلاً »(116) .

٢ ـ المساجـد :

وكانت المساجد ، ولا سيما المسجد الجامع البصري من الأماكن التي كان الجاحظ ـ كما ذكرنا ـ يتردد اليها ، اذ كان المسجد « بيئة مركزة فيها للصور العقلية والنزعات النفسية والتيارات الاجتماعية لما حوله، وبذلك كانت مشاهده تتغير وظواهره تتطور بتطور الحياة العامة التي تحيط بـه ، اضافـة الى كونه مكاناً للعبادة ومركزاً للقضاء وفصل الخصومات ومدرسة كبـرى للعلم(117). ومناراً للاشعاع الفكري والثقافي « يعج بالعلماء في شتى ميادين العلم والمعرفة، تغص بهم الحلقات العلمية التي كانت تعقد فيـه ، ويتحلـق فيهـا المفسرون والقصاص والمتكلمون واللغويون والنحاة والرواة والشعراء والأدباء»(118)، وكان المسجد يموج بالعلماء وطلاب المعرفة والناس من مختلف الطبقات والملل والنحل مابين استاذ وطالب علم ، وسائل ، ومستمع، ومتفرج ، وكأنه كان يومئذ جامعة علمية كبرى ، وكان الناس يؤمـّـون الحلقات الدراسية لاخـذ العلم او السماع أو سؤالهم اهل الذكر عما لا يعلمون من امور دينهم ودنياهم،واذا كنت لم أعثر على اشارة صريحة تدل على أن مثلا ماقيل في المسجد ، لضيق الوقت ، فلعل الكلام كان لايخلو من امثال تقـال او تروى ، وقـد ذكرت انفا امثالا ذكرها اساتذة الجاحظ ، فربما قالوهـا في المسجـد . ومن ذلك قـول ابن سيرين : « العزلة عبادة »(119).

الجاحظ والامثال الاسلامية :

ذكر عمرو بن بحر أمثالاً اسلاميـة بثـّها في كتبه وأتى بها في مناسباتها ، وأغلب الظن انه سمع اكثرها في حلقات المسجد ولا سيما من المحدثين . وعلى

---

(118) دور المسجد الجامع البصري في نشر الثقافة العربية ، مجلة الجامعة ، ص ٨٥ .

(119) كتاب البخلاء ص ١٧٨ .

رأس هذه الامثال ما يتمثل به من اقوال الرسول المصطفى محمد عليه افضل الصلاة والتسليم ، التي تعد من جوامع الكلم ، وهي القليلة الالفاظ الكثيرة المعاني[120] ، روى ابن الاثير بسنده[121] أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال «أوتيت جوامع الكلم» ، والمراد بذلك انه (صلى الله عليه وسلم) أوتي الكلم الجوامع للمعاني ، وهي على قسمين : الاول : ما يأتي على حكم المجاز كقوله (صلى الله عليه وسلم) يومَ حُنين : (الان حميَ الوطيس) وهذا لم يسمع به من احد قبله (صلى الله عليه وسلم) ولو اتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا: استعرت الحرب، لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه . واما القسم الثاني من جوامع الكلم، فالمراد به الايجاز الذي يدل به بالألفاظ القليل على المعاني الكثيرة ، أي أن الفاظه صلوات الله وسلامه الله عليه جامعة للمعاني المقصودة على ايجازها واختصارها، وجل كلامه جار هذا المجرى»[122] . قال الجاحظ : « وسنذكر من كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، مما لم يسبقه اليه عربي ولا شاركه فيه أعجمي، ولم يدع لاحد ولا ادعاه أحد مما صار مستعملا ومثلا سائرا : فمن ذلك قوله: (ياخيل الله اركبي) و (ماتَ حَتْفَ أنفه) و (لا تنتطحُ فيها عنزانِ) و (الآنَ حميَ الوطيس) ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : (كلّ الصيد في جوف الفَرا)[123]، والفَرا : حمار الوحش . ومن ذلك ايضاً ما ذكره من أمثال للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يتحدث عن اهمية البيان ، فقال : « جُعلتُ فداك قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (كادَ البيانُ ان يكونَ سحراً) وقال : (إن من البيان لسحراً) . وقال الناس لِذي المكر والخلابة ولِذي الرفق التأتّي : (ما هو الا ساحرٌ) وقد سُحر بكلامهِ »[124]

ومن ذلك ما أجراه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في عرض كلامه غير قاصد به ضرب مثل، فتمثل الناس به وأرسلوه مثلاً: (رفقاً بالقوارير) و(اعقِلْ وتوكّلْ) و (زُرْ غِبا تزدد حبّاً)[125] ، وذكر الجاحظ بعضها ، فقال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لبعضهم : اعقِل وتوكّل »[126] .

(١٢٠) التمثيل والمحاضرة ص٢٢ . (١٢١) المثل السائر ١/٥١-٥٢.
(١٢٢) البيان والتبيين ١٥/٢ (هارون) .
(١٢٣) كتاب الحيوان ٣٣٥/١ . (١٢٤) رسالة التربيع والتدوير ص٨٩.
(١٢٥) التمثيل والمحاضرة ص ٢٢-٢٣ . (١٢٦) كتاب الحيوان ١١٥/٢ .

وفي معرض حديثه عن أهمية التجربة في حياة الانسان ذكر كلاماً لسحبان وائل ، ومنه قوله[١٢٧] : « وليس الحزم إلا بالتجارب ، وبأن يكون عقل الغريزة سلّماً الى عقل التجربة » ثم أردفه بمثل إسلامي ، وذلك قول الامام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : (رأي الشيخ أحبّ الينا من جَلَد الشاب) . والجَلَد بفتحتين : القوّة والشدّ .

ومن الامثال الإسلامية التي أوردها قول الناس: (آمنُ من حَمام مكة[١٢٨]، وقولهم : (حمارٌ يَحملُ أسفاراً)[١٢٩] . وهذا المثل مأخوذ من قول الله تبارك وتعالى : (مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التوراةَ ثم لم يَحملوها كمثَلِ الحمارِ يحملُ أسفاراً ..)[١٣٠] « وعنى اليهود في تركهم استعمال التوراة وما فيها ، ويضرب المَثل لمن يعلم ولا يعمل بعلمه . أو الذي يحوز الشيء الجليل ولايستطيع الانتفاع به »[١٣١] .

وربما قيل ما يحسن أن يكون مثلا يتمثل به ، الا أنه لايسير مثلاً[١٣٢]، وذكر الجاحظ شيئا من هذا وهو قول عدي بن حاتم في قتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) (لا تحبقُ فيه عَناق) وذهب مثلاً في الامر لا يعبأ به[١٣٣]. قال له معاوية بعد أن فقئت عينه وقتل ابنه : يا أبا طريف ، هل حبقت في قتل عثمان عَناق ؟ قال : إيْ والله ، والتيس الاكبر ! فلم يمسِ كلامه مثلاً[١٣٤] .

---

(١٢٧) البيان والتبيين ٢/١٤ . وفي مجمع الامثال للميداني ١/٢٦٧ (رأي الشيخ خير من مشهد الغلام) .

(١٢٨) لانها لا تثار ولا تهاج ، والمثل في مجمع الامثال للميداني ١/٨٩ ، وأورد في الحيوان ٣/٩٢ .

(١٢٩) كتاب الحيوان ١/٢٥٧ .

(١٣٠) سورة الجمعة من الآية ٥ .

(١٣١) كتاب الحيوان ١/٢٥٧ لمحقق الكتاب .

(١٣٢) ينظر جمهرة الامثال ص ٧ .

(١٣٣) ينظر البيان والتبيين ٢/١٥ (هارون) .

(١٣٤) المصدر نفسه ٢/١٥-١٦ .

٣ ـ المربد :

وكانت (سوق المربد) من الاماكن التي كان الجاحظ يتردد اليها ويشافه الأعراب الوافدين اليها ، ويسجل أو يحفظ ما كان يسمعه من أفواههم مما يروونه من الشعر والحكم والامثال ، وقد ذكر أنه تلتف الفصاحة شفاهاً عنهم • وكان يثني على أحاديثهم ، ويجعل سماعها من أمتع المتع ، وانفع المنافع وألذ الاسماع وأشد اتصالا بالعقول السليمة[١٣٥] ، فقد كان المربد حلقة الاتصال بين الحياة العربية الصميمة والحياة العراقية البصرية الجديدة • ولنسمع قوله : « فللعرب (أمثال) واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وارادتهم »[١٣٦]• وقال أيضا : « وتقول العرب الخلة تدعو الى السلّة • أي : الحاجة تدفع الى السرقة •• وفي المثل : الحاجة تفتح المعرفة »[١٣٧] • وفي أيامنا هذه يقولون : الحاجة أم الاختراع ، وقد طبق هذا المثل عمليا في العراق خلال الحرب العالمية الثانية، وأيامنا أيام حصار الظلمة الجائرين •

ونقل الجاحظ ما كان الاعراب يتناقلونه عن طول عمر الضبّ « ومن أعاجيب الضبّ طول العمر ، وذلك مشهور في الاشعار والاخبار ومضروب به المثل »[١٣٨] وروى أيضا كثيرا من حكايات الاعراب عن الحيوانات وضربهم الامثال المتعلقة بها ، فمناسبة المثل قد لاتكون حقيقية دوما ، فربما كان المثل افتراضيا ، كالامثال التي ضربها العرب على ألسِنة الحيوانات ، ولعلهم ذهبوا هذا المذهب متخذين الرمزية خشية الحاكمين اذا صرحوا بالاسماء الحقيقية[١٣٩] ، فمن ذلك مثلا قول الجاحظ : « وتقول العرب : أحمقُ من جَهيزة)وهي عِرسُ الذئب ، لانها تدع ولدها وترضع ولد

---

(١٣٥) معجم الادباء ٧٤/١٦ .ينظر البيان والتبيين ١٣٣/١ (سندوبي) .

(١٣٦) كتاب الحيوان ١٥٣/١ـ١٥٤ .

(١٣٧) البيان والتبيين ١٨٢/٢ (هارون) .

(١٣٨) كتاب الحيوان ٤٠٧/٤ . (١٣٩) ينظر كتاب التراث الشعبي ص٢١٣.

الضبع»[١٤٠] . وقال أيضـا : « وكرم عند العرب حظ الهرة ، لقولهم : (أبرُّ من هرّة ، وأعقّ من ضبّ) فوجهوا أكل الهـرة أولادها على شدة الحب لها ، ووجهوا أكل الضب لها على شدة البغض لها.. ولذلك قال العملّس بن عقيـل لأبيه :

أكلتَ بنيكَ أكل الضبِّ حتـى ... تركتَ بنيـكَ ليس لهم عديدُ

وقال أيضا : « وفي المثل : (أضلُّ من ضبّ) ، كما يقال : (أقصرُ من إبهام القطاة[١٤١] ، وذلك أن الضبّ اذا خرج من بيته فأبعد لا يهتدي أن يـرجع اليـه»[١٤٢] .

ومن ذلك ما ذكره من أمثال كثيرة ضربها العرب قبل الاسلام ، وسارت بذكرها الركبان كقوله : « ولما دخل خمرة بن خمرة على النعمـان بن المنذر ورأى دمامته وقصره وضآلته ، قال : (تسمعُ بالمُعَيدي لا أن تراه)[١٤٣] . كما روى مثلا للحارث بن ظالم ، وكان قد ضرب رجلا فقتله ، فلمـا أخبـر بعذره قال : (سبق السيف العذَل) ، فذهب قوله مثلا . ومن الامثـال أيضا قولهم : (أعيى من باقل)[١٤٤] ، وباقل رجل من إياد ، بلغ من عيّه أنه اشترى ظبيا بأحد عشر درهما ، فمر بقوم فقالوا : بكم اشتريت الظبي . فمـد يديـه ودلع لسانه يريد : أحد عشر ، فشرد الظبي ، وكان تحت ابطه[١٤٥] .

ومن أقوال العرب التي نقلها قول أعرابية لابنها توصيه لئـلا يكـون خاملا فيسقط من أعين الناس : « اذا جلست مع الناس فان أحسنت أن تقـول كما يقولون فقل ، والا فخالف تذكر »[١٤٦] ، فذهب قولها : «خالف تذكر) مثـلا .

---

(١٤٥) كتاب الحيوان ١/٣٩ ، مجمع الامثال ١/٥٠٤ .
(١٤١) كتاب الحيوان ١/٣٣١ ، وذكر الجاحظ مثلا آخر للعـرب في الحيـوان ٦ / ٤٣ : (اخدع من ضب).
(١٤٢) ابو العلاءالمعري ، رسالة الملائكة ص ٥١ .
(١٤٣ و ١٤٤) البيان والتبيين ١/١٧١ و ١/٣٨٩ (هـارون) وينظـر مجمـع الامثـال ١ / ٢٠٦ .
(١٤٥) كتاب الحيوان ١/٣٩ ، مجمع الامثال ١/٥٠٤ .

وأورد الجاحظ كثيرا من الامثال التي تدل على التناهي والمبالغة في الشيء واستخدمها العرب عند المدح أو الذم ، وهي الامثال التي جاءت على وزن (أفعلُ من كذا)[147] ، وقد ذكرنا بعضها ـ فيما سبق ـ • ومن ذلك أيضا قولهم عند الذم (أظلمُ من حية) و (أجبنُ من صفرّد) ، واذا أرادوا المدح ، قالوا : (أسمعُ من فرس) و (أبصرُ من عقاب) و (أصحُ من الظليم) و (أجرأ من الليث) و (أسمعُ من قنفذ) • وقال عنها : « فيعبّرون عن هذه الاشياء بعبارة كالعبارة عن الناس في مواضع الاحسان والاساءة حتى كأنهم من الملومين والمشكورين »[148] •

٤ ـ أسواق البصرة :

وحين نذكر سوق المربد تتذكر (أسواق البصرة) حيث تتواجه الافكار وتتلاقح الامزجة ويختلط الناس من مختلف الملل والنحل التي زخرت بها بيئة البصرة ، كان الجاحظ ممن تستهويه حكايات الناس وامثالهم ، وكان شعبيا بطبعه ، سؤولا ، متواضعا على الرغم من حصوله على المنزلة الرفيعة والجاه العظيم لدى الحكام والمسؤولين،وقد عاش حياه طويلا فمكّنه ذلك من مواكبة المجتمع ومشاهدة أحواله وتسجيل كل ما كان يسمع في تلكم الاوساط الشعبية خلال حقبة طويلة من الزمن، من حكايات وحكم وأمثال وطرف أدبية. وحوادث تاريخية ، فمن ذلك ما رواه من مزاعمهم «أن من دخل أرض تُبّت لم يزل ضاحكا مسرورا من غير عجب حتى يخرج منها •• »[150] ومن ذلك أيضا ما ذكره من أقوال البصريين عن موضع في البصرة يسمونه الخرير يقال «ان الناس لم يروا قطّ هواءا اعدل ولا نسيما أرق ولا اطيب من ذلك

---

(١٤٦) كتاب الحيوان ٢/١٠٠ •
(١٤٧) التعريف بمصادر البحث عن الامثال ص ١٣ •
(١٤٨) ينظر كتاب الحيوان ١/٢٢٠ و٣/٣١٧ و ٦/٤٦٨ •
(١٤٩) ابن قتيبة ، عيون الاخبار المجلد ٢/٢١٩ •
(١٥٠) عيون الاخبار ٣/٣٠٨ •

الموضع»[١٥١] . أو يقول : « وقد علمنا ان القمر هو الذي يضرب به الامثال ويشبّه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نضوا »[١٥٢] . وقد نقل كثيرا من أقوال الناس ، فمن ذلك قوله : «سمعت شيخا من مشايخ الأبلّة يزعم ان فقراء أهل البصرة أفضل من فقراء أهل الأبلّة ، قلت : بأي شيء فضلتهم؟ قال : هم أشد تعظيما للاغنياء، وأعرف بالواجب»[١٥٣] ، ونقل قول بعض النا س : «من التوقّي ترك الافراط في التوقي »[١٥٤] وقول بعضهم : « اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون»[١٥٥] . ومن أدلة تغلغل الجاحظ بين الناس واختلاطه بهم ــ وهي كثيرة ــ ما ذكره عن شخص يدعى (أبا دبّوبة) الزنجي مولى آل زياد ، من انه كان ماهرا في تقليد أصوات الحمير : فكان يقف بباب الكرخ في البصرة فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق ، وكان قد جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد ، وكذلك كان في نباح الكلاب [١٥٦] .

كان عمرو بن بحر شعبيا في نشأته وطبعه وتطبّعه ، ولوعا بالسؤال عما كان يشاهده ، فلا يستنكف أن يسأل عامة الناس ، مع انه صار من عِليّة القوم وسراتهم ، فمن ذلك قوله : « وخبّرني من يصيد العصافير قال : ربما كان العصفور ساقطا على حائط سطح حذائي فيغمّني صياحه»[١٥٧] أو تراه يستمع الى أحاديث الناس وشكاواهم ، فيقول : «وسمعت حديثا من شيوخ ملاحي الموصل .. « وشكا اليّ حوّاء مرة ، أي أحد حواة الافاعي»[١٥٨] ولم يفته أن يسجل أقوال العامة واحاديثهم وأمثالهم ، فمن

---

(١٥١) رسالة التربيع والتدوير ص٢٤ .

(١٥٢) كتاب البخلاء ص ١٢٥ .

(١٥٣) و (١٥٤) البيان والتبيين ١/٢١٠ (هارون) .

(١٥٥) ينظر البيان والتبيين ١/٦٩ــ٧٠ (هارون) .

(١٥٦) كتاب الحيوان ٢/٣٢٩ .

(١٥٧) كتاب الحيوان ٢/١٢٦ .

(١٥٨) كتاب الحيوان ٤/٩٩ .

أقوالهم : «القرد قبيح ولكنه مليح»[١٥٩] وقال : ومن أمثال العامة للشيء تعرفه بغير مؤونة : (الحجر مجّان والعصفور مجّان) • والمجّان الكثير الكافي ، أو عطية الشيء بلا مِنّة ولا ثمن[١٥٩ب] •

وأدل دليل على اتصاله المباشر بعامة الشعب واحتكاكه بهم في كل الاماكن كالمجالس والاسواق تنامي خبرته وازدياد معرفته ، فمن أين علم بحيل اللصوص وغش الصناعات وملح الناس ونوادرهم ، فألّف الكتب فيها ؟ إن لم يكن سمع كل ذلك من الناس •

ومن الامثال العربية ما كانت عنوانات حكايات على ألسنة الحيوانات اشتهرت بين الناس ، فصارت مثلا سائرا ، وقد حكى الجاحظ قسما منها ، ذكرنا فيما تقدم بعضها ، ومنها هذه الحكاية : « وفي المثل أن شيخا نصب للعصافير فخّا فارتبن بهوبالفخ • وضربه البرد فكلما مشى الى الفخ وقد انضّم على عصفور ، فقبض عليه ودق جناحه وألقاه في وعائه دمعت عيناه مما كان يصك[١٦٠] وجهه من برد الشمال • قال : فتوامرت[١٦١] العصافير بأمره وقلن : لا بأس عليكن فانه شيخ صالح رحيم رقيق الدمعة ! قال فقال عصفور منها : لاتنظروا الى عينيه ولكن انظروا الى عمل يديه»[١٦٢] • وقد التفت الى هذا المعنى ــ كما قال عبدالسلام هارون ــ ديك الجن ، وكان قد قتل زوجته ثم أسف عليها ، فقال[١٦٣] :

يقول قتلتَها سفَهاً وجَهلا　　وتبكيها بُكاءً ليس يُجدي
كصيّاد الطيور لهُ انتحاب"　　عليها وهو يَذبحُها بجِدُ

(١٥٩) ينظر كتاب الحيوان ٥/٢٣٩ . (١٥٩ب) المصدر نفسه .
(١٦٠) يصك :يضرب ، وفي نسخة من تحقيق المحامي فوزي عطوي ص٢٤٣٠ يصد .
(١٦١) توامرت : تآمرت ، أي : تشاورت .
(١٦٢) كتاب الحيوان ٥/٢٣٨ . (١٦٣) ينظر كتاب الاغاني ١٢/١٣٩ .

٥ ـ الكتـــب :

وكانت الكتب التي قرأها في دكاكين الورّاقين معينه الذي لا ينضب من الامثال ، وقد قرأ كل ما وقع بيده من كتب ضمت الامثال ولم يقصدها لذاتها وانما كانت تأتيه من خلال قراءاته الكثيرة في تلك الدكاكين ، اذ كان ـ كما ذكر المبرّد ـ اذا وقع في يده كتاب قرأه من أوله الى آخره ، أي كتاب كان(١٦٤) ، وهو الذي وصف الكتاب بقوله : « وعاء ملىء علما ، وظرف حشّي ظرفا ، بستان يحمل في ردن ، وروضة تقلب في حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الاحياء»(١٦٥) . ودليلي على أن الكتب كانت من مصادر امثال الجاحظ ما رأيته من أمثال في كتاب الامثال للمفضّل الضبّي(١٦٦) ، وقد ذكرها الجاحظ في كتبه كقولهم : (اذا عزّ أخوك فهن) ، و (تسمعُ بالمعيدي خيرٌ من أن تراه) ، و (رمتني بدائها وانسلّت) ، و (سبق السيفُ العذَل) . وهناك أمثال ضمنها الشعراء أشعارهم كانت بعضها من مصادر الجاحظ ، منها قوله : «انهم يضربون المثل بأحلام العصافير لأحلام السخفاء ، قال حسان بن ثابت :

لابأس بالقوم من طولٍ ومن عِظَمٍ ... جسمُ البغالِ وأحلامُ العَصافيرِ

ومن ذلك أيضا قول حمزة بن بِيض :

لم يكن عن جِنايةٍ لَحِقَتْني ... لا يَساري ولا يميني جَنَتْني

بل جَنَاها أخ عليَّ كريمٌ ... وعلى أهلها براقشُ تجني

لأن هذه الكلبة ، وهي براقش ، نبحت غزًّى (أي غزاة) قد مرّوا من ورائهم وقد رجعوا خائبين مخفقين ، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها واستباحوهم ، ولو سكتت كانوا قد سلموا ، فضرب ابنُ بِيض به المثل»(١٦٧) .

---

(١٦٤) أمالي المرتضى ١/١٩٤ وكذلك روي في معجم الادباء ١٦/٨٥ عن ابي هفان ما يشبه هذا .

(١٦٥) التمثيل والمحاضرة ص ١٦٠ .

(١٦٦) ينظر :امثال العرب ص ٤٧ـ٤٨، و٥٥ و ٧٦ و ١٣٧ .

(١٦٧) ينظر البيان والتبيين ١/٢٦٩ـ٢٧٠ (هارون) والعرب تقول : على أهلها جنت براقش .

وبيت ينسب الى بشر بن أبي خازم ونسبه أبو عبيدة الى الطرماح ، جاء فيه مثل مبسوط بالشطر الثاني (١٦٨) :

وجدنا في كتاب بني تميم (أحق الخيل بالركض المعار)

اثر الجاحظ في رواية الامثال العربية وتداولها :

الامثال العربية تراث الامة تتناقله أجيالها جيلا بعد جيل ، وتضيف اليه ما يستجد من أمثال تضرب نتيجة أحداث او تجارب معينة ، واما عن تأثير الجاحظ فقد حكى ما تناقلته الناس في زمنه من أمثال قديمة ، وما استجد منها في أيّامه ، وقد « فتح الطريق أمام جمّاع الامثال أن يسلكوا الطريق منتهجين منهجه »(١٦٩) . وقد وفقني الله سبحانه وتعالى الى تتبع هذا التأثير ورصده في كتب من جاؤوا بعده ما وسعني المجال وسمح به الوقت ، اذ وجدت اسم الجاحظ يذكر كثيرا «في كتب الامثال التي ألّفها حمزة [البصري] والعسكري ، والزمخشري ، والميداني وفي شروح تاريخية لبعض الامثال»(١٧٠)، وليس أدل على تأثير الجاحظ في رواية الامثال ونشرها وتداولها من أن بعضا من أقواله أصبحت أمثالا كقوله : « احذر من تأمن، فانك على حذر ممن تخاف »(١٧١) وقوله : « زلَّة العالِم لا تُقال . واذا زلّ العالِم زلّ بزلته العالَم (١٧٢) . وهو من امثال الميداني في مجمع أمثاله : اذا زلّ العالِم زلّ بزلّته عالَم" ، لان العالِم يقتدي به الناس(١٧٣) .

وفي عيون الاخبار لابن قتيبة وجدت عدة أمثال رواها الجاحظ في كتبه، منها قولهم : أحذرُ من غراب (عيون الاخبار ، المجلد ٢/٧٢) وأحقّ الخيل بالركض المعار (المجلد ٣/١٤٢) وفسر ابن قتيبة المعار : المنتوف الذّنب

---

(١٦٨) تاريخ الادب العربي : بروكلمان ١/١٣١ .

(١٦٩) النقد المنهجي عند الجاحظ ص١٥٠ .

(١٧٠) الامثال العربية القديمة ص ١٦٥ .

(١٧١) أمالي المرتضى ١/١٩٦ . (١٧٢) التمثيل والمحاضرة ص ١٦٦.

(١٧٣) ينظر مجمع الامثال ١/٤٦ .

يريدون أنه اخف للركض (المجلد ٣/١٤٢ وأسمَعُ من فرس (المجلد ٢/٧١) وأظلمُ من حيّة • قال ابن قتيبة : وذلك لانها تدخل حجرة الحشرات وتخرجها (المجلد ٢/٧٢)ورأي الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام (المجلد ١/١٥) وآتيك سن الحسل ، يريدون : لا آتيك أبدا (المجلد ٢/٤٢) • وفي أمالي القالي وجدت عددا مما ذكره الجاحظ من الامثال ، اذ قال : من أمثال العرب : لأنا أحذرُ من ضَبٍّ اذا حرشته • ويقال : انه أبصرُ من عُقاب ، وأحذر من غراب • والمثلان في (الامالي ٢/١١) وذكرهما الجاحظ في الحيوان ١/٢٢١ و ٣/٤٢٥ • وفي الامالي ٢/٢٩ : ويقال : (نعيمُ كلب في بؤس أهله) ، وذكره الجاحظ في الحيوان ١/٢٧١ وروايته : نعِمَ •

وفي مجمع الامثال للميداني كثير مما ذكره الجاحظ في كتبه من امثال العرب ، كقولهم : أحقُّ الخيل بالركض المعار (الميداني ١/٢١٢) واذا عزّ أخوك فهن (الميداني ١/٢٤) ، ورواه على قياس العربية كما ترى • وأظلمُ من حية • قال الميداني ١/٤٦١ : لأنها تجيء الى جحر غيرها فتدخله وتخليه عليه •• وذلك أن الحية لا تتخذ لنفسها بيتا فكل بيت قصدت اليه هرب أهله منه وخلوه لها • وقولهم : أعيى من باقل ، قال الميداني : « وباقل رجل من إياد ، بلغ من عيّه انه اشترى ظبيا بأحد عشر درهما ، فمر بقوم فقالوا له بكم اشتريت الظبي فمد يديه ودلع لسانه يريد أحد عشر فشرد الظبي وكان تحت ابطه »[174] • والمثل في الحيوان ١/٣٩ • وقولهم تسمعُ بالمعيدي خير من أن تراه (الميداني ١/١٣٦) • وقولهم : مُكْرَهٌ أخوك لا بطل • قال الميداني ١/٢١٤ : «هذا من كلام أبي حشر : يضرب لمن يُحْمَل على ما ليس من شأنه » • وفيما ذكرته دليل على أثر الجاحظ في رواية الامثال العربية ، ولو أردنا تتبع أثر الجاحظ في كتب الامثال التي ألفها من جاء بعده من العلماء لاحتجنا الى كتاب ضخم ووقت طويل •

---

(١٧٤) مجمع الامثال ١/٥٠٤ .

وبعد ، فها هو ذا الجاحظ والامثال العربية،وقد بدا لنا واضحا من خلال البحث أنه كان يتتبّعها في الكتب أو يسمعها من أفواه النـاس ، وقد دفعـه اهتمامه بها الى جمعها في كتاب من تأليفه ، كما أنه جمع امثال الامام علي بـن أبي طالب (كرّم الله وجهه) أيضا ، غير أننا لانعرف من أمر الكتابين شيئا اذ لم يصلا الينا ،ومع ذلك فما تناثر في كتب الجاحظ العديدة من الامثـال دلنا على شدة اهتمامه بها، ففي كتاب الحيوان وحده اكثر من ثلثمائة مثل ، فكان يأتي بالامثال في مناسبتها ، فيذكرها للمُلْحة أو الطُرفة أو النادرة ، أو تزيين الخبر أو توضيحه أو تثبيته في ذهن القارىء ، فكان أثره واضحـا ــ كمـا رأينا ــ في رواية الامثال وجمعها وتداولها وحفظها ، اذ كانت الامثـال التـي أوردها في كتبه مصدرا لمن ألّف في الامثال بعده .

واذ تراءى لي أن البحث قد أوفى على الغاية التي كتب من أجلها أختمه بذكر ثبت لمصادره ومراجعه ، وآخر دعواي أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين .



***

المصـادر والمراجـع :

١ ــ القرآن الكريم المصدر الاول للدراسات اللغوية والادبية .

٢ ــ ابحاث في التراث الشعبي ــ كتاب التـراث الشـعبي ــ ٢. اصـدار دار الشؤون الثقافية وزارة الاعلام ، بغداد سنة ١٩٨٦م .

٣ ــ الادب العربي في الجاهلية والاسلام : عمر رضا كحّالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .

٤ ــ أدباء العـرب في الجاهليـة والاسـلام : بطرس البستاني ، ط (٨) دار صـادر ــ دار بيروت .

٥ ــ الاعلاق النفيسة : أحمد بن عمر بن رستـه ، ط (١) ، مطبعـة بريـل ، ليـدن ، سنة ١٨٩١م .

٦ ــ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) : المرتضى علي بن الحسين الموسوي ت٤٣٦هـ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . دار الكتاب العربي ، بيروت ط (٢) سنة ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٧م .

٧ ــ أمثال العرب : للفضل بن محمد الضبي . تقديم وتعليق د. احسان عباس، ط (٩) . دار الرائد العربي ، بيروت سنة ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م .

٨ ــ الامثال العربية القديمة : رودلف زلهايم .ترجمة د. رمضان عبدالتواب، مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .

٩ ــ أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : أنيس المقدسي ، ط (١) ، المطبعة الادبية ، بيروت سنة ١٩٣٢م.

١٠ــ البخلاء : عمرو بن بحر الجاحظ ت ٢٥٥هـ . تحقيق : الدكتور طه الحاجري .ط (١) . دارالمعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٥٨م.

١١ــ البرهان في وجوه البيان : الحسين بن وهب . تحقيق : د. احمد مطلوب بغداد ١٩٦٧م .

١٢ــ بلاغة ارسطو بين العرب واليونان : د. ابراهيم سلامة . القاهرة سنة ١٩٧٣م .

١٣ــ البدء والتاريخ : أبو زيد البلخي (أحمد بن سهل ت ٣٣٢هـ) ، مطبعة برطرند في مدينة شالون ــ فرنسا سنة ١٨٩٩ م.

١٤ــ البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق : حسين السندوبي، ط (٢) ، نشر :المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة١٣٥١هـ ــ ١٩٣٢م .

١٥ــ البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق :عبدالسلام محمد هارون . ط (٣) ، نشر : مؤسسة الخانجي ، القاهرة سنة ١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٨م .

١٦ــ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان. الجزء الاول . ط (١) مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٣٠م .

١٧ــ تاريخ الادب العربي(العصر الجاهلي) : د. شوقي ضيف،دار المعارف بمصر.

١٨ــ تاريخ الادب العربي (العصر العباسي الثاني) : د. شوقي ضيف ، ط (٢) دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م .

١٩ ــ تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان . نقله الى العربية د. عبدالحليم النجار . ط (١) ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ م .

٢٠ ــ تاريخ الرسل والملوك : محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ . مطبعة بريل، ليدن سنة ١٨٨٣ م .

٢١ ــ التمثيل والمحاضرة البحث عن الامثال : المحامي حسين علي الحاج حسن . الجزء الاول خاص بما كتب بالعربية. ط(١) النجف سنة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٧م

٢٢ ـ التمثيل والمحاضرة : ابو منصور الثعالبي ت ٤٢٩ هـ . تحقيق :عبدالفتاح محمد الحلو ، دار احياء الكتب العربية،القاهرة سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.
٢٣ ـ ثمرا تالاوراق : ابو بكر بن حجة الحموي ت ٨٣٧ هـ . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم . ط (١) ، مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٧١م .
٢٤ـ الجاحظ. حياته وآثاره: الدكتور طه الحاجري. ط (٢)، دارالمعارف بمصر.
٢٥ـ جمهرة الامثال : ابو هلال العسكري . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم وعبدالمجيد قطامش . ط(١)، المؤسسة العربية الحديثة سنة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م .
٢٦ـ الحلقات الدراسية للنحويين الدكتور عبدالجبار علوان النايلة . بحث نشر في مجلة الجامعة التي تصدرها جامعة الموصل ، العددان ٩ ـ ١٠ ، حزيران سنة ١٩٨٢م .
٢٧ـ الدراسات النحويةواللغويةومنهجها التعليمي في البصرة : جاسم السعدي. مطبعة النعمان ، النجف الاشر ف سنة ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .
٢٨ ـ دور المسجد الجامع البصري في نشر الثقافة العربية : عبدالجبار علوان علوان النايلة . بحث نشر في مجلة الجامعة العدد الخامس ، الصادر في شباط سنة ١٩٧٩ م .
٢٩ـ الرد على المشبهة والمسائل والجوابات في المعرفة : ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ ـ ٢٥٥ هـ) . تحقيق الدكتور حاتم الضامن . منشورات وزارة الثقافة والاعلام . بغداد ، دار الحرية للطباعة سنة ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
٣٠ـ رسائل الجاحظ : ابو عثمان الجاحظ . تحقيق : عبدالسلام محمد هارون. نشر مكتبة الخانجي ، القاهرة سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م .
٣١ـ رسالة التربيع والتدوير : ابو عثمان الجاحظ . تحقيق المحامي فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب . بيروت .
٣٣ـ رسالة الملائكة : ابو العلاء المعري (ـ ٤٤٩هـ) . ط (٣) ، بيروت سنة ١٩٧٩ م .
٣٣ـ الشواهد والاستشهاد في النحو د. عبدالجبار علوان النايلة . ط (١) ، مطبعة الزهراء ، بغداد سنة ١٩٧٦ م .
٣٤ـ العقد الفريد : احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (ـ) . تحقيق : احمد امين وصاحبيه . ط (٢) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢م .
٣٥ـ العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية : مصطفى عباس الموسوي . بغداد سنة ١٩٨٢م .

٣٦ـ الكامل في التاريخ : عزالدين بن الأثير الجزري(ـ ٦٣٠ هـ) ، دار صادر ـ دار بيروت ، سنة ١٣٨٣هـ = ١٩٦٧م .

٣٧ـ كتاب البلدان : احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف بـ (اليعقوبي ـ ٢٨٤هـ) . مطبعة بريل . مدينة ليدن سنة ١٨٩١م .

٣٨ـ كتاب التراث الشعبي ٢ : اصدار دار الشؤون الثقافية ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد سنة ١٩٨٦م .

٣٩ـ كتاب الحيوان : الجاحظ (ابو عثمان عمر بن بحر ـ ٢٥٠هـ) . تحقيق : عبدالسلام محمد هارون . ط (٢) مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة سنة ١٣١٤هـ = ١٩٦٥م .

٤٠ـ كتاب خاص الخاص : ابو منصور الثعالبي (ـ ٤٣٠هـ) . منشورات مكتبة الحياة ، بيروت .

٤١ـ كتاب الفهرست : ابن النديم (ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب اسحاق ـ ٣٨٥هـ) . تحقيق : رضا تجدد .

٤٢ـ كتاب العين : الخليل بن احمد الفراهيدي(ـ ١٧٠هـ) . تحقيق : د. مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي . ط (١) بغداد سنة ١٤٠٠ ـ ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ م .

٤٣ـ لسان العرب : ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم ـ ٧١١هـ) دار صادر ـ دار بيروت ، سنة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م .

٤٤ـ مالم ينشر من رسائل الجاحظ (الرد على المشبهة والمسائل والجوابات في المعرفة) : عمرو بن بحر الجاحظ ـ ٢٥٠ هـ . تحقيق الدكتور حاتم الضامن ، بغداد سنة ١٩٧٩ م .

٤٥ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الاثير ـ ٦٣٧ هـ . تحقيق:محمد محي الدين عبدالحميد . ط(١) مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

٤٦ـ مجمع الامثال : الميداني (ابو الفضل احمد بن محمد ـ ٥١٨ هـ) . مطبعة عبدالرحمن محمد ، القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

٤٧ـ المجمل في اللغة : احمد بن فارس ـ ٣٩٥ هـ . تحقيق : هادي حسن حمودي . الكويت سنة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

٤٨ـ مختصر كتاب البلدان : ابن الفقيه الهمذاني . ط (١) مطبعة بريل ، ليدن سنة ١٣٠٢ هـ .

٤٩ـ مختصر كتاب الفرق بين الفرق : عبدالقاهر بن طاهر البغدادي . اختصار: عبدالرزاق ابن رزقالله الرسعني. تحرير : د. فيليب حتي. مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٢٤ م .

٥٠ـ المربد عكاظ العراق : الاستاذ عبدالجبار علوان النايلة . بحث نشر في (مجلة البصرة) التي تصدرها جامعة البصرة ، العدد ١٣ سنة ١٩٨١م .

٥١ـ المربد والسماع : الاستاذ عبدالجبار علوان النايلة . بحث نشر في (مجلة بين النهرين) التي تصدرها مطرانية الكلدان في الموصل العدد ٤٨ سنة ١٩٨٥م .

٥٢ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين ـ ٣٤٦هـ) . تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد . ط(١) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة سنة ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م .

٥٣ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها : جلال الدين السيوطي ـ ٩١١هـ . تحقيق : محمد احمد جاد المولى وصاحبيه . دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابلي الحلبي .

٥٤ـ معجم الادباء (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب): ياقوت الحموي ـ ٦٢٦هـ . مطبعة دار المأمون (سلسلة الموسوعات العربية)، القاهرة سنة ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م .

٥٥ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي ـ ٦٢٦هـ . دار صادر ـ دار بيروت ، سنة ١٣٧٤ = ١٩٥٥م .

٥٦ـ من حديث الشعر والنثر : الدكتور طه حسين . دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧م .

٥٧ـ النقد المنهجي عند الجاحظ : الدكتور داود سلوم . ط(٢) منشورات مكتبة النهضة ، بغداد سنة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م .

٥٨ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان : ابن خلكان ـ ٦٨١هـ . تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد . ط(١) مطبعة السعادة ، القاهرة سنة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م . وهناك مصادر ومراجع أخر اكتفينا بذكرها في حواشي البحث .

واقعة سبيطلة سنة ٢٨هـ/٦٤٨م
نموذجا لانتصار القدرة على القوة

الدكتور ناطق صالح مطلوب
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

الملخص :

تعد واقعة سبيطلة احدى اهم الوقائع التي خاضتها القوات العربية ضد أكبر تجمع عسكري للبيزنطيين في ولاية افريقية ، وحققت فيها بعد طول صبر وقتال انتصارا حاسما ما كان تحقيقه ميسرا ولا بالامر الهين لولا عبقرية القيادة العسكرية وحكمتها التي تجاوزت كل الظروف الصعبة وسخرت معطياتها وبكفاءة عالية لصالحها . وهي من المعارك التي أذلت البيزنطيين وذهب معها عزهم من البلاد ، وخلفت في صفوفهم هزالا ظل اثره فاعلا الى ان تم طردهم نهائيا من المغرب العربي بتحرير مدينة قرطاجنة سنة ٧٩هـ/٦٩٨م .

إن واقعة سبيطلة في مجمل اهدافها ونتائجها مثلت نموذجا حقيقيا لانتصار القدرة المؤمنة على القوة الغاشمة ومنحت العرب ميزة التفوق المعنوي على البيزنطيين في المعارك اللاحقة كلها .

تمهيـــد :

قاد عمرو بن العاص بعد تحرير مصر قوة من الفرسان توغلت في ناحيـة الغرب ونجحت في سنة ٢٢هـ ٦٤٣م[١] من تحرير المدن الساحلية برقة وطرابلس وصبرة[٢] ، والمناطق الصحراوية زويلـة وودان[٣] . ولمـا كانت العمليـات العسـكرية تسير على وفق خطـة مركزية ، فقد اسـتأذن عمرو بن العـاص الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في التقدم لتحرير ولاية افريقية وكتب اليه : (ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بيننا وبين افريقية إلا تسعة ايـام ، فان رأى امير المؤمنين ان يغزوها ويفتحها الله على يده فعل)[٤] ويضـيف ابن عذاري معلومة غاية في الاهمية اوقف ابن العاص من خلالها الخليفة على احوال البلاد عندمـا قال : (وملوكها كثير واهلها في عـدد عظيـم واكثر ركوبهـم الخيل)[٥] . واخبار ابن العاص باحوال البلاد بعد إقليم طرابلس وما احيـط به الخليفة من معلومات اخرى عن طبيعة البلاد السياسية والاجتماعية ، دفعت دار الخلافة الى التريث وتأجيل التقدم فيما وراء إقليم طرابلس والاكتفـــاء

---

(١) وقيل سنة ٢٣هـ . ينظر : ابن عبدالحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ص ٢٢٩ . ابن ابي دينار ، المؤنس ، تحقيـــق محمد شمام ، ص ٢٦ .

(٢) ابن عبدالحكم ، ص ٢٢٩ و٢٣١ . البلاذري ، فتوح البلدان ، مطبعـــة السعادة ، ص٢٢٥ و ٢٢٧ . ابن الاثير ، الكامل ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ج٣ ، ص ٢٦ . ابن عذاري ، البيان المغرب ، تحقيق بروفنسال ، وكـولان ، ليدن ، ١٩٤٨ ، ج١ ، ص ٨ .

(٣) ابن عبدالحكم ، ص ٢٢٠ . ابن ابي دينار ، المؤنس ، ص ٢٦ . وينظر : سالم ، المغرب الكبير ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ج٢ ، ص ١٤٤ . الـزاوي ، تاريخ الفتح العربي لليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٦١ .

(٤) ابن عبدالحكم ، ص٢٣٢ . وينظر : البلاذري ، ص٢٢٧ .

(٥) البيان المغرب ، ج١ ، ص ٨ .

بما حققته القوات العربية من تأمين حدود مصر الغربية ضد ما قد يتهددها من خطر القوات البيزنطية .

ولا خلاف فان عمرو بن العاص لا يمكن له ان يتقدم الى قلب بلاد المغرب والبيزنطيون شوكة في ظهره[٦] ، فضلا عن ان تحرير المغرب يحتاج الى قوات مضافة وإمدادات متواصلة وجهود استثنائية وقاعدة امينة تحمي تلك القوات ، وتؤمن خطوط مواصلاتها واحتياجاتها المتعددة ، وهذا لم يتوفر في اثناء هذه المدة . فمصر ما زالت حديثة عهد بالاسلام ولم تستوثق امورها للقوات العربية اذ ما زال خطر البيزنطيين قائما محاولين استعادة سلطانهم الغابر[٧] . هذه الاسباب وغيرها املت على ابن العاص العودة الى مصر ليشرف على تنظيم ادارتها مما يجعلها جديرة بقيادة حروب التحرير بعد ان خلف في برقة حامية عسكرية بقيادة عقبة بن نافع[٨].

وفي سنة ٢٥هـ/٦٤٥م اعفى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عمرو بن العاص من ولاية مصر، واقر مكانه عبدالله بن سعد بن ابي سرح[٩]، فسار على سياسة سلفه في بعث سرايا الفرسان تجوب اطراف ولاية افريقية ثم تعود الى قاعدة انطلاقها في مدينة برقة[١٠] . ولم يكن هدف تلك البعوث الغنائم والاسلاب كما يفهم من بعض الروايات[١١] ، إنما كان الهدف من ورائها الاستطلاع واستكشاف مكامن العدو البيزنطي وتتبع اخباره ومعرفة قواه

---

(٦) سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ج١ ، ص١٤٥
(٧) ينظر : كتاب المقوقس الى ابن العاص عند ابن عبدالحكم : ٢٣٢ .
(٨) أبن خلدون ، التاريخ ، ط ، بيروت ، ج٢ ، ص١٠٠٣ . سالم ، ج٢ ، ص ١٥٢ .
(٩) عن اعفاء عمرو بن العاص . ينظر : ابن الحكم : ص ٢٣٢ .
(١٠) ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٦ . ابو العرب ، طبقات علماء افريقية وتونس . تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي ، تونس ١٩٦٨ ، ص٦٥ . المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق البكوش ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ج١ ، ص١٤ .
(١١) ابن عبدالحكم ، ٢٤٦ . أبو العرب ، ص ٦٥ . المالكي ، ج٢ ، ص ١٤ .

وما يملكه من عدة وعدد ، وقد نشطت البعوث نشاطا ملحوظا ايام ابن ابي سرح ، وكانت تقاريرها تصل اول باول الى دار الخلافة في المدينة المنورة[١٢] وتشير في مجملها بوضوح الى متغيرات سياسية حادة على مستوى ولاية افريقية والى تحركات واسعة للقوات البيزنطية في المناطق الداخلية ولاسيما منطقة سبيطلة[١٣] ، فقد شهدت الولاية ومناطق نفوذ البيزنطيين في السنوات الاخيرة من حكمهم خلافات دينية ومذهبية عميقة بين الكنيسة الشرقية ، والكنيسة الغربية ، تعددت على آثارها القوى والولاءات وضعفت معها الروابط بين الولاية ومركز السلطة القسطنطينية ، وليس ادل على انعدام الروابط والصلات من بلاد تابعة للدولة البيزنطية يسيطر عليها بابا روما وله من الاشراف والسلطان على امورها والتدخل في شؤونها مثل ما للامبراطور البيزنطي . وكان يعمل جاهدا على افساد الادارة الحكومية ومؤسساتها التي لم يكن ينقصها الاضطراب والفساد لاسباب كثيرة[١٤].

وفي حدود سنة ٦٤٠م دخل الراهب مكسيموس كبير رهابنة كريز ويوليس افريقية فتزعم المعارضة فيها وبدأت اراؤه وتعاليمه تنتشر بسرعة بين معظم السكان[١٥] وكانت شخصيته وقدرته على الاقناع فضلا عن كونه خطيبا مفوها وجريئا لا يخشى احدا قد جذبت الى تعاليمه كبار القائمين على الامر في ولاية افريقية ، ولقيت هوى من نفس حاكم البلاد جريجوريوس فغض

---

(١٢) ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٦ . ابن الاثير ، ج٣ ، ص ٩٠ . النويري ، نهاية الارب ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ج٢٤ ، ص ٧ .

(١٣) ينظر : ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٦ . ابو العرب ، ص ٦٥ . المالكي ، ج١ ، ص ١٤ .

(١٤) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٣٧ ، ٣٨ . وينظر : جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ترجمة محمد المزالي ، الدار التونسية ، ١٩٧٨ ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(١٥) جوليان ، ج١ ص ٣٨١ ، مؤنس ، ص ٤٥ .

الطرف عن نشاط اتباعه وبذل له العون والتشجيع على مناهضة الدولة وتسفيه معتقداتها الدينية وصرف الناس عنها[١٦].

ووجد مكسيموس تشجيعا مماثلا من البابوية في روما فامدته باسباب القوة والتواصل ليعلو بذلك على دعاة الامبراطورية واتباعها . وبهذين السندين توفرت له اجواء ملائمة لعقد عدة مجاميع دينية في قرطاجنة ندّدت بوضوح وصراحة بسياسة الامبراطور ودعته الى ترك الابتداع والافساد في الدين[١٧]. وعندما اعتلى العرش قسطنطين الثاني سنة (٦٤١-٦٦٨م)[١٨] وكان متهما في عقيدته لم يجد مكسيموس صعوبة في دفع اغلبية السكان وبعض قبائل المغرب الى الثورة ضده لصالح حاكم افريقية جريجوريوس في سنة ٦٤٥م[١٩].

وآل جريجوريوس من الاسر المشهورة على مستوى الدولة في القسطنطينية وبلاد المغرب ، توارثوا حكم ولاية افريقية مدة طويلة ، فقد تولي حكمها جريجوريوس الاول ، وابنه تقيتاس ثم حفيده جريجوريوس الثاني المعروف في المصادر العربية باسم جرجير ، ولطول المدة التي قضاها آل جريجوريوس في حكم ولاية افريقية فقد نشأت بينهم وبين اهلها علاقات طيبة ظهرت آثارها واضحة بتأييد الاغلبية لجرجير عندما خلع طاعة الامبراطور البيزنطي واستقل بالولاية وأعلن نفسه امبراطورا[٢٠].

---

(١٦) مؤنس ، ص٤٥ ، ٤٦ ، جوليان ، ج١ ص٣٨١ ، ٣٨٢ .

(١٧) جوليان ، ج١ ص ٣٨٢ ، مؤنس ، ص ٤٦ .

(١٨) في تاريخ المغرب العربي ، لسعد زغلول ، ج١ ، ص١٢٥ « قسطنطين الرابع وتوليه العرش سنة ٦٤٥م ولكن انظر : سليفان ، مدن الامبراطورية الرومانية ، ترجمة جوزيف نسيم ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٥٤ . ومؤنس ، ص ٣٢٦ . الذيل : رقم (٢) .

(١٩) جوليان ، ج١ ، ص ٣٨٢ .

(٢٠) مؤنس ، ص ٣٩ ، ٤٦ . وينظر : جوليان ج١ ص ٣٨٢ .

كان تحت سلطان جرجير من مناطق النفوذ ما يمتد من طرابلس الى طنجة باجماع المؤرخين[٢١] ، ولكي يأمن خطر القوات البحرية البيزنطية غادر مدينة قرطاجنة الساحلية واختار له قاعدة جديدة تقع في جوف البلاد باتجاه الجنوب فنزل مدينة يقال لها سبيطلة[٢٢] سنة ٢٤هـ/٦٤٦م[٢٣] . وكان لهذه المدينة اهمية عسكرية خاصة بوصفها واحدة من سلسلة المدن الرئيسة التي اقامها البيزنطيون للدفاع عن مناطق نفوذهم[٢٤] ، في حين يرى ديل ان اختيار جرجير لهذه المدينة قاعدة له إنما يعود الى استشعاره خطر القوات العربية بعد تحرير طرابلس وصبرة[٢٥] وهو ما يذهب اليه جوليان ايضا عندما عد سبيطلة مجرد قاعدة مؤقتة اتخذها جرجير تلافيا لاي خطر قد يتعرض له لا عاصمة دائمية[٢٦] ومع ان هذه الاراء تبدو معقولة غير انها تكون اكثر قبولا لو ان جرجير سار الى هذا المكان عندما علم بمسير عبدالله بن ابي سرح اليه ، او لسد الطريق امام القوات العربية الزاحفة نحو مناطق نفوذه[٢٧] . وفي هذه الحالة كان عليه ان يعسكر عند مدينة قابس ويسد على القوات العربية الطريق الضيق الذي يؤدي من طرابلس الى افريقية بين قابس وشط الجريد[٢٨] فهي اشبه بعنق الزجاجة كما يقول العسكريون . اما ان ينتقل جرجير من مدينه

---

(٢١) ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٦ . البلاذري ، ص ٢٢٦ . المالكي ، ج١ ص ١٩، ٢٠ . الدباغ ، معالم الايمان ، تحقيق ابراهيم شبوح ، القاهرة ١٩٦٨ ، ج١ ، ص٣٢ . ابن الاثير ، ج٣ ص٨٩ . ابن عذاري ، ج١ ص٩ . النويري ج٢٤ ص ٧ . ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٣ و١٠٠٤ .

(٢٢) عن تاريخ المدينة ينظر : الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ج٣، ص ١٨٧ . الحميري ، الروض المعطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٣٠٢ .

(٢٣) مؤنس ، ص٧٥ ، ٥٧٦ سالم ، ج٢ ص١٥٢ . جوليان ، ج٢ ص١٧ .

(٢٤) سعد زغلول ، ج١ ، ص ١٥١ . جوليان ، ج٢ ، ص ١٧ .

(٢٥) مؤنس ، ص ٧٥ .

(٢٦) تاريخ افريقية الشمالية ، ج٢ ص ١٧ .

(٢٧) سعد زغلول ، ج١ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢٨) مؤنس ، ص ٨٥ . وينظر ، سعد زغلول ، ج١ ص ١٥٣ .

قرطاجنة مع اهله وحريمه وحكومته الى مدينة سبيطلة فهذا اجراء لا تمليه الضرورة العسكرية[29] . ويبقى القول الاول مرجحا على غيره ، مع الاخذ بنظر الاعتبار طمع جرجير في استمالة قبائل المنطقة الى جانبه . وفي الوقت نفسه قام بتحصين المدن الشرقية مثل قابس وسفاقس وقفصة وكون منها خطا دفاعيا اماميا بوجه اي تقدم ضده من ناحية الشرق[30].

كل هذه المتغيرات على الساحة المغربية كانت امام انظار دار الخلافة في المدينة المنورة ، وهي تعبر من دون شك عن دقة الوضع الاستراتيجي للعرب في غرب ولاية مصر فالوجود العسكري البيزنطي الكثيف في سبيطلة وما جاورها كان ينطوي على الكثير من التهديد والمخاطر ، ومعالجته يعد من الضرورات العسكرية لحماية حدود مصر الغربية فضلا عن مصر نفسها[31] . وما يقوله بعضهم من ان الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) إنما وافق ابن ابي سرح على تجهيز الجيش (إما نكاية منه في عمرو [بن العاص] الذي كان مقيما اذ ذاك في المدينة منددا عليه وعلى واليه الجديد على مصر ، وإما رغبة منه في تعزيز مركز اخيه في الرضاعة بفتح عظيم كفتح افريقية)[32] ، فقول لا ينظر اليه ولا يعتد به .

وبعد مشاورات طويلة بين الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وكبار الصحابة في المدينة المنورة[33] جاءت موافقة دار الخلافة مع العمل على

---

(٢٩) سعد زغلول ، ج١ ص ١٥٣ .

(٣٠) ينظر : جوليان ، ج٢ ص ١٦ سالم ، ج٢ ص ١٥٢ .

(٣١) ينظر : ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٦ . ابو العرب ، ص ٩٥ . المالكي ج١ ص ١٤ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ .

(٣٢) مؤنس ، ص ٧٩ . وينظر : جوليان ، ج٢ ص ١٦ . سعد زغلول ، ج١ ، ص ١٥٤ .

(٣٣) ابن عبدالحكم ، ص٢٤٦ . ابو العرب ، ص٩٥ . المالكي ، ج١ ص١٤ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٣٨ . النويري ، ج ٢٤ ص ٧ . ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٣ .

إعداد جيش استنفر لاجله اهل المدينة وما حولها من القبائل ، وغيرهم من قبائل الحجاز[٣٤] ، وقد سمّت المصادر التاريخية اسماء القبائل المشاركة واحصت عدد من شارك منهم في هذا الجيش وافصحت عن مشاهيرهم فكان من قبيلة مهرة ستمائة رجل ، ومن غنث من الازد سبعمائة رجل ، ومن ميدعان من الازد ايضا سبعمائة رجل وكان على مقاسمها شريك بن سمي[٣٥] ، وخرج من جهينة ستمائة رجل ، ومن اسلم ثلاثمائة رجل فيهم حمزة بن عمرو الاسلمي وسلمه بن الاكوع ، ومن مزينة ثمانمائة رجل ، ومن بني سليم اربعمائة وخمسون رجلا ، ومن بني الديل وضمره وغفار خمسمائة رجل ، ومن غطفان واشجع وفزارة سبعمائة رجل ، ومن كعب بن عمرو اربعمائة رجل[٣٦] وكانوا آخر من قدم على الخليفة (رضي الله عنه) والناس مقيمون بالجرف على ثلاثة اميال من المدينة المنورة[٣٧].

ومن مشاهير الرجال : عبدالله بن العباس ومعبد بن العباس وكلاهما من بني هاشم ومن بني تيم : عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق وعبدالرحمن بن صبيحة في عدة من قومه ، ومن بني عدي : عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب وعبيدالله بن عمر وعاصم بن عمر في عدة منهم ، ومن بني اسد : عبدالله بن الزبير في جماعة من قومه ، ومن بني سهم : عبدالله بن عمرو بن العاص والمطلب بن السائب في جماعة منهم ، ومن بني امية : مروان بن الحكم واخوه الحارث في آخرين منهم ، ومن بني عامر : يسر بن ابي ارطأة وجماعة من قومه . وشارك في الحملة ايضا معاوية بن حديج وزهير بن قيس البلوي ورويفع بن ثابت الانصاري وعقبة بن نافع

---

(٣٤) البلاذري ، ص ٢٦٦ .
(٣٥) ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٧ .
(٣٦) ابو العرب ، ص ٦٩ ، المالكي ، ج١ ص ١٦ . النويري ، ج٢٤ ص ١٠ .
(٣٧) النويري ، ج٢٤ ص ١٠ .

الفهري وغيرهم[٣٨] واعان الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الجيش بألف بعير من ماله لحمل فقراء المقاتلين وفرق عليهم السلاح ، وامر للناس باعطياتهم ثم قام بهم خطيبا بما يليق به المقام من الترغيب في الجهاد وذكر فضائله[٣٩] . ثم ودعهم بعد ان ولى عليهم الحارث بن الحكم ليقودهم في الطريق الى الفسطاط[٤٠] . وتجمعت هذه القوات ومن انضم اليها في مصر حتى بلغت العشرين الف مقاتل[٤١] . وقد اطلق المؤرخون على هذا الجيش اسم جيش العبادلة نسبة الى كبار ابناء الصحابة المشاركين فيه التي تبدأ اسماؤهم بلفظ العبودية[٤٢].

خرج جيش العبادلة من مصر سنة ٢٧هـ/٦٤٧م وعلى قيادته عبدالله بن ابي سرح[٤٣] بعد ان خلف على مصر عقبة بن عامر الجهني[٤٤] . والمصادر التاريخية لا تشير الى الطريق الذي سلكه ابن ابي سرح من مصر الى برقة واغلب الظن انه سلك الطريق الساحلي الذي يمر جنوب مدينة الاسكندرية الى ابي قير[٤٥] . وفي بوقة انضمت اليه حاميتها بقيادة عقبة بن نافع الفهري ومنها زحف باتجاه الغرب تتقدمه سرايا الفرسان للاستطلاع وتأمين الطريق[٤٦] .

---

(٣٨) ابو العرب ، ص ٦٨ ، ٦٩ . المالكي ، ج١ ص ١٥ ، ١٦ ، النويري ، ج٢٤ ص ٩ . وينظر : ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٣ .

(٣٩) النويري ، ج٢٤ ، ص ١٠ .

(٤٠) ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٦ . النويري ، ج٢٤ ص ١٠ .

(٤١) ابن عبدالحكم ، ص ٣٤٧ . ابو العرب ، ص ٦٨ . المالكي ، ج١ ص ٣٣ . الدباغ ج١ ص ٣٣ ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ .

(٤٢) المالكي ، ج١ ص ١٦ . النويري ، ج٢٤ ص ٧ ، ٨ .

(٤٣) ابن عبدالحكم ، ص ٢٥٠ ، ابو العرب ، ص ٦٩ . المالكي ، ج١ ، ص ١٦ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ . ابن عذاري ، ج١ ص ٨ . النويري ، ج٢٤ ص٧ و ١٠ وتردد البلاذري ، ص ٢٢٦ بين سنوات ٢٧ و ٢٨ و ٩٢ . وقال ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٣ (في سنة ٢٦هـ) .

(٤٤) ابو العرب ، ص ٧٠ . مقال النويري ، ٢٤ ص ١٠ (عقبة بن نافع)

(٤٥) سعد زغلول ، ج١ ص ١٥٠ .

(٤٦) المالكي ، ج١ ص ١٧ ، الدباغ ، ج١ ص ٣٤ . النويري ، ج٢٤ ص ١١ .

وكان ابن ابي سرح حريصا كل الحرص على معنويات قواته وادامة قدراتها القتالية ، متجنبا كل ما يتعب المقاتلين ويستنزف طاقتهم ، ملتزما تمام الالتزام بوصايا الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وتوجيهاته وفي قول ابن الزبير (... وكنا مع وال حافظ حفظ وصية امير المؤمنين فكان يسير بنا الابردين[٤٧] (طرفي النهار) ويخفظ بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جملا ، يعجل الرحيل من المنزل المقر ، ويطيل اللبث في المنزل الخصب ، فلم يزل على احسن حالة نعرفها من ربنا حتى انتهينا الى افريقية ...)[٤٨] بعض مما يدل على تلك المعاني .

وعند مدينة طرابلس نجحت قوة الاستطلاع بعد قتال من الاستيلاء على مراكب للبيزنطيين صادف رسوها على الساحل واسر رجالها واحتواء حمولتها فكانت اول غنيمة تصيبها القوات العربية[٤٩] ، فتحصن اهل طرابلس على اثرها وراء الاسوار ولم يعرضوا للقوات العربية واكتفى ابن ابي سرح من جانبه بالمناورة بالقوى ، وكذلك فعل عندما اشرف على مدينة قابس فتركها نحالها[٥٠] . ولاشك في ان خبراء الحرب في هذه المناطق كانوا واثقين تماما من ان سكان هاتين المدينتين كانوا يكتفون منهم بتركهم في امان[٥١] . وانحرف ابن ابي سرح بعدها عن الطريق الساحلي باتجاه الجنوب وواصل زحفه وعسكر في اقليم قمونية قريبا من المكان الذي ستقام عليه مدينة القيروان غير بعيد عن مدينة سبيطلة[٥٢] . ولبث في هذا المكان اياما للراحة والتنظيم

---

(٤٧) القراءة عند سعد زغلول ج١ ص ١٥١ : (بريدين) وهي خطأ وعلى اساس هذا الخطأ بنى اعتقاده بأن ابن ابي سرح جعل الطريق مراحل كل مرحلة مسافة (بريدين) .

(٤٨) المالكي ، ج١ ص ٢٦ . الدباغ ، ج١ ص ٤٠ . وينظر ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٤ ص ١٠٨ .

(٤٩) البلاذري ، ص ٢٦٨ . المالكي ، ج١ ص ١٧ . الدباغ ، ج١ ص ٣٤ . ابن عذاري ج١ ص ١٠ .

(٥٠) البلاذري ، ص ٢٦٨ . الدباغ ، ج١ ص ٣٤ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٩١ .

(٥١) ابو العرب ، ص ٦٧ ، المالكي ، ج١ ص ١٥ .

(٥٢) ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ . النويري ، ج٢٤ ص ١٢ .

قواته وتعبئتها ميمنة وميسرة وقلبا استعدادا لاي طارىء ، في حين بدأت الرسل تتردد الى معسكر البيزنطيين لدعوة جرجير واتباعه الى الدخول في الاسلام او القبول بدفع الجزية(٥٣) ، واستمر اختلاف الرسل الى معسكره ثلاثة عشر يوما من دون طائل(٥٤) فقد رفض جرجير كلا الخصلتين استكبارا منه ، واعتدادا بقواته الكثيفة التي قيل انها كانت في مائة الف مقاتل أو مائة وعشرين الفا(٥٥) وقيل في مائتي الف(٥٦) ، وهو رقم مبالغ فيه كثيرا فقد استبعد مؤنس ان يكون لجرجير كل هذه القوات لاسباب ذكرها ثم قال : (وربما التفت حوله جموع كثيرة من الروم واهل البلاد من غير المحاربين خوفا من العرب فظن هؤلاء ان كل من معه جنود)(٥٧) . وهو تعليل لا يليق بقدرة العرب على التمييز بين المقاتلين من الجنود وغيرهم .

ويرى سعد زغلول ان الرواة ارادوا ابراز النتائج العظيمة التي حققها العرب بامكانات قليلة(٥٨) . ونحن لا نستبعد في جميع الاحوال تفوق قوات جرجير في العدد والعدة ووفرة المؤن وحصانة المكان على القوات العربية وهو ما تؤكده جميع المصادر التاريخية .

كان رفض جرجير للاسلام والجزية بداية للحرب بين الطرفين فقام ابن ابي سرح في جنده خطيبا فذكر فضل الجهاد وما لصاحبه اذا صبر واحتسب(٥٩) .

---

(٥٣) المالكي ، ج١ ص ١٧ . الدباغ ، ج١ ص ٣٤ ، ٤٠ . ابن الاثير ، ج٣ص٨٩ النويري ، ج٢٤ ص ١٢ .

(٥٤) المالكي : ج١ ص ٢٦ . الدباغ ، ج١ ص ٤٠ .

(٥٥) ابن خياط ، التاريخ ، تحقيق اكرم العمري ، النجف ، ١٩٦٧ ، ج١ ص ١٣٥ . المالكي ، ج١ ص ١٩ ، الدباغ ، ج١ ص ٣٥ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ . ابن عذاري ، ج١ ص ١٠ ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٤ .

(٥٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ط ، دار الكتب ، ج١ ص ٨٥ — وينظر مؤنس ص ٨٧ ، الهامش (٤) .

(٥٧) فتح العرب للمغرب ، ص ٨٦ الهامش رقم (٤) .

(٥٨) تاريخ المغرب العربي ، ج١ ص ١٥٤ .

(٥٩) المالكي ، ج١ ص ٢٦ . الدباغ ، ج١ ص ٤٠ .

وفي فحص من الارض بعرف بعقوبة بينها وبين مدينة سبيطلة يـوم وليلة[٦٠] بدأ القتال بين الطرفين واستمر مدة ليست بالقصيرة من دون ان ينتهي لصالح احد . والظاهر من اسلوب القتال ان الفريقين العرب والبيزنطيين كان يخشى احدهما الاخر . فالبيزنطيون كانوا يخافون العرب وينهزمون امامهم كلما أشتد القتال ، والعرب كانت تتحسب من اسلوب البيزنطيين وخططهم في القتـال وتتوجس من كثرتهم وعظم معداتهم ، مما املى على الطرفين قتالا غير حاسـم كان يبدأ في الصباح الباكر ويتوقف عند الظهيرة ، ويعود كل طرف الـى معسكره ولا يستأنفون القتال إلا في اليوم التالي[٦١] . ولا خلاف فان مثل الاسلوب لا يخدم القوات العربية بقدر ما كان يخدم قوات الطرف المعـادي فليس من السهولة عليها تعويض ضحاياها وتأمين مستلزمات العسكر ومؤونتهم لمدة طويلة ، في حين كان البيزنطيون يزدادون عـددا وعدة مع مرور الايـام ، وواضح ايضا ان البيزنطيين ارادوا التمادي فيه من دون تغيير قاصدين إنهاك القوات العربية واضعاف قدراتها المادية المعنوية مع تعاقب الايام[٦٢].

ولم يكن ابن ابي سرح واركان قيادته بغافلين عن مخاطر هذا الاسلوب ونتائجه ، ولكنهم كانوا ايضا بحاجة الى اطول وقت ممكن لمعـرفة خصائص القوات البيزنطية وعناصر القوة والضعف في تشكيلاتها ، فضلا عن انتظـار مدد دار الخلافة الذي ارسل ابن ابي سرح في طلبه . اذ إن تحليل المعلومـات المستخلصة من ميدان المعركة فرضت على القيادة العامة واقعا لا يمكن تجاوزه إلا بقوات مضافة من الفرسان ، وبهذه القوات المنتظر وصولها فقط يمكـن

(٦٠) البلاذري ، ص ٢٢٨ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ . النويري ، ج٢٤ ص ١٢ .

(٦١) المالكي ، ج١ ص ١٠٨ . الدباغ ، ج١ ص ٤٣ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ . النويري ، ج٢٤ ص ١٣ .

(٦٢) قال المالكي في الرياض ، ج١ ص ٢١ . (وذكر ان ابنة الملك ـ يعني ابنـة جرجيـر اشرفت على العرب في عسكرهم فأستقلتهم ، فقالت لابيهـا لا تسرع بالقتل في هؤلاء وانحلنيهم . فقال : قد نحلتك اياهم) . وينظـر : الدباغ ، ج١ ص ٤١ .

اعتماد خطة قتالية تباغت البيزنطيين وتنتهي بالنصر الحاسم على قواتهم الكثيفة .

وتكاد المصادر التاريخية تجمع على وصول هذه الامدادات الى سبيطلة قبل نشوب المعركة الحاسمة[٦٣] ولكنها تختلف في قائد تلك الامدادات وكيفية وصولها ، فقد روى ابن عبدالحكم ما يشير الى وصول مروان بن الحكم من افريقية الى المدينة المنورة مبعوثا من ابن ابي سرح لمواجهة الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)[٦٤] من دون ان يفصح عن الاسباب التي كانت وراء وصوله ، او المهمة التي كلف بها ، ويشكل وضع القوات العربية في سبيطلة وطلب المدد من دار الخلافة هاجسا قويا يظل في مقدمة ما كلف به مروان بن الحكم للتداول به مع الخليفة ، اذ مكث في المدينة المنورة كما تقول الرواية مدة زادت على الشهر[٦٥] ، وهي مدة طويلة لابلاغ رسالة اذا لم يكن هنالك مسوغ آخر يستوجب البقاء والانتظار في ظروف حرجة لا تحتمل التأخير .

وتقرأ لابن الاثير ما نصه : (وانقطع خبر المسلمين عن عثمان (رضي الله عنه) فسير عبدالله بن الزبير في جماعة اليهم لتأتيه اخبارهم فسار مجدا ووصل اليهم ، واقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد اتاهم عسكر ففت ذلك في عضده)[٦٦] وبمثل هذه الرواية اخذ النويري[٦٧] ، وابن خلدون[٦٨] . وقول (ابن الاثير وانقطع خبر المسلمين ....) غير صحيح لان البريد بين مقر القيادة العسكرية في سبيطلة ودار الخلافة في المدينة المنورة عبر برقة ومصر كان ساخنا ولا يمكن ان

---

(٦٣) ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ . ابن عذاري ، ج١ ص ١٠ . النويري ، ج٢٤ ص ١٢ . ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٤ .
(٦٤) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٠ .
(٦٥) ابن عبدالحكم ، ج٣ ، ص ٢٥١ .
(٦٦) الكامل ، ج٣ ص ٨٩ .
(٦٧) نهاية الارب ، ج٢٤ ص ١٢ .
(٦٨) التاريخ ، ج٢ ص ١٠٠٤ .

يكون الحال بالصورة التي يصورها ابن الاثير وعبارة النويري : (ودامت الحرب بين الطرفين وطالت)[٦٩] اكثر دقة في التعبير عن الواقع الذي كانت تعيشه القوات العربية ، وما قيل عن وصول عبدالله بن الزبير ميدان المعركة مبعوثا من الخليفة معسكر من جند الخلافة فقول لا سند لـه ولا يلامس الحقيقة التاريخية في شيء ، لان عبدالله بن الزبير كان من بين الرجال الذين خرجوا من المدينة المنورة الى مصر ، ثم رافق الحملة صحبة ابن ابي سرح الى سبيطلة ، ويعزى الفضل في توثيق هذا الخبر الى المؤرخين المغاربة : ابي العرب والمالكي والدباغ[٧٠] بل إن النويري قد خلط بين الرواية المغربية ورواية ابن الاثير خلطا من غير تمييز ولا تحقيق[٧١] وجر وراءه ابن خلدون فوقعا في تناقض بيّن وساقا الاحداث في اضطراب لا يخفى امره على احد[٧٢] .

واذا كنا لا نميل الى تفسير رواية ابن عبدالحكم المغلقة المعاني والدلالات على اساس صلة القرابة بين الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ومروان بن الحكم ، فان مثل هذا التفسير قد يفرض نفسه في مثل هذه الحالة ويكون اختيار ابن ابي سرح لمروان بن الحكم رسولا من قبله الى دار الخلافة للمهمة التي ذكرنا اقرب بكثير من اختيار اي شخص آخر ، وبذلك يمكن القول وبترجيح كبير ان الواصل بمدد دار الخلافة الى سبيطلة هو مروان بن الحكم وليس عبدالله بن الزبير ، وان ذلك كان بناءً على طلب من ابن أبي سرح وليس مبادرة من دار الخلافة .

لقد كان لوصول الامدادات العربية الى سبيطلة وقع شديد على القوات

---

(٦٩) نهاية الارب ، ج٢٤ ص ١٢ .
(٧٠) طبقات علماء افريقية وتونس ، ص ٦٨ . رياض النفوس ، ج١ ص ٢٥ . معالم الايمان ، ج١ ص ٤٠ .
(٧١) نهاية الارب ، ج٢٤ ص ٨ ، ١٢ .
(٧٢) تاريخ ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ .

البيزنطية وعميت عليهم الامور واضطربت[٧٣] ، وحاول جرجير التخفيف من وطأة ما فشا في قواته من الوهن ، فطفق يسير بن صفوفهم مرغبا اياهم في القتال ومعلنا عن مكافأة سخية ومكانة عليّة وهو يقول مناديا : من قتل عبدالله بن ابي سرح .. فله مائة الف دينار وازوجه ابنتي[٧٤] ، وسقت اليه ما معها من الحلي والجواري والخدم وانزلته المنزلة التي لا يطمع فيها احد عندي فحرض اتباعه تحريضا كثيرا[٧٥] . فلما انتهى الى ابن ابي سرح ما قاله جرجير نادى في عسكره واخبرهم بالذي كان من فعله ثم قال .. من قتل جرجير نفلته ابنته ومن معها[٧٦] وله مائة الف دينار واستعملته على الولاية[٧٧].

وزعم ابن الاثير إن نداء جرجير هذا كان قبل وصول الامدادات العربية الى ميدان القتال وان ابن الزبير عندما وصل معسكر العرب مبعوثا من الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) حسب روايته شهد القتال من الغد ولم ير ابن ابي سرح فسأل عنه : (فقيل انه سمع منادي جرجير يقول من قتل عبدالله بن سعد فله مائة الف دينار وازوجه ابنتي ، وهو يخاف فحضر عنده وقال له : تأمر مناديا ينادي من اتاني برأس جرجير نفلته مائة الف وزوجته ابنته .. ففعل ذلك فصار جرجير يخاف اشد من عبدالله ...)[٧٨] وبهذه الرواية الساذجة اخذ النويري وابن خلدون[٧٩] وهي رواية ظاهرة الوضع لاسباب

(٧٣) البيان المغرب ، ج١ ص ١٠ . والنص : (فلما راى جرجير العرب اشتد رعبه واهمته نفسه) .
(٧٤) ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ النويري ج٢٤ ص ١٣ . ابن خلدون ، ج٢ص١٠٠٤
(٧٥) المالكي ، ج١ ص ٢٢ . الدباغ ، ج١ ص ٣٧ . ابن عذاري ، ج١ ص ١٠ . زاد ابن الشماع في الادلة البينة النورانية ، تحقيق الطاهر المعموري ، تونس ، ١٩٨٤ ص ٤٢ (من يقتل عبدالله بن سعد فله نصف ملكي) .
(٧٦) المالكي، ج١ ص ٢٣ . الدباغ ، ج١ ص ٣٧ . ابن عذاري ، ج١ ص ١٠ . ابن الشماع ، ص ٤٢ .
(٧٧) ابن الاثير ، ج٣ ص ٨٩ ، ٩٠ . النويري ، ج٢٤ ص ١٣ . ابن خلدون، ج٢ ص ١٠٠٣ .
(٧٨) الكامل ، ج٣ ص ٩٠ .
(٧٩) ينظر : نهاية الارب ، ج٢٤ ص ١٣ . تاريخ ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٤ .

معروفة ولا تحتاج الى كبير دليل لاثبات بطلانها ، فنداء جرجير في قواته ما كان من غير سبب وحدث استجد في الميدان وغير مجرى الامور مما اثار الرعب في نفوس جنده ولذلك يكون من الطبيعي استخدام مبدأ التوجيه المعنوي . وان يعمل جرجير على تماسك صفوف قواته وإدامة معنوياتها باغراءات مادية ودنيوية . ومن ثم فهل من المعقول والمقبول ان يصل مبعوث الخليفة في مهمة عاجلة ويشيع خبره في المعسكر كله ويخفى امر وصوله على القائد الاعلى ؟ وبقية الرواية سقط من القول لا يستحق الالتفات اليه .

نعود ونقول ان مدد الفرسان الذين وصل معسكر العرب هيأ للقيادة العليا فرصة تغيير الخطة القتالية بعد ان طالت المناوشات والمعارك بين الطرفين[٨٠].

وتعتمد الخطة البديلة على مبدأ الخدعة والمباغتة وتقوم على تقسيم القوات العربية الى قسمين ، يشارك قسم منها في القتال على العادة من الصباح الى الظهيرة ويكمن القسم الاخر في خيامهم مع كامل عدتهم ، فاذا ما توقف القتال وعاد كل طرف الى معسكره ، تبدأ القوات الكامنة بالهجوم وحسب توجيهات القادة الميدانيين[٨١].

بهذه الخطة القتالية دخلت القوات العربية المعركة الحاسمة ، واذا كنا لا نعرف التوقيت الدقيق لبدء المعركة ، فان الثلث الاخير من سنة ٢٨هـ/٦٤٨م الذي يوافق حسب التقويم الميلادي شهور : حزيران ، وتموز وآب ، يبدو مناسبا ومنسجما مع ما تذكره المصادر التاريخية من ان قتالا

---

(٨٠) وقيل ان تبديل الخطة القتالية كانت بناء على اقتراح من عبدالله بن الزبير ، او احد الاقباط المرافقين للحملة . ينظر : المالكي ، ج١ ص ١٧ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ ، النويري ، ج٢٤ ص ١٣ .

(٨١) ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ . النويري ، ج٢٤ ص ١٤ و١٥ . ابن خلدون ، ج٢ ص ١٠٠٤ و١٠٠٥ . وينظر : المالكي ، ج١ ص ١٨ و٢٠ و٢٣ و٢٤ . وابن عذاري ، ج١ ص ١١ .

عنيفاً اندلع بين الطرفين في يوم كان شديد الحرارة[٨٢] ، امتد الى اذان الظهر ، فهمت القوات المعادية بالانسحاب من الميدان جريا على ما اعتادوا عليـــه ، فلم تمكنهم القوات العربية من ذلك وواصلت الالتحام بهم والقتال بغيـــة إنهاكهم (فاشتد الحر وعظم الخطب حتى لم يبق لاحد من الفريقين طاقــة بحمل السلاح فضلا عن القتال به)[٨٣]. وعندها امر ابن ابي سرح جنده بفك الاشتباك فعاد كل فريق الى معسكره ووضعوا اسلحتهم وتركوا خيولهم فلما اطمأن القوم في خيامهم[٨٤] ، بدأت الصفحة الثانية من الخطــة فبادرت قوة خاصة من خيرة الفرسان العرب[٨٥] بالهجوم مستهدفة مقرات القيادة للبيزنطيين وتبعتها الفرق العسكرية الكامنة بهجوم صاعق اجتاحت به المعسكر البيزنطي وانزلت بجنده خسائر كبيرة ، وكان بين قتلاهم جرجير وعدد من قـــواده ومساعديه ، فضلا عن اعداد كبيرة من الاسرى ، وولت بقيتهم هاربة باتجاهات مختلفة[٨٦] ، وسبقت قوة من الفرسان المنهزمين الى ابواب مدينة سـبيطلة فحالت بينهم وبين دخولها[٨٧] ، وبعد حصار للمدينة ومعركة لم تكلف القوات العربية كثيرا تم تحريرها وتطهيرها من بؤر المقاومة[٨٨].

ووفي عملية لاستثمار النصر المحقق ، اعاد ابن ابي سرح تنظيـم قواته ، وارسل عدة تشكيلات من الفرسان طاردت المنهزمين الذين اعتصموا في المدن

---

(٨٢) ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ . النويري ، ج٢٤ ص ١٤ و١٥ وينظر : مؤنس ، ص ١٠٦ .

(٨٣) ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ . وينظر : النويري ، ج٢٤ ص ١٥ .

(٨٤) ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ . النويري ، ج٢٤ ص ١٥ .

(٨٥) كانت في ثلاثين فارسا على راسهم عبدالله بن الزبير كما يقول : المالكي ، ج١ ص ٢٤ ، والدباغ ، ج١ ص ٣٨ . وابن عذاري ، ج١ ص ١٨ .

(٨٦) ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ . النويري ، ج٢٤ ص ١٥ . ابن خلـدون ، ج٢ ص ١٠٠٥ . وينظر : المالكي ، ج١ ص ٢٠ و٢٤ . ابن عذاري ، ج١ ص١١

(٨٧) المالكي ، ج١ ص ٢٠ . ابن عذاري ، ج١ ص ١١ .

(٨٨) المالكي ، ج١ ص ٢٠ . ابن الاثـير ، ج٣ ص ٩٠ . ابن عـذاري ، ج١ ، ص ١١ . النويري ، ج ٢ ص ١٦ .

والقلاع فجالت في مناطق واسعة من الولاية وبلغت جنوبا مدينة قفصة في اقليم الجريد ، وجازت الى مرماجنة[٨٩] • كما بلغت قوة اخرى حصن الجم على طريق سوسة وضربت عليه الحصار فدخلته صلحا[٩٠] ، بعد ان اخلته القوات البيزنطية منسحبة الى جزيرة باشو (شريك) ومنها اقلعوا الى جزيرة قوصرة[٩١]•

واما عن قاتل جرجير فان العلاقة بين قاتله ومصير ابنته يفرض على الاحداث سياقا متطابقا من دون اختلاف ذي شأن كبير • فحسب الروايات التأريخية ان قاتله هو عبدالله بن الزبير او رجل مجهول من الأنصار[٩٢] ، زاد المالكي رواية تقول : (فلما التقوا بالمسلمين نادى جرجير بالبراز فبرز اليه عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم فقتله ابن الزبير ، ومنهم من قال قتلاه جميعا)[٩٣] • وهي رواية غريبة المضمون ولا تستقيم مع سياق الاحداث والاغرب منها ما اخذ به نفر من المؤرخين ، الذين يعتمدون على الرواية اليونانية[٩٤] كالمسيو توكسييه الذي يشك فيما اذا كان جرجير قد قتل في ميدان المعركة ، ويزعم ان اتباعه قد خلعوه بعد هزيمته في سبيطلة ، واقاموا بدلا منه جناحه (جناديوس) • ولذلك لم يكن بامكانه البقاء في الولاية لان الحاكم الجديد لا يسمح له بذلك ، كما انه لا يستطيع العودة الى القسطنطينية خوفا مما كان ينتظره من العقاب جراء خروجه على السلطة المركزية • ولم يبق

---

(٨٩) المالكي ، ج١ ص ٢١ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ . ابن عذاري ، ج١ ، ص ٩ . النويري ، ج٢٤ ص ١٦ .

(٩٠) ابن الاثير ، ج٣ ص ٩٠ . النويري ، ج٢٤ ص ١٦ . ابن خلدون ، ج٢ ، ص ١٠٠٥ .

(٩١) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ، ١٨٥٧ . ص٤٥ وينظر : سعد زغلول ، ج١ ص ١٥٩ .

(٩٢) ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٨ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٩١ .

(٩٣) رياض النفوس ، ج١ ص ١٩ وينظر : الدباغ ، ج١ ص ٣٥ .

(٩٤) ينظر : مؤنس ، ص ٩٣ .

له إلا تسليم نفسه بشروط الى القوات العربية ، فدخل مصر ، وبها مات سنة ٣٣هـ/٦٥٣م(٩٥).

وعلى اساس هذا السياق تكون ابنة جرجير قد آلت الى عبدالله بن الزبير ، أو الى رجل من الانصار ، واذا كان عبدالله بن الزبير الغالب في الترجيح على غيره عند تسمية قاتل جرجير فان نقله ابنته من قبل ابن ابي سرح او انها اصبحت من نصيبه يظل محفوفا بكثير من الشكوك فلو انها آلت الى ابن الزبير ... لعرفنا اخبارها او اخبار عقبها ، كما عرف عقب سارة ابنة ملك الاندلس القوطي(٩٦) ، عليه يكون خبر انتحارها اقرب الى الحقيقة من وقوعها في سهم ابن الزبير او غيره(٩٧) ، بل ان هناك من ينكر وجودها اصلا ويعدها مجرد اسطورة لا يلتفت اليها(٩٨).

كانت الانتصارات التي حققتها القوات العربية على القوات البيزنطية في اكثر من مكان بعد واقعة سبيطلة قد اثارت في صفوف بقيتهم رعبا شديدا فلجأوا الى الحصون والمعاقل(٩٩) واذعن للطاعة رؤساء المدن الافريقية وتعهدوا لابن ابي سرح بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة قنطار من ذهب .وفي رواية ألفا ألف وخمسمائة الف دينار(١٠٠) اي مايعادل (٢ر٥٠٠ر٠٠٠) دينار وكان في شرط صلحهم ان ما اصاب العرب قبل الصلح فهو لهم ، وما اصابوه بعد الصلح

---

(٩٥) ينظر : مؤنس ، ص ٩٣ . بينما يقول الكندي في كتاب الولاة والقضاء ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١١ . انه قتل على يد معاوية بن حديج .

(٩٦) سعد زغلول ج١ ص ١٥٨ .

(٩٧) ابن عبدالحكم ، ص ٢٤٨ . المالكي ، ج١ ص ٢٠ و٢١ و٢٤ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٩١ .

(٩٨) مؤنس ، ص ٩٢ و٩٧ . جوليان ، ج٢ ص ١٧ .

(٩٩) ابن عذاري ، ج١ ص ١٢ . وينظر : المالكي ، ج١ ص ٢١ .

(١٠٠) البلاذري ، ص ٢٢٨ . المالكي ، ج١ ص ٢٠ ، الدباغ ، ج١ ص ٣٤ و٣٥ و٤٢ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٩١ . النويري ، ج٢٤ ص ١٦ . ابن عذاري ، ج١ ص ١٢ .

ردوه اليهم[١٠١] . وامر ابن ابي سرح بعد ان استكملت القوات العربيـة جميع اهدافها باخراج خمس الغنائم ، وتولى عبدالله بن العباس توزيع الاربعة الاخماس الباقية على المقاتلين[١٠٢] ، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينـار ، وسهم الراجل الف دينار[١٠٣] . ويعتقد سعد زغلول ان هذه الرواية مبالـغ فيها اذ لو صحت لوجب ان تكون قيمة الغنائم في هذه الحملة حوالي اربعين مليون دينار على فرض ان نسبة الفرسان الى الرجالة في جيش ابن ابي سـرح لم تزد على الربع او اكثر من ذلك بقليل ، وهذه ارقام مبالغ فيها من غير شك فما كان بالامكان الحصول عليها من مدينة واحدة او في اثناء حملة واحـدة ، فالمعروف ان جزية مصر جميعا ــ عدا الاسكندرية ــ لم تزد اول الامر علـى اثني عشر مليون دينار[١٠٤].

وعلى وفق رواية ابن الاثير فان ضحايا الجيش العربي لم تتعد الثلاثـة شهداء من بينهم الشاعر ابو ذؤيب الهذلي[١٠٥] الا ان ثمة دلائل تشير الـى عدد اكبر من هذا العدد[١٠٦] وقد يكون في روايـة ابن الاثير تحريف فكتـب ثلاثة بدلا من ثلاثمائة والرقم الاخير يبدو معقولا على اية حال . اما النويري فيجمل ذلك بقوله : (ولم يفقد من المسلمين إلا اناس قلائل)[١٠٧].

وقد اثنى الرواة على اصحاب المقامات المشهورة في المعارك وميزوهـم من بين اقرانهم المقاتلين فعدوا منهم : عبدالله بن الزبير قاتل جرجير ومبعـوث

(١٠١) ابن عذاري ، ج١ ص ١٢ .
(١٠٢) المالكي ، ج١ ص ٦١ ، الدباغ ، ج١ ص ٣٥ و١١١ .
(١٠٣) هذا باجماع المصادر التاريخية . وقال ابن الشـماع ص ٤٢ (وكـان سهم الفارس الفا دينار وسهم الراجل الف دينار) .
(١٠٤) تاريخ المغرب العربي ، ج١ ص ١٦٠ .
(١٠٥) الكامل ، ج٣ ص ٩١ . وينظر : ابو العرب ، ص ٦٨ .
(١٠٦) المالكي ، ج١ ص ٢٦ ، الدباغ ، ج١ ص ٤٠ وينظر : النويري ، ج٢٤ ص ١٣ و١٤ .
(١٠٧) نهاية الارب ، ج٢٤ ص ١٨ .

ابن ابي سرح الى المدينة المنورة بالبشارة والنصر[١٠٨] ، والمقداد بن عمرو بن ثعلبة البهراني وحمزة بن عمرو الاسلمي ، وربيعة بن عباد الدؤلي ، وعاصم بن عمر بن الخطاب[١٠٩].

وبعد هذه الحملة التي دامت مدة قاربت خمسة عشر شهرا[١١٠] ، قرر ابن ابي سرح العودة الى مصر وكتب الى خليفته فيها عقبة بن عامر الجهني بانفاذ المراكب في البحر ، فأخذ خليفته فيما امر به ، ووافته المراكب عند ساحل طرابلس فحملت الغنائم واثقال الجيش ، وواصل ابن ابي سرح وقواته على الطريق البري الى مصر[١١١].

وقد يؤخذ على ابن ابي سرح مغادرته ولاية افريقية من دون ان يتخذ فيها قاعدة متقدمة للقوات العربية ، او يترك حاميات عسكرية في المناطق والمدن المحررة ، او في تلك التي دخلت في امانه ، ومع كل ذلك فقد كانت معركة سبيطلة اول معركة كبيرة انتصف فيها العرب المسلمون من الغزاة البيزنطيين على ارض المغرب العربي ، تجلت فيها قدراتهم العالية على الصبر والتحمل بما يفوق الوصف ، وعبقريتهم العسكرية التي تجاوزت كل الظروف الصعبة وسخرت معطياتها وبكفاءة عالية لصالحها لتنتزع في النهاية نصرا حاسما ما كان تحقيقه ميسرا ، ولا بالامر الهين لولا عبقرية القيادة العسكرية وحكمتها في التعامل مع تلك المعطيات .

---

(١٠٨) المالكي ، ج١ ص ٢٠ و٢١ و٢٤ ، الدباغ ، ج١ ص ٣٦ . ابن الاثير ، ج٣ ص ٩١ . ابن عذاري ، ج١ ص ١٢ . النويري ، ج٢٤ ص ١٥ و١٦ .

(١٠٩) ينظر : المالكي ، ج١ ص ٧٣ و ٧٥ و ٧٩ و ١٤١ على التوالي .

(١١٠) ابن الاثير ، ج٣ ص ٩١ . النويري ، ج٢٤ ص ١٨ وقال المالكي ج١ ص٢٧ والدباغ ، ج١ ص ٤٢ (سنة وشهرين) وقال ابن الشماع ص ٤٣ أقام بها ستة اشهر) .

(١١١) المالكي ، ج١ ص ٢٧ ، الدباغ ، ج١ ص ٤٢ .

وهي من المعارك التي اذلت القوات البيزنطية وذهب معها عزهم من البلاد[١١٢] ، وخلفت في صفوفهم هزالا ظل اثره فاعلا الى ان تم طردهم من قرطاجنة سنة ٧٩هـ/٦٩٨م .

ومن ثم فهي معركة حققت جميع اهدافها العسكرية بالقضاء على اكبر تجمع للقوات البيزنطية في المنطقة ، والامنية بتأمين حدود مصر الغربية وولاية مصر نفسها من اخطار القوات البيزنطية ، وتقلت حروب التحرير العربية الى آفاق جديدة اخرى بعد ان دخل الاسلام عدد من زعماء قبائل المغرب ومنهم مثلا : وزمار بن صقلاب امير مغراوه وسائر زناته ، والذي اسلم على يد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فأمره على قومه للجهاد في سبيل نشر الاسلام وتحرير بلاد المغرب كما يؤكد ابن خلدون[١١٣] .

ولا يمكن ان تتصور بعد تحقيق هذه الاهداف المخطط لها مركزيا والمتفق عليها ان يتجاوز ابن ابي سرح وقواته اوامر دار الخلافة فيقصد مدينة قرطاجنة ، او غيرها من اماكن المغرب العربي في مغامرة عسكرية قد لا تحمد عقباها كما يريد ويتمنى بعض من كتب في تاريخ المغرب العربي ، والذين عدوا الحملة مجرد غارة من الغارات طال امدها زمنا ولم يكن هدفها غير الغنائم وجمع الاموال[١١٤] .

إن واقعة سبيطلة في مجمل اهدافها ونتائجها مثلت نموذجا حقيقيا لانتصار القدرة المؤمنة على القوة الغاشمة ، ومنحت العرب مزية التفوق المعنوي على البيزنطيين في المعارك اللاحقة كلها .

---

(١١٢) المالكي ، ج١ ص ٢١ ، الدباغ ، ص ٤٢ . ابن عذاري ، ج١ ص ١٢ .

(١١٣) تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ص ١٠٧ .

(١١٤) ينظر على سبيل المثال : مؤنس ، ص ١٠٦ و١٠٧ . جوليان ، ج٢ ص ١٧ .

الشهيد العراقي الرئيس جمال جميل ودوره في الحركة الوطنية وقيام ثورة ١٩٤٨ في اليمن

الدكتور ياسين طه ظاهر العسكري
كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد

الملخص :

ولد جمال جميل في مدينة الموصل ١٩١٢/٣/١٤ ، وأنهى دراسته الاعدادية فيها ، ودخل المدرسةالعسكرية الملكية في أيلول ١٩٢٨ ، وشارك في الاحداث السياسية بالعراق فساهم في حركة بكر صدقي ١٩٣٦ ، وفي اغتيال جعفر العسكري وجاء الرئيس (النقيب) جمال الى اليمن ضمن البعثة العسكرية العراقية عام ١٩٤٠ معلما للمدفعية ، ولكنه تحول الى (قائد ثائر) له دوره في الحركة الوطنية في اليمن ، وقام بتنظيم حركة الضباط الاحرار وهم الذين تخرجوا في المعاهد العلمية والعسكرية في العراق ، ونجح مع الحركة الوطنية في قيام أول ثورة تحررية عام ١٩٤٨ في اليمن ضد حكم الامام ، وبعد اخفاق الثورة تم اعدامه بصورة مأساوية ، واعتبرته ثورة (٢٦ سبتمبر ١٩٦٢) بقيادة الرئيس عبدالله السلال (أول رئيس للجمهورية في اليمن) بطلا وطنيا وشهيدا من أجل اليمن وتحرره ومستقبله .

تمهيـــد :

عندما تزور اليمن ، تشعر بالفخر والاعتزاز ، حين تسمع بشارع جمال ، ومركز جمال جميل ، وبأن اليمانيين يتحدثون عنه ، وفي مناهجهم الدراسية ، على انه بطل قومي ، دفع حياته ثمنا لاستقلال اليمن وتطوره •

لقد جاء الرئيس (النقيب) جمال جميل الى اليمن ، ضمن البعثة العسكرية العراقية عام ١٩٤٠ معلما للمدفعية ، ولكنه تحول الى (قائد ثائر) لـه دوره في الحركة الوطنية وفي التخطيط والمشاركة في قيام أول ثورة تحـررية فـي اليمـن عام ١٩٤٨ •

ولكن عندما سقطت الثورة ، بفعل عوامل داخلية وخارجية ، وبعد خمسة وعشرين يوما على قيامها ، تم تنفيذ حكم الاعدام به ، بعد أن وافقت حكومة نوري السعيد على تنفيذ هذا الحكم ، ولهذا أصبح الرئيس (النقيب) جمال بعد قيام ثورة (٢٦ سبتمبر ١٩٦٢) في اليمن ، والذين قاموا بهـا رفاقه وطلابه، بطلا وطنيا ومن الابطال التحررين في تاريخ اليمن الحديث ، ويطلقـون عليه لقب (الرئيس الشهيد) و (المجاهد الاكبر) ويحتفظون بذكراه في أكثـر من مكان في صنعاء العاصمة ، فضلا عن اعتزاز حكومة اليمن بأهله الذين يعيشون في أرض اليمـن مواطنين يمانيين ، مع احتفاظهـم بذكـرى والدهـم وأهلهم فـي العـراق •

لقد حاولنا استغلال وجودنا في اليمـن استاذا زائرا في جـامعة ذمـار ورئيسا لقسم التاريخ فيها ، في الكتابة عن هذه الشخصية ، من خلال عقد عدة لقاءات مع نجله الاكبر الاستاذ جميل جمال جميل وهو يعمل الان سفـيرا في ديوان وزارة الخارجية اليمانية، الذي يقوم بجمع المعلومـات للكتابـة عـن سيرة حياة والده الشهيد الرئيس (النقيب) جمال وكان لنا عدة لقاءات اخرى مع شقيقه المقيم في اليمن الاستاذخلدون ، فضلا عن الاصـدارات الكثـيرة الخاصة بالثورة، ومذكرات قادة ثورة ١٩٤٨ •

العلاقات العراقية اليمنية في ظل حكم الامام يحيى :

حصلت اليمن على استقلالها رسميا من الدولة العثمانية ، بموجب معاهدة (معان) عام ١٩١١ ، وبسط الامام يحيى نفوذه ، وقام بانشاء مراكز حكومية في أكثر المناطق اليمنية ، واتخذ من صنعاء عاصمة لحكومته[١] .. وظلت اليمن في ظل حكمه تعيش في شبه عزلة عن العالم الخارجي . وكان شعاره في التعامل مع الاجانب تعكس حقيقة مقولته المشهورة « يجب الاختيار بين الحرية في الفقر ، والتبعية في الرفاهية ، أما أنا فقد اخترت الاستقلال»[٢] .

ولم يستثن من هذا التصور حتى العرب ، فكان يعتبرهم (جواسيسا للدول الاستعمارية) ولذلك لم يسمح لهم بالدخول الى المملكة الا بعد التأكد من نواياهم[٣] .

وكانت أول دولة أجنبية استطاعت اختراق هذا الحاجز ، واقامة العلاقات هي ايطاليا ، التي عقدت معه معاهدة للتبادل التجاري والاقتصادي والعسكري وقدمت له المساعدات ، مما دفعته هذه المعاهدة الى الدخول في صراع مع بريطانيا التي سلخت عن اليمن (عدن) واحتلالها (للحديدة) وحاولت بريطانيا الضغط عليه للاعتراف بالوضع القائم في الحدود والمحميات[٤] .

لقد بدأت العلاقات الايطالية اليمانية في ٢٦/١٠/١٩٢٤ ، وهو التاريخ الذي وصل فيه الدكتور (ديبوزي) وهو أول ايطالي يصل الى اليمن عن

---

(١) عبدالله بن أحمد الثور / ثورة اليمن ١٩٤٨-١٩٦٨ / دراسات يمنية ١٩٦٨ ص ١٠ .

(٢) محمد سعيد العطار / التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن / منشورات المدينة ، بيروت ١٩٨٦ ص ٨ .

(٣) سيد مصطفى سالم / تكوين اليمن الحديث / مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٤ ص ٤٤ .

(٤) جون بولدري / الادارة العسكرية البريطانية في الحديدة ، ديسمبر ١٩١٨ - يناير ١٩٢١ تعريب بلقيس الحضراني ، مجلة اليمن الجديد ، العدد الرابع - اكتوبر - نوفمبر ١٩٨١ ص ٦٧.

طريق ميناء (مصوع) الى (اليمن) وطرح على الامام يحيى استعداد ايطاليا لتزويده بالسلاح والمعدات والاطباء والمهندسين ، ولكنه لم يوافق الا على الاسلحة وطبيب واحد ومهندس واحد ، كما وصل بعد ذلك والي أسمرة الايطالي (فاسبريني) عام ١٩٢٧ ، ليعقد أول معاهدة سميت بالاتفاقية (اليمنية الايطالية)[٥] .

وقام بارسال بعثة عسكرية الى ايطالية لدراسة (الطيران الحربي) وكان أفراد هذه البعثة هم (عبدالواسع العلفي ، عبدالله كامل القلبيبي ، أحمد محمود مداعس ، عبدالملك العلفي ، عبدالرحمن الطغري ، وأحمد محمد الكبسي وأحمد السراجي) حيث توفي الاثنان الاخران بعد سقوط طائرتهما في الطلعةالاستعراضية التي قاموا بها أمام الامام ، مما دفعه الى اغلاق باب الطيران ، وتوزيع أفراد هذه البعثة على وحدات الجيش[٦] . وهذه الحادثة هي التي أدت بأن يتوجه الامام في علاقاته الخارجية الى العراق ، وهي أول دولة عربية يعقد معها اتفاقية وذلك في ١١ آذار عام ١٩٣١ ولكن ظلت هذه الاتفاقية حبرا على ورق الى أن جاءت هزيمته أمام السعودية عام ١٩٣٤ ، واجباره على توقيع اتفاقية الطائف في هذا العام ، فسعى الى احياء هذه الاتفاقية ، وقام بارسال بعثتين عسكريتين واعتبر الامام يحيى (ان العراق هو المكان المناسب الذي يمكنه أن يرسل المتدربين اليمنيين)[٧] .

---

(٥) أحمد بن محمد بن عبدالله الوزير / حياة علي بن عبدالله الوزير ـ كما سمعت وقرات / ط١ منشورات العصر الحديث ١٩٨٧ ص٢١١ .

(٦) ناجي علي الاشول / الجيش والحركة الوطنية في اليمن ١٩١٩–١٩٦٩ / دراسة تاريخية عسكرية سياسية ، صنعاء ١٩٨٥ ص ١٠٨ .

(٧) دار الكتب والوثائق (د.ك.و) وزارة الاعلام ، العراق .
ملفات البلاط الملكي / ٣١١/٧٧١ .
كتاب المفوضية العراقية في جدة المرقم ٦٧ والمؤرخ ١٩٣٨/١٢/١٨ الموجه الى وزارة الخارجية بشأن احداث (شبوه) و ٤٢ ص ٨٢ ، ٨٣ واحمد بن عبدالله الوزير / مصدر سابق ص ٢١٢ .

وكان السبب الاساسي في هذا التغيير يعود الى أن الامام هو من العائلة الهاشمية فضلا عن العداء بين الحكم في العراق وآل السعود كما جاءت في خضم التنافس البريطاني الايطالي، ولهذا ظهرت اشاعات كثيرة حول الوفد العراقي الذي تقرر أن يقوم بزيارة صنعاء ، بأنه مدفوع من بريطانيا ، ولهذا تحولت جهة الوفد الذي كان برئاسة طه الهاشمي من التهيئة لمشروع حلف عربي الى عقد معاهدة صداقة بين العراق واليمن ، تضمنت الاعتراف المتبادل بين حكومة البلدين ، وسيادة السلم والصداقة[٨] .

وقد بدأت هذه المعاهدة أول مرة بين الامام ودولة عربية هي العراق، بارسال أطباء لمعالجة الامام ، وبعثات دراسية يمانية الى العراق مدنية وعسكرية بين عامي ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦[٩] .

وضمت البعثة الاولى التي كانت برئاسة محيي الدين العنسي(عبدالله حسين السلال ، محمد عبدالخالق محمد ، محمد صالح العلفي ، محمد عامر ، أحمد الانسي ، أحمد اسحق ، حسن العمري ، احمد طاهر ، محمد الريدي) أما الثانية التي سافرت الى العراق بعدعام على سفر الاولى عام ١٩٣٦ ، فكانت برئاسة (زيد بن علي عنان) والتحق بعضها بالدراسة في الكلية العسكرية وهم (حمود الجائفي ، أحمد يحيى الثلايا ، سلام الرازحي ، محمد عبدالولي نعمان ، أحمد حسين المروني ، علي محمد رجا ، أحمد الحورش) ثم التحق بهم أولاد (حسين الحبشي)[١٠].

---

(٨) د.ك.و / البلاط الملكي ٣١١/٨٩٩ ، نص المعاهدة و ١٦ ، ص ٢٩ .

(٩) جمعة عليوي الخفاجي / العلاقات العراقية اليمانية ١٩٣٢-١٩٦٢ / رسالة ماجستير غير منشورة ــ كلية التربية ــ ابن رشد / جامعة بغداد ١٩٨٩ ص ٧٤ ، ٧٥ .

(١٠) عبدالعزيز المقالح ، أحمد الحورش الشهيد المربي / سلسلة أعلام الحرية في اليمن / مركز الدراسات والبحوث اليمني ١٩٨٤ ص ١٨-١٩ وسيد مصطفى سالم وعلي أحمد ابو الرجال / مجلة الحركة اليمانية ١٩٣٨ ــ ١٩٤١ وحركة الاصلاح في اليمن / منشورات مركز الدراسات والبحوث، جدة ١٩٧٨ ــ ص ١٧٩ .

ويروي زيد بن علي عنان (رئيس البعثة الثانية) في مذكراته تفاصيل هذه الرحلة ، وكيف تم ارسال هاتين البعثتين ، ويقول في مذكراته بأنه لا علاقة للامام يحيى بالبعثتين ، انما تمت من خلال اتصال الشهيد (اللواء محمد شائع سري) بأحد أصدقائه وهو (داود الوتري) الذي كان يشغل موقع نائب رئيس مجلس الاعيان العراقي ، والذي بعث له طلب من (حسين الحبشي) يطلب فيه أن يساعده في الحصول على منحة دراسية في بغداد لاربعة من أولاده، ولم يتردد (الوتري) في انتزاع موافقة حكومة العراق على قبول عشرة طلاب المدراسة في بغداد وعلى نفقتها وقام السيد الحبشي بالاتصال بالامام يحيى واقناعه بأن رفضه هذه البعثة سيعرض العلاقات بين البلدين الشقيقين للتدهور[11] .

لقد تأثر أفراد هاتين البعثتين بملامح الحضارة العربية ، ونمو الحركة الوطنية القومية في العراق ، مما جعل أفراد هاتين البعثتين يحملون كل مظاهر التغيير والتصميم على مقاومة حكم الامام المطلق الاستبدادي ، وساهمت الصحافة الوطنية العراقية بدورها في التأثير على هؤلاء الشباب القادمين من بلد لاتوجد فيه صحافة غير جريدة الايمان الشهرية التي تهتم بأخبار الامام[12] والى جانب مقرراتهم الدراسية كان هؤلاء الطلبة يقومون (بقراءة كتب الرجال المصلحين ودعاة الحرية كطبائع الاستبداد للكواكبي ، والعقد الاجتماعي والمنار لرشيد رضا وغيرها ، وحملوها الى صنعاء[13] . فضلا عن

---

(١١) زيد بن علي عنان / مذكراتي / المكتبة السلفية ـ القاهرة / السنة ١٤٠٣هـ / ص٣٢ وعبدالعزيز المقالح / أحمد الحورش مصدر سابق ص ١٩ .

(١٢) محمد شوعي حسن الشرفي / ثورة ١٧ شباط ١٩٤٨ في اليمن ـ دراسة تاريخية / رسالة ماجستير غير منشورة / كلية التربية ـ ابن رشد ـ جامعة بغداد ١٩٩٦ ص ٥٩ .

(١٣) مقابلة مع الاستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح في مكتبه / مركز الدراسات والبحوث / صنعاء ٩ شباط / ٢٠٠١ .
كان الاستاذ المقاع رئيساً لجامعة صنعاء ، وأصبح الان مستشاراً للرئيس علي عبدالله صالح .

اتصالهم ببعض القوميين العراقيين كفهمي سعيد وصلاح الدين الصباغ قادة ثورة ١٩٤١ في العراق(١٤) .

وقد لمس الامام يحيى نفسه هذه الحماسة التي جاد بها أفراد هاتين البعثتين ورغبتهما في التغيير ، ونشر الافكار بين العامة والبسطاء من الناس فما كان منه الا أن اودعهم السجن أو توزيع بعضهم في وظائف مدنية(١٥) .

وقام بعض من أفراد هاتين البعثتين في الكتابة بمجلة (الحكمة اليمانية) التي كان يرأس تحريرها أحمد عبدالوهاب الوريث ، والتي تقود الدعوة الى الاصلاح ومنهم (محيي الدين الكبيسي) : أحمد الحورش ، أحمد المروني، محمود الجائغي)(١٦) .

البعثة العسكرية العراقية الى اليمن :

وجد الامام يحيى بسبب هذه المؤشرات ان ارسال هذه البعثات الى الخارج ، تمثل خطرا يهدد نظامه ، فقرر بعد عودة البعثة الثانية من بغداد نهاية عام ١٩٣٩ ، منع ابتعاث العسكريين الى الخارج وكان الامام قد ابدى رغبته عند زيارة الوفد العراقي برئاسة طه الهاشمي على استقدام بعثة عسكرية عراقية لليمن لتدريب جيش الامام اعتقادا منه أنها تكون تحت مراقبته(١٧) .

---

(١٤) جمعة الخفاجي / العلاقات العراقية اليمانية / مصدر سابق ص ٧٧ .

(١٥) د.ك.و / البلاط الملكي / الملف ٣١١/٧٠٩ كتاب سري من رئيس البعثة العراقية في اليمن الى وزارة الخارجية العراقية رقم ٤ والمؤرخ ١٩٤٢/١/٢٠ ، وعبدالعزيز المقالح / أحمد الحورش ـ مصدر سابق ، ص ٥١ .

(١٦) سيد مصطفى سالم / مجلة الحكمة اليمانية / مصدر سابق ص ١٧٩.

(١٧) د.ك.و / البلاط الملكي ، الملف ٣١١/٧٧١ تقرير المفوضية العراقية في صنعاء المرقم ١٦٨ والمؤرخ في ١٩٣٩/٣/٨ والموجه الى وزارة الخارجية ومنها رئاسة الديوان الملكي ووزارة الدفاع و ١١ ص ٣٥ .

وقام ممثل العراق في اليمن ثابت عبدالنور بدور متميز في استقدام البعثة العسكرية العراقية ، وذلك من خلال مخاطباته عبر وزارة الخارجية التي عرضت هذا الطلب بدورها على مجلس الوزراء ، الذي قام بمخاطبة وزارة الدفاع في (٢ تموز ١٩٣٩) من أجل ترشيح الضباط المطلوبين[١٨] .

وبعد ذلك قرر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٣٩/٨/١٤ ترشيح الضباط والمراتب الآتية :

وتتألف هذه البعثة من[١٩] :

١ ـ العقيد الركن اسماعيل صفوت سعيد / رئيسا للبعثة
٢ ـ الرئيس (النقيب) جمال جميل / مدفعية
٣ ـ الرئيس (النقيب) محمد حسن / مشاة
٤ ـ ملازم أول عبدالقادر الناظمي / مخابرة
٥ ـ ملازم ثاني سيف‌الدين سعيد / رشاش
٦ ـ رئيس عرفاء السرية قحطان أحمد / مشاة
٧ ـ العريف حسن عسكر / مشاة
٨ ـ العريف كاظم عبد ربه / مخابرة
٩ ـ العريف حسين حسن / مدفعية
١٠ـ العريف عبد عبيد / مدفعية
١١ـ العريف صبري بدر / مشاة
١٢ـ العريف سعدون حمود / رشاش فكرس

---

(١٨) ثابت عبدالنور / ولد في الموصل عام ١٨٩٠ وشارك في الثورة العربية بقيادة الملك فيصل الاول وتقلد وظائف عديدة آخرها مستشار المفوضية العراقية في جدة . ، محمد شوعي / مصدر سابق / ص ٢٥ .

(١٩) د.ك.و / البلاط الملكي ، /٣١١/١٥٦٩ (البعثات العسكرية) كتاب وزارة الدفاع رقم /ع/٣٧٩/٤/٦٠٣١ (٣ محرم ١٣٥٩هـ) الموجه الى سكرتارية مجلس الوزراء و ٢٠٢ ص ٢٠٣ .

١٣ــ العريف محمد فرج / مخابرة
١٤ــ العريف حسون حسين / مقر البعثة
١٥ــ نائب عريف كاظم حمودي / مشاة

وقدمت البعثة العسكرية (خمسة تقارير) للامام يحيى وهي :

١ الاول : تقرير عن أوضاع الجيش المظفر واقتراح بانشاء جيش الدفاع.

٢ الثاني : تقرير عن أوضاع الدراسة الحربية واقتراح مشروع تنظيمها ورفع مستوى التدريب فيها.

٣ الثالث : تقرير عن أوضاع سرية المخابرة (الاشارة) .

٤ الرابع : تقرير عن نشاط التدريب في المدفعية بقلم الرئيس (النقيب) جمال جميل .

٥ الخامس : تقرير عن نتائج دورة المعلمين الاولى .

وقد حملت معها أجهزة تلفونية ولاسلكية مع آلاف البدلات العسكرية، هدية من حكومة العراق الى اليمن[٢٠] .

واستطاعت البعثة التغلب على معظم الصعوبات ، وتشكيل نواة الجيش النظامي سمي (الفوج الاول النموذجي) وبرز دورها في مسألة التوعية السياسية مما دفع الامام يحيى لانهاء وجودها ، وقام بتوزيع أفراد هذا الفوج على مناطق اليمن لجباية الزكاة ، واخضاع المزارعين لأوامر الامام[٢١].
ولهذا السبب جعلت الامام يتحول من العراق الى مصر حيث فضل التعليم الديني في جامع الازهر[٢٢] .

---

(٢٠) سلطان ناجي / جيش الامام يحيى / مجلة اليمن الجديد / العدد الثاني/ السنة الاولى / ١٩٧٩ ص ٢٨ .

(٢١) أحمد الثور / مصدر سابق / ص٥٠ .

(٢٢) أدجار أو بالانس / اليمن الثورة والحرب / ترجمة وتعليق عبدالخالق محمد لاشين / ط١ دار الرقي ــ بيروت ١٩٩٠ ص ٦٣.

كما قام بوضع قيود ثقيلة على أساليب الاستفادة من مقدرات خريجي البعثتين اليمنيتين في العراق ومهاراتهم، بعد ان تعرف على تحركاتهم وأفكارهم وما حملوه معهم من كتابات تندد بالاستعباد والتخلف، وتدعوا الى الاصلاح[٢٣].

ومن أعمال هذه البعثة افتتاح الكلية العسكرية (الحربية) وكان يشرف عليها الضباط العراقيون، ثم أشرف عليها خليط من الضباط العرب واليمنيين[٢٤].

ويحتفظ بعض العسكريين اليمنيين الذين عاشوا وتعرفوا على البعثة العراقية، ببعض الذكريات عنها، ففي لقائنا مع العقيد المتقاعد (صالح يحيى الخلقي) الذي يتجاوز عمره الان الثمانين، قال «ان البعثة واجهت الكثير من الصعوبات وكانت مقترحاتها وتطويرها تصطدم بالرفض من قبل الامام؛ مثال في ذلك ان البعثة اجتمعت على صورة (الجندي اليماني) الذي يعاني من (شحوب ومظهر سيء) فطالبت بتحسين أوضاعه المالية وطالبت بارتداء البدلات العسكرية، ولكن الامام رفض توفير ذلك، مما اضطرت البعثة الى (عمل حزام) يرتديه الضباط تمييزا لهم عن الجنود، كما طالبت بايجاد المقرات المناسبة للتدريب، فشعر الامام بأن البعثة تريد تحميله أعباء مادية، لم يكن لديه استعداد للتجارب معها، فعمل في الاسراع على انهاء وجودها[٢٥] وقامت البعثة بتنظيم استعراض للفوج النموذجي الذي يسمى (فوج النمونة) الذي قامت البعثة بتشكيله واستعراض أمام الامام يحيى وهو ينشد:

نحن لا نخشى أزيز الطائرات ... لا ولا نرهب قصف المدفع

---

(٢٣) ذزنجي سمويل / الحركة الوطنية واثرها على حركة السادس والعشرين سبتمبر ١٩٦٢ / مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية / العدد ٢٣ السنة السادسة ـ يوليو ١٩٨٠ ص ١٢٣.

(٢٤) أدجار / مصدر سابق ص ٧٥.

(٢٥) مقابلة مع العقيد المتقاعد (صالح يحيى علي الخلقي) في داره بمحافظة ذمار في اليمن بتاريخ ٢٧/٥/٢٠٠١.

وكان للرئيس (النقيب) جمال دوره في بناء هذا الفوج الذي توفي معظم أفراده (بحمى تعز) ١٩٤١ و ١٩٤٣[٢٦] .

كما كانت هناك روايات عديدةحول تخلف الرئيس (النقيب) جمال منها ما قيل ان العقيد اسماعيل صفوت رئيس البعثة وبواسطة (ولي العهد أحمد) الذي كانت تربطه به علاقة صداقة ، قدم طلبا للامام يحيى بالسماح للرئيس (النقيب) جمال بالبقاء ، فسمح له بالبقاء وعينه معلما للجيش ، وقيل انه لم يجرؤ في العودة الى العراق لانه كان أحد الضباط المساهمين في قتل جعفر العسكري[٢٧] .

ويقول الاستاذ جميل (الابن الاكبر) للرئيس (النقيب) جمال « أن والده لم يطلب هو أن يتأخر أو يبقى في اليمن ولكن بسبب موقف الحكومة العراقية التي أحالته على التقاعد وهو لايزال في اليمن»[٢٨] .

وقد حاول بعضهم تخريب العمل الذي قامت به البعثة العراقية ، ومن هؤلاء كما يقول الاستاذ جميل جمال ، (علي بن ابراهيم) أمير الجيش وتحسين الفقير ضابط سوري الذي تعاقد للعمل في الجيش اليماني بعد سفر البعثة العراقية[٢٩] .

وذكر محيي الدين العنسي على صفحات مجلة الرابطة العربية ، بعد هربه الاول الى العراق «ان معلم الجيش اليماني الفريق تحسين باشا الفقير قد تجاهل جميع اعضاء البعثة ، ورفع التقارير الى جلالة الامام بأن التعاليم العسكرية ، تعاليم استعمارية ، وان العمل بها يؤدي الى تعطيل سلاح الجيش ، مما جعل الامام يصدر امرا بايقاف ضباط البعثة »[٣٠] .

---

(٢٦) أحمد بن محمد الشامي / رياح التغيير في اليمن ط١ ، بيروت ١٩٨٤ ص ٢٧٦ . (٢٧) المصدر نفسه ص٢٧٦ .

(٢٨) مقابلة مع الاستاذ جميل جمال في صنعاء بتاريخ ٢٠٠١/٦/١٤ مصدرسابق.

(٢٩) مقابلة مع الاستاذ جميل جمال في صنعاء / مصدر سابق .

(٣٠) لقد هرب محي الدين العنسي الى العراق ١٩٣٩ وعاد مع البعثة العسكرية العراقية عام ١٩٤٠ ، جمعة عليوي الخفاجي / مصدر سابق ص٨١، ٨٢.

ولقد تصدى الشهيد الرئيس (النقيب) جمال جميل لكل هؤلاء ، لاسيما بعد أن اصبحت له علاقات واسعة بقادة الجيش ، وأسند له الامام الى جانب المدفعية الاشراف على (الجيش المظفر والمدرسة الحربية)[٣١] .

ولم ينقطع الشهيد الرئيس جمال جميل عن مخاطبة الحكومة العراقية ومراسلتها بشأن الوضع في اليمن ؛ فأشار في تقريره الى وزير خارجية العراق بتاريخ ١٢ تموز ١٩٤٧ بضرورة قيام الحكومة بارسال وفد الى صنعاء لتقديم النصح للامام لتشكيل حكومة مسؤوله و تحسين الوضع السائد في اليمن، والى مطالبته بتنقيح المعاهدة اليمنية الامريكية التي اعتبرها كما قال في تقريره (مؤامرة يهودية مباشرة ضد العرب) وأنهى تقريره بالالحاح على وزير الخارجية العراقي الذي كان يزور جدة بزيارة اليمن[٣٢] .

من هو جمال جميل ؟

ولد جمال جميل في مدينة الموصل (١٤/٣/١٩١٢) وأنهى دراسته الثانوية في المدرسة (الحضرية) في الموصل ، ودخل المدرسة العسكرية الملكية في أيلول ١٩٢٨، وتخرج فيها برتبة (ملازم ثانٍ) في ٢٣ آب ١٩٣١ ، ومعظم أشقائه من العسكريين ، ومنهم الفريق الركن خليل الذي كان رئيسا لاركان الجيش عام ١٩٥٤ ، وآمر موقع بغداد حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وآخر هو اللواء الركن المتقاعد فوزي جميل ، أما والده فكان (مدير ناحية) ينتقل بين نواحي الموصل[٣٣] .

وكان الشهيد جمال من المتفوقين في حقل اختصاصه العسكري ، فضلا عن تفوقه بالمرتبة الاولى عند تخرجه في الكلية العسكرية ، حيث سلمه الملك

---

(٣١) مقابلة مع الاستاذ جميل جمال / مصدر سابق .

(٣٢) محمد الشعبي / وثائق ودراسات / جـ١ ـ ط١ / دمشق ١٩٨٣ص ٣٥ انظر وثيقة رقم (١) .

(٣٣) مقابلة مع الاستاذ جميل جمال في داره بمدينة صنعاء يوم ٢٠٠١/٦/١٤ (المقابلة الثانية) .

فيصل الاول شخصيا جائزة التفوق لحصوله على المرتبة الاولى بعد تخرجه[٣٤] .

وقد أحالته حكومة نوري السعيد على التقاعد وهو لايزال مكلفا في اليمن بتدريب جيش الامام يحيى ، خلاصا منه ، ويقول ولده الاستاذ جميل أن التهمة كانت على أساس «عدم قدرته في حقل اختصاصه وهو الذي حصل على عدة أوسمة وتقديرات من مسؤوليه ، ويضيف بأنني أحتفظ بالكثير من الوثائق حول ذلك »[٣٥] . ولان نوري السعيد كان يحمل ضده كل مظاهر (العداء والضغينة) بسبب مشاركته في قتل جعفر العسكري الذي تربطه بنوري السعيد علاقة القرابة والمصاهرة وجاء في قرار الاحالة على أنه بسبب (عدم كفاءته) في حين كما يقول الاستاذ جميل ، بأن « هناك تقارير عديدة في وزارة الدفاع في العراق توضح كون خدمته جيدة جدا ، وكان الاول في دفعته فضلا عن اختيار الحكومة لأكفأ ضباطها للتدريب في اليمن [٣٦] .

والدليل الاخر على كفاءته ان الامام يحيى نفسه طلب تمديد خدمته (سنة واحدة) أخرى وحده للاستفادة من خدماته ، بعد انتهاء فترة البعثة ولكن الحكومة العراقية رفضت ذلك وقامت باحالته على التقاعد ، وصرف مستحقات خدمته التقاعدية التي بلغت بحدود (٤٠٠) دينار وتسلمها والده[٣٧] .

ولم يطلب هو ان يتأخر أو يبقى في اليمن ولكن بسبب احالته على التقاعد وهو في اليمن ، فَضَّل البقاء والخدمة في جيش الامام واستبقى معه رئيس عرفاء (عامر عنيد) الذي عاد بعد مرور عام الى بغداد . وأصبح جمال استاذا في المدرسة الحربية كما انه تبرع باعطاء بعض شباب المدرستين (العلمية والثانوية) في صنعاء دروسا في اللغة الانكليزية والحساب والهندسة[٣٨] .

---

(٣٤) المصدر نفسه .
(٣٥) المصدر نفسه .
(٣٦) المصدر نفسه :
(٣٧) مقابلة مع الاستاذ جميل جمال / المصدر نفسه .
(٣٨) أحمد محمد الشامي /رياح التغيير في اليمن/ط ١ ــ بيروت ١٩٨٤ ص٢٧٦ .

فضلا عن ذلك كانت لجمال علاقات واسعة بقادة الجيش في العـراق، وله دوره فكانت علاقاته جيدة مع بكر صدقي ، وعين مرافقا لـه في (١٠ تشرين الثاني ١٩٣٦) ، وظل مرافقا له حتى ليلة اغتياله مسـاء الاربعـاء (١١ آب ١٩٣٧) .

كما شارك في قتل جعفر العسكري يوم ٢٩ تشريـن الثاني ١٩٣٦ الـى جانب كل من لازار برودس وجميل مفتاح ومحمد جواد حسين ، كما شـارك في اخماد تمرد الاثوريين خلال عام ١٩٣٣[٣٩] .

لقد تكونت للشهيدالرئيس جمال جميـل علاقات واسعة في المجتمـع اليماني ، وكان يحضر الجلسات التي تسمـى فياليمن باسـم (المناكـي) او (المداكي) نسبة الى الوسائد التي يتكأ عليهاالمرء في أثناء جلوسـه وكـان يحضر هذه الجلسات التي يحييها الأدباء والشعراء ، وبشكل دائم فيمتكىء السيد حسين عبدالقادر عامل مدينة صنعاء حتى قيام ثورة ١٩٤٨[٤٠] .

كان جمال جميل جريئا في تأكيد رأيه ومشورته ، ونقده للاوضاعفي اليمن، وذا مواقف شجاعة ، حيث يقف في حفل استقبال سيف الاسـلام عبدالله في شهر تموز ١٩٤٧ بعد عودته من أوربا ليقول : «أيها السادة أصحاب السمـو الملكي الامراء ان الحالة في اليمنأ صبحت لاتحتمل الصبر ، ولم يبـق مجالا للكذب والمغالطة والتضليل ، فلا أكون مبالغا اذا قلت انكم لا تملكون جيشا ولا سلاحا ، اتقوا الله أيها المسؤولون في جيشكم وشعبكم ان هذا الشعـب كريم مجيد ولكنه كالمرآة المغطاة بالصدأوالغبار فمن منكم الشجـاع الـذي سيمسح المرآة »[٤١] .

---

(٣٩) محمد شوعي / مصدر سابق / هامش ص ٦٣.

(٤٠) سيد مصطفى سالم / وعلي احمد ابو الرجال / مجلة الحكمة اليمانيـة / مصدر سابق ص ١٤٤ .

كما نجد موقفا شجاعا آخر عند معارضته بنود المعاهدة اليمانية الامريكية والتدخلات الاجنبية ، ويستثمر علاقاته مع الشخصيات اليمانية لرفض هذه المعاهدة(٤٢) .

وقد واجه الشهيد الرئيس جمال الكثير من (التهم والوشايات) المغرضة التي تستهدف ابعاده من اليمن وتخلفه مع (ضابط الصف) بطلب من الحكومة اليمانية ، وبأنه يمثل خطرا في بقائه باليمن ورفض الامام تلك المزاعم (٤٣) .

وقرر البقاء (تحديا) لكل هؤلاء لينضم الى جانب اخوانه في المعارضة مرشدا وللسلطة ناصحا ، وبعد ذلك قائدا للثورة ، وكان لطلابه في المدرسة الحربية ، ولأعضاء البعثتين دور في احداث ثورة ١٧شباط ١٩٤٨ وكان الشهيد الرئيس جمال يحمل هموم الشعب اليماني وتداعياته ، وان مجلة الحكمة اليمانية قد أشارت بدوره بقولها : « انها تسجل لمعلم المدفعية اليمانية الرئيس جمال جميل عضو البعثة العسكرية يدا بيضاء محمودة ، فمرحى مرحى لمدفعيتنا النشيطة ، وشكرا شكرا لمعلمها القدير المحترم »(٤٤) .

وقبيل قيام الثورة استطاع الشهيد الرئيس جمال اقناع الامام يحيى باعادة النظر في قراره بارسال البعثات الى العراق ، فوافق الامام على ترشيح سبعة عسكريين برتبة رئيس (نقيب) وخمسة برتبة (ملازم ثان) وعلى النحو الآتي:

١ ــ (محمد حسن طالب ، عبدالقادر أبو طالب) لدخولهما مدرسة الاركان.

---

(٤١) جريدة صوت اليمن/ العدد ٢٥ في ٣ تموز ١٩٤٧ ص ٣٠ .

(٤٢) د.ك.و /البلاط الملكي / ٤٨٢٩ / ٣١١ تقرير الرئيس جميل جمال برقم ١/١ في ١٩٤٦/٢٢ موجه الى وزارة الخارجية العراقية و ٧٦ص ٩٩،٩٨ .

(٤٣) الخفاجي / مصدر سابق ص ٥٣ ، ١٥٠ .

(٤٢) مجلة الحكمة اليمانية / العدد (٣)السنة الثالثة / المجلد الثالث محرم ١٣٦٠هـ ــ يناير ــ فبراير ١٩٤١ ص ٧٧ .

٢ ـ (عبدالله العيني ، محمد عبدالله الفقيه ، أحمد الحرموزي ، محمد الرغيني ، علي العريشي) للاطلاع على تشكيلات الجيش العراقي وقوانينه .

٣ ـ ترشيح (خمسة وعشرين) من أبناء صنعاء ومن البيوت المشهورة (العمري ،الشوكاني ، الاكوع ، الكبسي) للاطلاع على العمل في مختلف الوزارات .

الشهيد الرئيس جمال والحركة الوطنية في اليمن والتخطيط للثورة

كان الشهيد جمال جميل في نظر كل زعماء الحركة اليمانية (لطيف المعشر باسم الثغر) هكذا يصفه (أحمد بن محمد الشامي واحد من زعماء ثورة ١٩٤٨) وكان يتبادل الزيارات مع رجال الدولة والوجهاء والادباء ، وأصبح اسمه (الرئيس جمال) وعلما من الاعلام عند الجميع ،كأنه أحد زعماء اليمن(٤٥) .

أما علاقته بالحركة الوطنية اليمانية فيمكن ان تعود الى عام ١٩٤٦ ، على الرغم من ان بدء الاعداد للثورة كان منذ عام ١٩٤٤ ، حيث عقد المؤتمر الاول للمعارضة اليمانية في عدن وجرت أعماله بطريقة سرية ونتج عن ذلك تأسيس أول منظمة سرية للاحرار التي سميت (هيئة النضال) وعرفت بعد ذلك باسم (الجمعية اليمنية الكبرى)(٤٦) .

وتكونت حركة الاحرار من عنصرين أساسيين هما : أولهما أعضاء الجمعية اليمانية الكبرى التي تشكلت في عدن تحت زعامة الشيخ أحمد محمد نعمان ، محمد محمود الزبيري .

---

(٤٥) احمد بن محمد الشامي / رياح التغير / مصدر سابق ص ٢٧٦ .

(٤٦) محمد علي نعمان ، فاروق محمد لقمان / قصة الثورة اليمنية / عدن ـ بلا ص ١٠٤ .

والاخرى : الشباب اللذين تلقوا تعليمهم في المعاهد العراقية العلمية والعسكرية وهم اعضاء البعثتين الاولى والثانية ويحتفظ الشهيد جمال بعلاقات صداقة عريضة معهم والذين وقفوا الى جانبه حتى اعدامه ومنهم المشير عبدالله السلال والاستاذ أحمد المروني[٤٧] .

ويذكر الاستاذ جميل بعض الشخصيات التي أدت دورا في ترتيب الحركة الوطنية اليمانية وتنظيمها ومنهم (عبدالله الوزير ، العلامة حسين الكبسي، محيي الدين العنسي، أحمد المطاع، محمود الشامي، أحمد الحورش، زيد الموشكي) وغيرهم .

وكان دور بغداد وحركتها الفكرية والنضالية دورا كبيرا حيث يقول الدكتور عبدالعزيز المقالح[٤٨] :

« ان دار المعلمين العالية ارتبطت في أذهان أبناء الامة العربية وليس في أذهان ابناء العراق واختيار الدراسةفيه لتنوع مواد المعرفة ، ولمكتبتها الزاخرة، وللتعرف على عدد من أعلام الثقافة العربية أمثال أحمد حسن الزيات ، وزكي مبارك وعبدالوهاب عزام وغيرهم الذين كانوا محاضرين في دار المعلمين . ويصف الشهيد محمد محمود الزبيري دور بغداد في ثقافة حركة الاحرار ورؤيتهم بقوله : «لقد كانت التجربة الاولى هي تجربة الرعيل الاول من رفاقنا نبع فريق منهم من الارض اليمانية عن طريق المطالعات للكتب الحديثة ، ورفد آخرون عائدين من بغداد بعد أن أنهوا دراستهم العسكرية وكانت تجربتهم التبشير بأفكار عصرية بحتة ونقلها الى شعبهم »[٤٩] .

لقد بدأ التخطيط للقيام بالثورة ضد الامام ، الذي رفض كل النداءات القيام بالاصلاح منذ عام ١٩٤٦ وكان بعض (الاعلام) اليمانيين وفي مقدمتهم (محمد محمود الزبيري ، أحمد المطاع ، حسين الكبسي ، عبدالله الوزير ،

---

(٤٧) مقابلة مع الاستاذ جميل جمال في داره بصنعاء / مصدر سابق .
(٤٨) عبدالعزيز المقالح / أحمد الحورش ـ الشهيد المربي/ مصدر سابق ص٦٥.
(٤٩) ديوان محمد مجود الزبيري / المقدمة / ص٦٨ وعبدالعزيز المقالح / أحمد الحورش /مصدر سابق ص ٦٥ .

وغيرهم ، وهذه القيادة المدنيةالتي كانت تضمهم (الجمعية اليمانية الكبرى) كانت تبحث عن (زعامة) عسكريةلمساندتهما والا سوف يكون مصير عملها الخيبة فاختارت الرئيس الشهيد جمال لاعتبارات عديدة منها انه كان (محبوبا) بين الاوساط العسكرية جميعها ، فضلا عن مواقفه العسكرية ولانه قادر على اقناع الضباط في المشاركة ، ولانه كان ينتقد الواقع المرير الذي تعيشه اليمن في ظل حكم الامام . وقام علنا بذلك وامام (سيف الاسلام عبدالله بن يحيى) عندما عاد من زيارته لامريكا نهاية عام ١٩٤٧ وأقيم احتفال بمناسبة عودته فقال الرئيس جمال وألقا خطاباً في أثناء الحفل قال فيه[٥٠] :

« منذ سنتين وسموكم تزورون دولا كبيرة وصغيرة غنية وفقيرة ، فأسئلكم بالله هل رأيتم جيشا أسوأ حالا من جيشكم .. أنا أجيب عنكم ، كلا لقد قدمت عدة اقتراحات ولم أحظ بجواب وها أنا أقدم ملخصا لسموكم باسم هذا الجيش :

- زيادة المعاشات .
- وضع نظام تقاعدي يكفل شيخوخة منتسبي الجيش وعوائلهم ، فهذا الجيش وحده الذي سيقف بجانبكم ساعة المحنة وطرح ملاحظات عديدة في كلمة (يطول سردها) مما دفع الامام يحيى الى توجيه كتابا له يقول فيه ..

«الى الرئيس جمال (عافاه الله) لقد ساءنا جدا مابلغنا من خطبتك أمس في الجيش ، فانها لم تكن في صالح الامة ولا الحكومة ولا الجيش » .

هذه الحادثة وغيرها كما يقول الاستاذ جميل ربما حولت (الوالدالشهيد من معلم للجيش الى ثائر) فضلا الى كونه كان يوجه الانذارات والنصيحة للامام وولي العهد بضرورة الاصلاح .

---

(٥٠) من الاوراق الخاصة للرئيس الشهيد جمال جميل عند ولده الاستاذ جميل / صنعاء .

ولهذا حضر الرئيس الشهيد جمال اجتماعا ضم العلامة (حسين الكبسي الفضيل الورتلاني (مناضل جزائري) واتفقنا على فكرة (الميثاق الوطني) وبعد ذلك حضر عدة جلسات في بيت العلامــة (حسين الكبسي) وكانت تضم قـادة الثورة وهم (عبدالله بن علي الوزير ، الفضيل ، احمد الجرافي وأحمد الشامي) وكان الرئيس جمال يحثهم على (التأنـي) وانتظار وفاة الامام يحيى (لانـه طاعن في السن ومريض والخلاص من ابنه الامام أحمد الذي يصفونه (أحمد باجناه) وينظر اليه بانه (أقوى الشخصيات السياسية وكان يقول لهم بشكل واقعي« اذا كنتم ستتامرون فتامروا علــى التخلص من (أحمد) لان الابن سر بقاء ابيه في السلطة»[٥١] .

ولان الامام يحيى رجل طاعن في السن ومصاب بالفالج ولكن الفضيل الورتلاني كان يطالب وبحماسة للقيام بالثورة فقال الشهيد جمال بعد خلافـه مع الفضيل « ان هذا الجزائري يسوقنا واحلامه الى المقاصل والمشانق » ومع ذلك وافق على المشاركة في الثورة .

لقد تم توزيع الادوار (فالجانب المدني) دوره القيام بكسب رؤسـاء القبائل وهو السبب الذي عجل في سقوط الثورة لانهم لم يحسنوا ذلك ، في حين ان الشهيد جمال قام هو بتشكيل (حركة الضباط الاحرار) والاتصال بهم واصبح (المخطط) للثورة في حين ان مسؤولية (عبدالله الوزيـر) الذي أصبح إماما بعد مقتل الامام يحيى هو كسب القبائل وجعلها بجانب الثـورة وقـام الشهيد الرئيس جمال بتنظيم (الخلايا الثورية) داخل القوات المسلحـة وكان التنظيم العسكري يعقد اجتماعاته برئاسة جمال في دار عبدالله السلال الذي أصبح أول رئيس للجمهورية في اليمن عام ١٩٦٢[٥٢] .

---

(٥١) احمد الشامي / رياح التغير في اليمن / مصدر سابق ص ٢٧٧ .

(٥٢) عبدالله السلال وآخـرون / ثورة اليمن الدستوريـة / دار الحكمـة ـ صنعـاء ١٩٦٥ ص ٧٧ .

ولقد تم تحديد عناصر الاتصال بالقيادات العسكرية والمدنيـة وهـم (الحاج عزيز يعني) ممثل الجانب المدني و (مجاهد حسـن غالب) ممثـل الجانب العسكري[٥٣] .

وتم تحديد ساعة الصفر للثورة في الاجتماع السابع للتنظيم العسكـري الذي عقد في منزل الرئيس عبدالله السلال وباقتراح من جمال جميل الـذي كان يترأس هذا الاجتماع ، وذلك في (١٤ كانون الثاني ١٩٤٨) واختار هذا اليوم لانه يصادف فيه قيام الجيش بمناورة عسكرية خارج صنعـاء وحـدد الشهيد الرئيس جمال الاسمـاء الذيـن سيقومون باطلاق النار على الامـام وهم (علي ناصر القردعي ، ومحمد القردعي)[٥٤] .

ولكن تم تعديل الخطة بأخرى وضعها عبدالله الوزير وبمشاورة جمـال جميل وكانت الجمعية اليمانية الكبرى قد حاولت اغتيال الامام في منتصـف عـام ١٩٤٦ حيث اختارت رجلا ليشق طريقه داخـل قصر الامام وليقـوم باغتياله ، ونجح في دخول القصر ، ولكن تم القاء القبض عليه من (عبد مخلص) للامام[٥٥] ولكن تم اغتيال الامام مع رئيس وزرائه (عبدالله العمـري) عند عودته من مزرعته في منطقة (حزيز) وذلك في ١٧ شباط ١٩٤٨ بمدفع آلـي مركب فوق سيارة لوري[٥٦] .

وكان الامام (عبدالوزير) الذي ساهم في التخطيط لهذه العملية يراقب عملية الاغتيال من خلال منظار داخل مبنى داره العالي في صنعاء[٥٧] .

كان الشهيد جمال يقوم بالاشراف على (خزانة) الامـام وكـان يحـاول التصدي للجماهير الذين حاولوا اقتحام القصر ونهبه وقتل مَن داخـل القصر الاخرين (سيف الاسلام حسين وسيف الاسلام محسن) ، وقـد طلب (الوالد

---

(53) Macro, E. Yemen and the western world. London 1968. p.p. 78-79.

(٥٤) عبدالله السلال وآخرون / المصدر السابق ص ٨٣ .

(55) Macro. P. op. cit. p. 79.

(٥٦) ادجار / مصدر سابق ص ٨٥. (٥٧) ادجار / مصدر سابق ص ٨٥ .

(والكلام للاستاذ جميل) الخروج من القصر لسلامتهم فانسحبوا وصاح (الحسين) ارموه فقام (صالح الرمحي) بأمر الجند في القصر باطلاق النار عليهم فقتلوهم واستشهد الشهيد الرمحي عند قيام ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢[٥٨] ويقدر (كنز الامام) الملىء بالذهب بما يعادل (عشرة ملايين جنيه استرليني)[٥٩] .

وأصبح عبدالله بن أحمد الوزير (اماما) على اليمن ويقال ان الرئيس الشهيد جمال الذي أصبح (القائدالعسكري العام) للثورة ومدير وزارة الدفاع وعضو مجلس الثورة ، كان بفضل (الامام أحمد بن الامام يحيى) على عبدالله الوزير لانه كان في نظر الرئيس جمال أقوى (شخصيات المسرح السياسي في اليمن) وأثبت الاحداث (صحة رأيه) ويفسر بعضهم سر الانقسام والاختلاف بين جماعة الاحرار بسبب كون الثورة نقلت السلطة من حكم الامام الى حكم ملكي برئاسة عائلة جديدة[٦٠] .

وبسبب تحسبه من خطورة الموقف قام جمال جميل بتدريب المتطوعين لحمايه الثورة ، حيث تم فتح مراكز التطوع ، وكان السيد عبدالله بن أحمد الوزير في سنة ١٩٤٨ في الستين من عمره وكان صاحب أراض وثريا ، وأمير (محافظة تهامة) وعاصمته (الحديدة) ومثل الامام في اتفاقية الطائف ١٩٣٤ ، وابن عمه السيد علي الوزير وتم اقصاء الاثنين من منتصبيهما ليحل محلهما أبناء الامام[٦١] .

ويقول الاستاذ جميل ان الدكتور عبد العزيز المقالح قال لي «ان جمال يؤمن بفكرة الجمهورية واستدل على ذلك برسائل الوالد الى علماء الازهر »[٦٢] .

---

(٥٨) مقابلة مع الاستاذ جميل في داره بصنعاء/ مصدر سابق .
(٥٩) أريك ماكرو / اليمن والغرب ١٥٧١-١٩٦٢ / نقل الى العربية وعلق عليه د. حسين عبدالله العمري / دار القلم - دمشق ١٩٧٨ ص ١٦١ .
(٦٠) أدجار / مصدر سابق ص ٩٠ .
(٦١) أريك ماكرو / مصدر سابق ص١٥٨ .
(٦٢) مقابلة مع جميل جمال / صنعاء / مصدر سابق .

لقد استمرت الثورة حرة (خمسة وعشرين) يوما ، وكان القائد جمال فيها (حازما ويقظا وصارما) وبدأت المؤامرة على الثورة من قصر (غمدان) من الجنود الموالين للامام أحمد • واستسلام الامام عبدالله الوزير[٦٣] وقام الرئيس الشهيد جمال بتوزيع الاموال على بعض رجال الثورة ومشايخ الحارات في صنعاء ، لكي يغتنموا تأييد الجماهير الثورة واخلاصهم[٦٤] •

الشهيد جمال واليوم الاخير للثورة

يصف المؤرخون الذين كتبوا عن هذه الثورة بأن نهاية الرئيس جمال كانت (مأساوية حزينة) ، والاسلوب الوحشي الذي واجهه حيث أصبح كما يقول هؤلاء المؤرخون (كل يماني يحني رأسه خجلا عند سماعها)[٦٥] •

لقد استسلم الرئيس الشهيد في (قصر غمدان) وهو الذي جاء وسلم نفسه وتم تسفيره ضمن الدفعة الاولى من زعماء الثورة الى سجن (حجة) الذي تم اعدام الثوار منهم الامام عبدالله الوزير وآخرون تم ايداعهم الى سجن (نافع) وقد طلب الشهيد جمال من تلامذته (ضباط المدفعية الحربية) بقوله « لا معنى للاستبسال الاحمق وطلب منهم النجاة كل بأسلوبه الخاص »[٦٦] •

ويقول الاستاذ جميل ان آخر يوم شاهدنا فيه الوالد عندنا في مقر القيادة الان يسمى (مركز جمال جميل) في ساحة التحرير بصنعاء كان « أنا وأخي محمد حيث جاءنا مرافقا وكان في الخمس الايام الاخيرة هو القائد الفعلي للثورة »[٦٧] •

---

(٦٣) عبدالله بن أحمد الثور / مصدر سابق ص ٨٣ .
(٦٤) أحمد بن محمد الشامي / مصدر سابق ص ٢٧٨.
(٦٥) أحمد بن حمد الشامي /مصدر سابق ص ٢٧٩ .
(٦٦) المصدر نفسه ص ٢١٠.
(٦٧) مقابلة مع الاستاذ جميل/ صنعاء/ مصدر سابق .

ويقال انه كان في السجن أحد (السجناء السياسيين) الذين استحوذ عليه الجبن كتب للامام أحمد يقول (لا أريد أن أجلس مع العلج العراقي ولا أواكله ولا أنظر اليه) ويقال ان الامام أجابه بقوله(٦٨) :

(في مجالستكم ومواكلتكم ومرافقتكم للعراقي شرف عظيم لكم) .

وكانت الذكريات لعائلة الشهيد جمال (أليمة ومريرة) كما يقول الاستاذ جميل وقام عمنا خليل باحضارنا للعراق في مطار جدة ودفع هو بطاقات السفر التي وصلت بحدود (٤٠٠) دينار وقسطوها على راتبه ، وقام بعد ذلك نوري السعيد باطفاء الجزء المتبقي منها(٦٩) .

وصلت برقية الامام أحمد الى ولي العهد (عبدالاله) الوصي على عرش العراق قال فيها « ان الباعث لهذا هو الشكر لموقف سموكم النبيل الاخوي في حادثة اليمن المشؤومة، ولن ننسى لسموكم ما بذلتموه من عطف وعناية ولا يستغرب ذلك من قبل سموكم اذ هي عاطفة النسب التي تمت الى أصل واحد وبيت واحد ، يجب عليهم التكتل والاجتماع على ما فيه خيرهم وصالح بلادهم التي نعدها بلدا واحدا وان نأت مسافاتها)(٧٠) .

وجاءت البرقية بعد أن استأذن الامام أحمد زميله (نوري السعيد) في قتله .

ومات (بضرب عنقه) وهو صائم وقد قال فيه الشعراء الكثير ومنهم ما قال(٧١) .

خرجوا يقودون الرئيس كأنه ... ملك وهم حول الرئيس سوام
أجمال ما بال العروبة لم ترع ... لما تحطم سيفها الصمصام

---

(٦٨) أحمد بن محمد الشامي / ص ١٨١ .
(٦٩) مقابلة مع الاستاذ جميل في داره صنعاء/ مصدر سابق .
(٧٠) علي محمد عبده / ثورة صنعاء عام ١٩٤٨ وما رافقها من خلاف ما بين الامراء ، مجلة الاكليل ، العدد الثاني والثالث / صنعاء ١٤٠٣هـ ١٩٨٣ ص ٥٨ .
(٧١) مركز الدراسات / ثورة ١٩٤٨/ مصدر سابق / ٦٢٤ .

الخلاصة :

تمثل ثورة ١٧ شباط ١٩٤٧ في اليمن حدثا تاريخا مهما وقد صنعت هذا الحدث أو ساهمت فيه (مدرسة العراق) التي درس فيها اليمانيون من الامراء ، الذين كانوا يشكلون أعضاء البعثة الاولى والثانية فضلا عن الرئيس جمال جميل من أعضاء البعثة العسكرية العراقية ، الذي جاء الى اليمن لتدريب الجيش اليمني وتأسيسه والذي أصبح له مكانة خاصة ومرموقة وواحدا من رجالات الجيش المعروفين .

ولقد ساهم مع رجالات هاتين البعثتين فضلا عن رجالات اليمن الاولى من أمثال أحمد المطاع ، ومحمد محمود الزبيري وغيرهم وتخليص الشعب اليماني من الظلم الذي يعيش فيه في ظل الامام يحيى .

وكانت هذه الثورة على الرغم من سقوطها بعد خمسة وعشرين يوما من قيامها «ثورة تاريخية» لانها نقلت اليمن من قاع الهزيمة والاستسلام لحكم الامامة الى ذروة الثورة والمقاومة وأعطت الدرس الاول للشعب وهذا الدرس يقول ان الشعوب تثور على حكامها الظالمين وفعلا كانت كلمات الرئيس الشهيد جمال جميل عند اعدامه (لقد حبلناها وستلد) بحق قد تجسدت في قيام ثورة ١٩٥٥ وثورة ١٩٦٢ التي أسقطت نهائيا نظام الامامة وان دور الرئيس جمال جميل كان حاضرا ، وظلت كلماته قائمة الى اليوم يقولها كل (يماني) واستشهاده ومعه كل شهداء الثورة ، لم تعد كما يقوله الشاعر اليماني البردوني (ملك حجة أو القلعة حيث كل الاحرار مسجونين ، لقد أصبح ملك التاريخ اليماني ، ملك الاجيال)[٧٢] .

---

(٧٢) محمد علي الشيهاري / مساجلات حول حركة الاحرار اليمنيين / مركز الدراسات والبحوث ـ صنعاء ـ ١٩٨٠ ص ١٨٠ .

ان روح هذه الثورة ظلت تنمو بنمو الظلم المتزايد الذي كان يعيشه شعب اليمن[٧٣] من هنا فان استشهاد الرئيس جمال جميل ورفاقه هـو من أجل هذا الشعب وكما قال أيضا في ساحة الاعدام « اننا قد فتحنا لكم نافذة النـور » ويقال (انه عندما احضروه عصر ذات يوم من ايام رمضان الكريم وهو صائم يرسف في قيده الى ساحة الاعدام في (قاع شرارة) وقبل أن يضرب السيـاف رأسه أقبل أحد المسؤولين وشتم جمال وضرب أنفه بعصاه ، قالوا ان جمـال نظر اليه نظرة احتقار وسخرية وقال (شجاع شجاع ايها البطل) وبادر السياف فاختطف رأسه بالحسام وكانت هذه نهاية هذا البطل الشجاع الشهيد[٧٤] .



(٧٣) عبدالعزيز العيزادي / الثورة بين الضرورة والاجتيـاح / مجلـة اليمـن الجديد / العددالتاسع السنة الثامنة عشر سبتمبر ١٩٨٩ ص ٧٦ .

(٧٤) احمد بن محمود الشامي / المصدر نفسه ص ٢٩١ .

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق غير المنشورة

دار الكتب والوثائق ــ ملفات البلاط الملكي (٣١١)

١. د.ك. و / البلاط الملكي ٣١١/٧٧١ .

كتاب المفوضية في جدة المرقم ٦٧ والمؤرخ في ١٩٣٨/١٢/١٨ الموجه الى وزارة الخارجية بشأن أحداث (شبوة) في اليمن و ٤٢ .

٢. د.ك.و / البلاط الملكي ٣١١/٨٩٩

نص معاهدة الصداقة بين العراق واليمن و ١٦

٣. د.ك.و / البلاط الملكي ٣١١/٧٠٩ .

كتاب سري من رئيس البعثة العراقية في اليمن الى وزارة الخارجية العراقية رقم / ٢٤ والمؤرخ في ١٩٤٢/١/٢٠ .

٤. د.ك.و / البلاط الملكي ١٥٦٩ / ٣١١ (البعثات العسكرية) كتاب وزارة الدفاع رقم ع/٣٧٩/٤/٦٠٣١ (٣ محرم ١٣٥٩هـ) الموجه الى سكرتارية مجلس الوزراء و ٢٠٢.

٥. د.ك.و. / البلاط الملكي ٣١١/٢٨٢٩

تقرير الرئيس جمال جميل المرقم ١/١ في ١٩٤٦/٤/١٢ موجه الى وزارة الخارجية العراقية و ٧٦.

ثانيا : الدوريات

١ ــ مجلة اليمن الجديد / العدد الرابع ــ اكتوبر ونوفمبر ١٩٨١ .
جون بولدري / الادارة العسكرية البريطانية في الحديدة /ديسمبر ١٩١٨ يناير ١٩٢١ تعريب بلقيس الحضراني .

٢ ــ مجلة اليمن الجديد / العدد الثاني ــ السنة الاولى ١٩٧٩ سلطان ناجي/ جيش الامام يحيى .

٣ ــ مجلة اليمن الجديد / العدد التاسع ــ السنة الثامنة عشرة ــ سبتمبر ١٩٨٩ عبدالعزيز العيزادي / الثورة بين الضرورة والاحتياج .

٤ ـ مجلة الحكمة اليمانية / العدد ٣/ السنة الثالثة / المجلد الثالث محرم ١٣٦٠ هـ يناير وفبراير ١٩٤١ .

٥ ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية / العدد ٢٣ السنة السادسة ـ يوليو ١٩٨٠ دزنجي سموئيل / الحركة الوطنية واثرها على حركة السادس والعشرين، سبتمبر ١٩٦٢.

٦ ـ مجلة الاكليل ـ العدد الثاني والثالث ـ صنعاء ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م علي محمد عبده / ثورة صنعاء عام ١٩٤٨ وما رافقها من خلاف ما بين الامراء.

٧ ـ جريدة صوت اليمن / العدد ٢٥ في تموز ١٩٤٧ .

ثالثا : الكتب

١ ـ الاشول / ناجي علي / الجيش والحركة الوطنية في اليمن ١٩١٩ـ١٩٦٩ ، دراسة تاريخية عسكرية سياسية / صنعاء ١٩٨٥ .

٢ ـ بالافس ، أدجار /اليمن والثورة ١٩٤٨ـ١٩٦٨ / دراسات يمنية ١٩٦٨.

٣ ـ الثور ، عبدالله بن أحمد / ثورة اليمن ١٩٤٨ـ١٩٦٨ / دراسات يمانية / ١٩٦٨ .

٤ ـ الزبيري ، محمد محمود / ديوان الزبيري ـ المقدمة / صنعاء بلا .

٥ ـ السلال ، عبدالله وآخرون / ثورة اليمن الدستورية / دار الحكمة ـ صنعاء ١٩٦٥ .

٦ ـ سالم ، سيد مصطفى / تكوين اليمن الحديث / مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٨٤ .

٧ ـ سالم ، سيد مصطفى علي أحمد أبو الرجال / مجلة الحكمة اليمانية ١٩٣٨ ـ ١٩٤١ وحركة الاصلاح في اليمن / منشورات مركز الدراسات والبحوث ـ صنعاء ١٩٧٨ .

٨ ـ الشهاري / مساجلات حول حركة الاحرار اليمنيين / مركز الدراسات والبحوث ـ صنعاء ١٩٨٠ .

٩ ـ الشامي ، أحمد بن محمد / رياح التغير في اليمن /ط١ ـ بيروت ١٩٨٤ .

١٠ـ الشعيبي ، حمد / وثائق ودراسات /ج١ ـ ط١ / دمشق ١٩٨٣.

١١ـ العطار ، محمد سعيد / التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن / منشورات بيروت ١٩٨٦ .

١٢ـ عنان ، زيد بن هلي/ مذكراتي ـ المكتبة السلفية ـ القاهرة / السنة ١٤٠٣هـ .
١٣ـ المقالح ، عبدالعزيز /احمد الحورش ـ الشهيد المربي / سلسلة أعلام الحرية في اليمن /مركز الدراسات والبحوث اليماني ١٩٨٧ .
١٤ـ ماكرو أريك / اليمن والغرب١٥٧١ ـ ١٩٦٠ / نقل الى العربية وعلق عليه الدكتور حسين عبدالله العمري / دار القلم / دمشق ١٩٧٨ .
١٥ـ نعمان ، محمد علي وفاروق محمد لقمان / قصة الثورة اليمانية/عدن بلا.
١٦ ـ الوزير ، أحمد محمد بن عبد ربه / حياة علي بن عبدالله الوزير ـ كما سمعت وقرأت ط١ ـ منشورات العصر الحديث ١٩٧.

رابعا : الكتب بالانكليزية

1. Macro, E. Yeman and the Western World, London 1968.

خامسا : فالرسائل الجامعية غير المنشورة

١ ـ الخفاجي ، جمعة عليوي / العلاقات العراقية اليمانية ١٩٣٢-١٩٦٢ / رسالة ماجستير غير منشورة / كلية التربية ـ ابن رشد / جامعة بغداد ١٩٨٩ .
٢ ـ الشرفي ، محمد شوعي حسن /ثورة ١٧ شباط ١٩٤٨ في اليمن ـ دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير غير منشورة / كلية التربية ـ ابن رشد/ جامعة بغداد ١٩٩٦ .

سادسا : الاوراق الخاصة

الاوراق الخاصة للرئيس الشهيد جمال جميل عند ولده الاستاذ جميل/ صنعاء .

سابعا : المقابلات

١ ـ الاستاذ جميل جمال جميل في داره بصنعاء / مقابلتان .
٢ ـ الاستاذ خلدون جميل (شقيقه) عدة مقابلات / صنعاء .
٣ ـ مقابلة مع الاستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح في مكتبه بمركز الدراسات والبحوث / صنعاء .
٤ ـ مقابلة مع العقيد المتقاعد (صالح يحيى علي الخلقي) في داره بمحافظة ذمار / اليمن .

من : نقيب جمال جميل

الى : وزير الخارجية العراقي ـ بغداد

التاريخ : ١٦ اكتوبر ١٩٤٧

التقرير السري الى الحكومة العراقية والمخابرات البريطانية عن التحضير لثورة ١٩٤٨

ترجمة للاصل (النص)

مع هذا نسخة من نداء الشعب اليمني الى وزير خارجية العراق
النداء موجه الى صاحب السعادة رئيس وزراء الشؤون
الخارجية العراقية ـ صالح جبر(١)

---

(١) لقد حصلت على هذه الوثيقة من الاخ محمد عبدالله الوزير (الامام) قائد ثورة ١٩٤٨ .

وقد سبق أن حصل عليها من ضمن الوثائق البريطانية أعطاها له السيد (دوجلاس) رئيس المركز الامريكي للدراسات اليمنية باليمن .

ويظهر في الرسالة التي وجهها الزعيم جمال جميل الى حكومته بالعراق والتي حصل على نسخة منها عضو المكتب البريطاني لمكافحة الجراد في الشرق الاوسط أثناء زيارته لليمن .

قد علق عليها كما هو واضح من خلال اعادة الصياغة . ولقد عرضت الرسالة على القاضي عبدالرحمن الارياني رئيس المجلس الجمهوري سابقا وعضو حركة أحرار ٤٨ ..

وأخذت رأيه في مدى صحتها والمعلومات التي وردت فيها فبقدر ما ابدى اعجابه باكتشاف هذه المعلومات أكد في نفس الوقت صحتها باعتبار ان جمال جميل كان مرسلا من الحكومة العراقية للعمل باليمن .

كما كان للاحرار اتصالات سرية بالحكومة العراقية للحصول على تأييدها للثورة .

محمد الشعيبي / وثائق ودراسات / حـ٢ ـ ط١ ـ دمشق ١٩٨٣ .

النـــداء

١ ـ اليمن في وضع تعيس سواء في الداخل أو الخارج وربما يحـدث تغيير مفاجىء في البلاد سوف يكون مضراً لكل من العرب والمسلمين •

٢ ـ ونحن متأكدون بأن الحكومـة الحالية التي تسير بارادة الامـام يحيي بن حميد الدين وأولاده قد طلبت من الامريكان أن ترسل قوات وأسلحة لحماية الأسرة من الشعب اليمني والجامعة العربية ، وبالرغم من أن الامريكان قد رفضوا الطلب مراعاة للوضـع الدولي الحالي الا أنه قد تم ارسال بعثـة من الكنقرس في طريقها الآن الى صنعاء •

٣ ـ يتطلع اليمنيون الى التخلص من الطاغية الامام • وليس هناك أحد ينقذنا من جو الارهاب الامامي ما عدا اخوانـنا الهاشميين ،هذا هو شعور الظلم الذي يشعر به الشعب والذي قد يحولهـم حتى نحـو التسليح مـن الروس • وليس من العجب أن يبحث هذا الشعب المغلوب على أمره علـى عون من الشيطان اذا يأسوا من الملائكة •

٤ ـ وقد فهمنا من الاتفاقيـة الأمريكيـة اليمنية الموسعة التي بـين الفرنسيين وسيف الاسلام عبد الله في باريس هي انقاذ الجانب الامريكي من الهروب عن الالتزامات خوفاً من الروس حتى لايفون بتعهداتهم ، وقد وصل بعض العملاء الفرنسيين الى صنعاء تحت أسماء أطباء وتجار •

نرسل هذا النداء الى الحكومة العراقية لانقاذنا من هذا الوضع التعيس الذي خلق الفقر والجهل والمرض ، والأمور الوحشية التي لا تعرف الرحمة •

وقد فقدت الحكومة مؤيديها ما عدا القاضي عبدالله العمري والسيد ــ علي بن ابراهيم وعدد بسيط من الرجال. والشعب كل الشعب يطالب بما يلي :

١ ــ تشكيل حكومة جديدة على أسس برلمانية وتحسين الاوضاع العامة .

٢ ــ ارغام الامام على قبول هذه المطالب أو غيرها أو يستقيل .

٣ ــ العراق هو البلد الوحيد الذي يطلب منه المساعدة .

نسخة من تقرير جمال جميل لوزير خارجية العراق بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٤٧ م

وقد أعطيت نسخة من التقرير لعضو من المكتب البريطاني لمكافحة الجراد في الشرق الاوسط أثناء زيارته لليمن (اعادة الصياغة) .

ويقول جمال جميل في تقريره وبسبب الوضع الخطير في اليمن قررت قيادة الوطنيين اليمنيين (جماعة الأحرار) ما يلي :

القيام بانقلاب بمساعدة من الدول الصديقة . أما مصر والجامعة العربية فمشغولتان بقضية فلسطين وشمال افريقيا عن كونها تقدم مساعدة ولهذا فالعراق وحده في وضع يمكنه من المساعدة ولما كان العراق أيضا تربطه علاقات متينة مع بريطانيا فان المخططين للانقلاب يعتبرونه في وضع يمكنه للوساطة لحل مشكلة الحدود بين اليمن والمحميات .

وهؤلاء اليمنيون يرجون الحكومة العراقية أن ترسل وفدا الى صنعاء لتقديم النصح للامام لتشكيل حكومة مسؤولة لتحسين الوضع السائد في اليمن ولاعادة النظر في تنقيح المعاهدة اليمنية ــ الامريكية التي هما في الحقيقة مؤامرة يهودية مباشرة ضد العرب .

وذهب جمال جميل بالقول : بينما هو يعد التقرير وصل الورتلاني والآنسي والحورش من مصر وبكل فخر أسسوا مجموعة ما ، وأنهى جميل تقريره بالالحاح على الوزير العراقي الذي كان في جدة لزيارة اليمن ليرى بنفسه الوضع لان الزمن يمر بسرعة • (والوقت متأخر جدا) •

صفحة ١٩٢

على أي حال فقد أراد الشباب في صنعاء تعيين السيد علي رئيسا للوزراء وتعيين سيف الحق ابراهيم رئيسا لمجلس الشورى • ويرى النعمان انه لايصح ان يكون تعيين السيد ـ علي الوزير رئيسا للوزراء لانه وعد بذلك لسيف الحق ابراهيم كما يرى انه متخوف من تركيز السلطة في يد أسرة آل الوزير والامر الثالث هو عدم الثقة بعلي الوزير من أيام ما كان الاخير محافظا للواء تعز حينما حاول محاصرة نفوذ آل النعمان ، ومهما يكن فان الاشارة تدل الآن على أن نفوذ النعمان وجمعية الاحرار في عدن لها نفوذ بسيط ولانها غير قادرة على تأثير أي تغييرات في اليمن •

وقد وضعت جمعية الاحرار خطة لاختيار امام الذي يلتزم بها وادخال تحسينات على وضع جماعة الاحرار عند موت الامام يحيى ، وهذه النقاط لم تكن فقط الانشطة الرئيسية للاحرار خلال الاشهر الماضية من عام ١٩٤٧م•

وبناء على قرارات الورتلاني مع الشباب والعلماء وبعض عائلات السادة وبعض الاحرار اليمنيين وافق الجميع على التقارب مع العراق للمساعدة •

وربما كانت المعلومات عن جمال جميل تعود الى (•••••••••) بالعراق في بغداد وأيده بعض السادة بعد وصول الورتلاني مباشرة الى العاصمة بطلبهم المساعدة وقد لاحظ مراقب انجليزي في صنعاء في وقت هذه الحركة ان جميل كان في البداية كان يكره التدخل في الحركة ولكنه كتب

رسالة في ١٢ اكتوبر ١٩٤٧م الى وزير خارجية العراق في بغداد معبرا له عن رغبة قيادة الوطنيين اليمنيين لتشكيل حكومة .

وقد نشرت أسماء المعينين للحكومة المقترحة مبدئيا في قائمة من قبل جماعة الاخوان المسلمين في القاهرة ذكر ان السيد ـ علي الوزير سيكون رئيسا للوزراء .

وتكون الحكومة مسؤولة عن ادخال تحسينات للاوضاع المتفشية هنا.. ويقترح انه يجب على الوزير العراقي الموجود في جدة أن يزور اليمن ليرى الوضع بنفسه قبل فوات الاوان .

ولم يوضح كيف يتصور الوضع الفاسد كمرجع يثير الاهتمام ليحقق رغبة هؤلاء القادة اليمنيين للقيام بانقلاب في البلاد بمساعدة من البلدان الصديقة ، وبعد أربعة أيام التي وصل فيها الورتلاني الى صنعاء قام جمال جميل بكتابة رسالة أخرى الى بغداد مرفقة بنداء كتبه المتآمرون* أنفسهم عبروا عن رغبتهم في التخلص من الامام وطغيانه الذي لا يعقل وأضاف بأنه لا أحد يمكنه انقاذنا من هذا الجو الارهابي ماعدا الاخوان الهاشميين، ومن الواضح ان كتابة النداء هم من السادة أو الهاشميين اليمنيين، ويريدون من الحكومة العراقية ـ بصورة خاصة ـ ان تمدهم بمبلغ ٢٠،٠٠٠ دينار عراقي أو ما يعادلها

---

* هذه العبارة بالنص الانكليزي كما كتبها عميل المخابرات البريطاني في صنعاء .

The Lead — Acid Batteries in the Past, Present and Future

Part 1- Historical, Technical and Scientific Developments

Jalal M. Saleh

Member of the Academy of Science

ABSTRACT

In spite of extensive and continued efforts aimed at developing new light — weight, low — cost " lead — acid " battery, invented 150 years ago, has still not been dethroned as the major battery system. Today, hundred of millions of lead acid cells are in use for many purposes all over the world, and the demands for such cells are still growing. Also in recent years, the commercial use of the lead — acid battery has continued unabated serving many applications. There have been great advances in the last few decades of lead — acid batteries technology. No new battery system is in sight now, which could do better than the lead — acid battery when it comes to a comparison of those price — performance — life ratios which alone are relevant to commercial use. The abundance of lead and its ease of recycling are also helping the lead — acid battery defend its position. Renewed interest in electric cars will give the lead — acid battery a new boost. The future will see many approaches to lead — acid battery technology, including the study of ultra — light grid structures. A brief survey of the principles, developments, structures and operations for such batteries is presented in the present paper.

ABSTRACT OF ALIENATION

Musare' El-Rawi

Member of the Academy of Sciences

ABSTRACT

Alienation as psychological and social phenomenon is the most dangerous problem faces mankind of this generation. This study tries to treat this problem on two levels.

The first level is international which covers five cores :

- Concept of Alienation.
- Types of Aiienation.
- Aspect of Alienation.
- Causes of Alienation.
- Traits of Alienation.



The second level is Arab – Islamic heritage which covers three cores:

- Arab heritage before Islam.
- Arab heritage during Islamic regime.
- Modern time.

The study ended with some suggestion to tacke the causes of this dangerous problem with emphasis on economic condition and academic freedom.

INDUSTRIAL ROBOTS

Prof. Dr. Munther N. B. Al-Tikriti
Member of Iraqi Academy of Sciences

ABSTRACT

The human race is now poised on the brink of a new industrial revolution that will at least equal, if not far exceed the impact of the first industrial revolution. This paper presents an account about the definition of a robot and about their usefulness that generate the needs for them. The paper also discusses the applications of robots especially in the industrial field, and also outlines the economic, social implication on the future society.

Key words: Robot, Robotics, Reprogrammable Machine Multifunctional, Features, Application, Social Impacts.

EVALUATION OF RESEARCHES IN IRAQI UNIVERSITIES

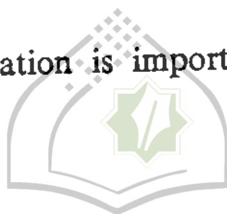
By Prof. H. Y. AL-Mallah

Member of Iraqi Academy of Sciences

ABSTRACT

The research deals with the problematic of classifying researches according to there scientific value to orginal, valuable, and useful. The main problem of this classification is what measure we must use in this sphere.

Neverthless, this classification is important and we must work for improving it by several ways.



" Investment of wealth in Islamic economic thought"

Prof. Dr. Hamdan Al-Kubaysi

ABSTRACT

Wealth was invested in Arab Islamic State in Several aspects : Commercial, agricultural and industrial. It gave back financial benifits, both to investors and public terasury, specially when it is well invested.

The state economic policy considers the personal wealth a part of that of the community, and that the investment of it will result in an increase of new work opportunities and the utilization of an uninvested energies, as well as an increase in productivity and social welfair.

AL-JAHIDH AND THE ARABIC PROVERBS

By Dr. Abdul-Jabar Alwan Al-Naila

College of Arts - Baghdad University

ABSTRACT

The research consisted of an introduction, preliminary and three chapters. The preliminary shed some light on Basrah, Its construction on 16A. H., its establishment and development until reached an a prominent statue in science and construction because of its excellent location on the Arab Gulf for its being a sea port, and its place along the Arabic desert on the west which make it a land port, so it became an commercial center then became one of the most important cities of the Islamic world in the second and third centuries.

The first chapter was about Al-Jahidh life who is Abu Ithman Amru Bin Bahar Bin Mahbub Al-Kinani in Basrah on 150 A.H. and grew up their. He studied their under the supervision of great teachers of linguistics, grammar, and speech sciences in addition to his personal readings in which he was very skillful until became a famous writer and better than his colleagues in the Abased state. He was skill in writing when he was able to write on a thing and its opposite and composed many books like "Al-Beian and Al-Tabeen", "The Animal" and "The stingy". He lived a long time till 255 A.H.

The second chapter was about proverbs and the interest of people in them every time and every where because of their importance to enclose the idea to the hearer briefly, in addition to its being a summery of the human experiences. It is considered one of the sublime arts which transfers across generations.

Al-Jahidh did not forget the importance of proverbs. He composed several books related to this subject and what we read now of these proverbs in his books give us a good idea of his interest of this subject. He used them in this books and we do not find an empty page of these proverbs and he succeeded to put them in their appropriate places. He mentioned proverbs which present the pre - Islamic period, and another during Islam with proverbs said in Basrah during his time and he heard them from people in Al - Basrah mosque or in Al - Marbid or in Markets and also proverbs of the Kuffians and these were the contains third and last chapter.

SUBAITILA BATTLE : AN EXAMPLE OF VICTORY DUE TO CAPACITY RATHER THEN FORCE

Natic S. Matloob

College of Art - Mosul University

ABSTRACT

Subaitila Battle is considered one of the most important battles fought by Arab troops against the biggest Byzantine build-up of forces in an African state and gained, after long skirmishes and fighting, a decisive victory, the winning of which would not have been easy were it not for the genius and wisdom of the military leadership.

Judges from its objectives and outcomes the Battle of Subaitila, represented a genuine pattern of the victory of true believers over those using a brute force and ensured to the Arabs the advantage of spiritual supremacy over the Byzantines in later battles.

JAMAL JAMIL AND HIS ROLE IN THE NATIONAL MOVEMENT AND THE RISE OF THE 1948 TEVOLUTION IN YEMEN

Dr. Yasin Taha Dhahir al-Askari
College of Education for Girls
Department of History
University of Baghdad

ABSTRACT

Jamal Jamil was born in the city of Mosul, Iraq in 14/3/1912. He ended his secondary school and entered the military college of Baghdad in September 1928. He participated in the political events in Iraq and especially in Bakir Sidki movement in 1936. Captain Jamal Jamil went to Yemen as a member of the Iraq military mission in 1940 and became an instructor of Artislary in the Yemni Army. Later on he became a revolutionary leader in the Yemeni national movement. He also organized the free officers' movement in Yemen. Jamal Jamil succeeded in the rise of the first revolution in Yemen in 1948 against the Imam (Yahya).

After the failure of that revolution, Jamal was executed together with some Yemeni leaders. However the 26 of September 1962 revolution led by Abdulah al-Salal (the first president of the Yemeni Republic regarded Jamal Jamil a national Hero and a martyr for the sake of the emancipation and progress of the Yemen.